

النظرية في علم الاجتماع

(دراسة نقدية)



تأليف

الدكتور سمير نعيم أحمد

أستاذ علم الاجتماع

بجامعة عين شمس والكويت

الطبعة الخامسة

١٩٨٥



دار المعارف

النظرية في علم الاجتماع

(دراسة نقدية)

تأليف

دكتور سمير نعيم أحمد

أستاذ علم الاجتماع
جامعة عين شمس

مع التحية سمير إبراهيم خليل

٢٠٠٦

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

شكر وتقدير

لا يسعنى وأنا أقدم الطبعة العاشرة من هذا الكتاب إلا أن أعبر عن عظيم امتنانى وشكرى لكل زملائى من أعضاء هيئة التدريس بأقسام الاجتماع بالجامعات المصرية والعربية وللباحثين بمراكز البحوث الاجتماعية العربية ولبناتى وأبنائى من طلاب أقسام الاجتماع فى كل من المشرق والمغرب العربى الذين درسوا هذا الكتاب سواء فى مرحلة ما قبل الليسانس أو فى مرحلة الدراسات العليا على ما لقيه هذا المؤلف من اهتمام منهم وعلى ما أبدوه من تقدير له وما زودونى به من ملاحظات تقويمية ونقدية واقتراحات بتعديلات أو إضافات لهذا الكتاب، قمت بتدوينها جميعاً وإعداد طبعة تالية تتضمن تلبية لاقتراحات الزملاء والأبناء من الطلاب.

وأهم هذه الإضافات فصل جديد عن نظريات ما بعد الحداثة ونقدها وتقييمها بناء على نفس الأسس التى وضعناها لتقييم النظرية الاجتماعية فى الطبعة الأولى وطبقناها على الاتجاهات النظرية التقليدية والحديثة.

كذلك وضع خريطة مبسطة تتضمن كافة عناصر الاتجاهات النظرية وأهم مفهوماتها وعلمائها والنقد الموجه لها يسترشد بها الدارس عند وبعد قراءته للنظريات التى يحتوى عليها هذا الكتاب.

والله الموفق،،

سمير نعيم أحمد

يونيو ٢٠٠٦

"يتحدث معظم العلماء الاجتماعيين اليوم بحرارةٍ عن فائدة النظرية، ومع هذا فحينما تسعى للحصول على إجابة للسؤال "ما المقصود بالنظرية فى العلم الاجتماعى؟ نواجه بتعريفات متضاربة أو غامضة فى أحسن الأحوال"[١] ويمضى بعد ذلك فى تعداد وجهات النظر المختلفة لدى علماء الاجتماع حول معنى النظرية.

وقد كتب عالم الاجتماع الأمريكى روبرت مرتون Robert K. Merton ذات مرة يقول :

"يوجد فى الولايات المتحدة الأمريكية خمسة آلاف عالم اجتماع، ولكل منهم علم الاجتماع الخاص به"، كما قرر عالم الاجتماع الأمريكى هيوجز E.C. Hughes فى المؤتمر الدولى الخامس لعلم الاجتماع أنه لا يوجد علم اجتماع واحد، بل هناك علم اجتماع أمريكى، وآخر سوفيتى، وثالث يوغسلافى، .. وصينى .. الخ[٢].

ويقول قطب آخر من أقطاب علم الاجتماع مبرراً الموقف ومخففاً من حدته.

"هناك فى العلوم الطبيعية كالفيزياء أو الكيمياء - بوجه عام - نظرية واحدة فقط على مستوى عالى من التجريد، أو مجموعة من النظريات المرتبطة التى يكمل بعضها بعضاً. ولكن هذه العلوم قد وصلت إلى هذه المرحلة من النضج بعد أن مرت بمرحلة النظريات المتصارعة التى قد تتمثل فى نظريتين أو أكثر تتعايش معاً. ومازال الحال كذلك فى علم الاجتماع، حيث لا يوجد إطار من القضايا المتسقة أو المتجانسة، أو المعروفة والتعميمات بوصفها اشتقاقات منطقية لمبادئ محددة، بل أن علم الاجتماع قد تميز فى نموه بظهور مجموعة كبيرة وغير عادية من النظريات المتصارعة".

وينطلق تيماشيف بعد ذلك ليطمئن القارئ ويعده بأن الاختلاف بين علماء الاجتماع أخذ فى التناقص والتقلص[٣].

ويعبرّ عاطف غيث عن الموقف النظرى فى علم الاجتماع المعاصر بقوله :

"تعددت المواقف النظرية فى علم الاجتماع الجديث، حتى أصبحت معالجة موضوعاته من خلال موقف نظرى واحد، مخاطرة كبيرة على حساب الوضوح والتحليل الصحيح، بالإضافة إلى عدم التصور المتكامل للحقيقة الاجتماعية كما أن الانحياز الأيديولوجى يكون أمراً من الصعب تجنبه. ولهذا يميل عدد من الباحثين فى علم الاجتماع اليوم إلى تبنى نظرة متعددة الجوانب أو الالتزام بتعدد العوالم عند التفسير والتحليل(٤).

هذه أمثلة قليلة جداً مما يقوله علماء الاجتماع عن الاختلافات فيما بينهم ونكاد نجزم بان كل مرجع فى علم الاجتماع بوجه عام وعن النظرية فى علم الاجتماع بصفة خاصة يذكر صراحة أو ضمنا عدم اتفاق علماء الاجتماع حتى على تعريف أبسط المفهومات، التى هى المادة الأولية فى بناء أى نظرية علمية.

هذه أول صعوبة يواجهها دارس النظرية فى علم الاجتماع - صعوبة تعدد النظريات - التى تحاول تفسير الظاهرات الاجتماعية" ويرتبط بهذه الصعوبات الأولية والرئيسية مجموعة من الصعوبات المتفرعة عنها أهمها أن كلا من النظريات الأساسية فى علم الاجتماع تضم داخلياً اتجاهات مختلفة بعضها قد يكون قديماً والبعض الآخر قد يكون حديثاً ويرتبط كل من هذه الاتجاهات باسم عالم من العلماء أو أكثر. ومما يزيد الأمر تعقيداً أو صعوبة أن كل نظرية من النظريات الأساسية وكل اتجاه من الاتجاهات الفرعية داخلها يضم حشداً هائلاً أما من المفهومات والمصطلحات المختلفة التى تشير إلى نفس الشئ أو المفهومات والمصطلحات المتشابهة التى تشير إلى أشياء مختلفة. وتلك الصعوبة على جانب كبير من الأهمية لأنها تجعل عملية المقارنة بين النظريات بل مجرد عرضها بشكل واضح أمراً بالغ التعقيد.

وتتعلق الصعوبة الثانية والأساسية التى يواجهها دارس النظرية الاجتماعية بتصنيف هذه النظريات أو مسمياتها. فمثلما لا توجد نظرية عامة واحدة متفق عليها بين علماء الاجتماع لا يوجد أساس واحد لتصنيف هذه النظريات أو حتى لإطلاق مسميات عليها. ذلك أن تصنيف النظريات فى حد ذاته يعتمد على الإطار النظرى الذى يتبعه القائم بالتصنيف. ولنأخذ مثالاً واحداً فى ذلك - حالة أميل دور كايم عالم الاجتماع الفرنسى الشهير - لقد صنفه دون مارتندال تحت ما أسماه بالنظريات العضوية الوضعية[٥] بينما صنفه كل من تيماشيف[٦] وأبل[٧] تحت ما أسمياه بعلم الاجتماع التحليلى؛ وصنفه هاجدورن تحت النظريات البنائية وصنفه كوزر تحت ما أسماه بالنظريات الاجتماعية بينما يصنفه الماركسيون تحت النظريات المثالية. ولسنا بصدد حصر للتصنيفات المختلفة لدور كايم وهى كثيرة، ولكننا نقدم للقارئ بعض الأمثلة القليلة على تعدد مسميات النظريات وأسس التصنيف، وينطبق هذا بالطبع على كافة أصحاب النظريات الاجتماعية.

أما الصعوبة الثالثة فى دراسة النظرية الاجتماعية فتتمثل فى اختلاف أسس تقييم النظريات الاجتماعية. فكل اتجاه نظرى يضع أساساً لتقييم النظرية الاجتماعية تنبع من المسلمات الأساسية التى يعتمد عليها ويختلف بالطبع عن أسس تقييم النظرية المستمدة من غيره من الاتجاهات.

ومثلما توجد نظريات مختلفة فى علم الاجتماع وأسس مختلفة لتصنيف النظريات وأسس مختلفة لتقييمها توجد أيضا تفسيرات مختلفة لهذه الاختلافات جميعا. فبعض علماء الاجتماع يرون أن هذه الاختلافات مرحلية وأنه مع تطور علم الاجتماع ونضجه سيتوفر لهذا العلم نظرية أساسية مثل بقية العلوم، بينما يرى البعض الآخر أن هذه الاختلافات سمة لازمة لعلم الاجتماع وأن التعدد فى النظرية الاجتماعية يعكس طبيعة الظاهرات الاجتماعية المعقدة، فكل موضوع من الموضوعات المختلفة التى يدرسها علم الاجتماع يحتاج إلى منظور يختلف عن ذلك الذى يحتاج إليه غيره.

بينما يرى آخرون أن كل هذه الاختلافات المتعلقة بالنظرية الاجتماعية إنما تعكس مواقف أيديولوجية وسياسية لعلماء الاجتماع تعبر بدورها عن أوضاع اجتماعية واقتصادية وسياسية سائدة فى المجتمعات التى تنشأ فيها هذه النظريات. بل أن هناك من يرى أن هذه الاختلافات فى حد ذاتها لا تزيد عن كونها جهداً مقصوداً لتغليف الواقع الاجتماعى بالغموض وتصويره على أنه غير قابل للفهم من أجل إخفاء حقائق النظام الاجتماعى فى المجتمع الذى يعيش فيه علماء الاجتماع والمحافظة على هذا النظام.

ومن المؤكد أن كل من تعرض لمهمة الكتابة عن النظرية الاجتماعية ولمهمة تدريسها قد شعر بوطأة هذه المشكلات جميعاً عليه. فبالإضافة إلى الجهد الخارق الذى لابد أن يبذله فى عملية الإلمام بكافة الاتجاهات النظرية وتفرعاتها فى علم الاجتماع وفى عملية المقارنة بينها والبحث عن نقاط الاختلاف والاتفاق بينها ودراسة المعانى المختلفة التى تضيفها كل نظرية على المفهومات التى تستخدمها، أقول بالإضافة إلى ذلك كله عليه أن يبذل جهداً آخر فى محاولة عرض ما تم له استيعابه وما توصل إليه من استنتاجات بطريقة منظمة ومنطقية (على الرغم من أن المادة موضع دراسته ليست أصلاً منظمة ولا منطقية فى معظم الأحوال).

ويمكن أن نشعر بوطأة هذه المشكلات على المؤلف فى هذا الميدان من قراءتنا لمقدمات الكتب التى تتناول النظرية الاجتماعية من قول عالم الاجتماع الأمريكى الشهير "دون مارتندال" فى مقدمته لكتابه "طبيعة وأنماط النظرية الاجتماعية": "لابد أن اعترف بأننى فى محاولاتى هذه لاستكشاف طبيعة وأسس الصور المختلفة من النظرية الاجتماعية وقدراتها التفسيرية كنت استرشد بهدف واحد لا غير - أن أفهمها أنا أولاً"[٨].

بيد أن هذه الصعوبات التى تحدثنا عنها لا يجب بحال أن تعوق المتخصص فى علم الاجتماع عن فهم طبيعة وأنماط النظرية الاجتماعية مهما

كان موقفه من أى من هذه الأنماط، إذا كان يرغب حقاً فى فهم أى من الظاهرات الاجتماعية التى يتخصص فى دراستها أو فهم المجتمع الذى يعيش فيه بوجه عام.

أن أى باحث فى أى علم من العلوم لا غنى له عن نظرية توجهه فى جمعه للوقائع المتعلقة بالظاهرة التى يريد دراستها أو فى اختباره للفروض التى يضعها وفى اختياره للمنهج وللأدوات يستخدمها فى دراسته، فبدون هذه النظرية يتخبط فى جمع معلوماته بحيث تأتى غير مترابطة ثم يعجز فى النهاية عن إضفاء معنى عليها أو تفسيرها. ولكن أى نظرية سيختار من بين هذا الحشد من النظريات المتضاربة فى ميدان علم الاجتماع؟ وعلى أى أساس تكون مفاضلته بين هذه النظريات؟

إن هذا الكتاب محاولة للإسهام فى توضيح المعالم الأساسية للاتجاهات النظرية المختلفة فى علم الاجتماع وفى وضع أسس علمية للمفاضلة بين هذه النظريات تساعد الدارس والباحث على التعرف على نواحى القوة والقصور فى كل منها واتخاذ موقف نقدى منها. وقد حاولنا تحقيق هذا الهدف عن طريق ما يأتى:

١- مناقشة معنى النظرية ودورها فى العلم بوجه عام ومحاولة تشخيص الوضع الراهن للنظرية فى علم الاجتماع والعوامل التى ترتبط بعدم وصول هذه النظرية إلى المستوى العلمى المطلوب.

٢- مناقشة وتحديد الأسس التى يمكننا على أساسها نقد وتقييم النظرية الاجتماعية والمقارنة بين النظريات المختلفة.

٣- عرض الأفكار العامة والمسلمات الأساسية التى يركز عليها كل اتجاه من الاتجاهات النظرية فى علم الاجتماع بصورة واضحة مع تجنب مناقشة التفاصيل الفرعية التى تزيد من غموض الاتجاه تجعل القارئ يضل سبيله بين متاهات هذه التفاصيل، مع إحالة القارئ إلى المراجع التى يمكنه الاستزادة منها فيما يتعلق بكل اتجاه.

٤- تطبيق أسس نقد وتقييم النظرية الاجتماعية على كل اتجاه واستخلاص مسلماته الأساسية ومناقشتها.

أما فيما يتعلق بأسلوب عرض الاتجاهات النظرية الأساسية فى علم الاجتماع فى هذا الكتاب فقد رأينا أن نبدأ بالنظريات الكلاسيكية ونناقشها، نظراً لأنها تتضمن المسلمات الرئيسية التى ترتكز عليها كل الاتجاهات النظرية المعاصرة. وقد بينا خلال هذا العرض أنه على الرغم من بزوغ أسماء ومسميات جديدة فى ميدان النظرية الاجتماعية إلا أن ذلك لم يقدم جديداً يذكر فى هذا الميدان يمكن أن يضاف إلى أعمال العلماء الكلاسيكية، وعلى هذا فإن النظريات الاجتماعية الحديثة لا تزيد عن كونها "صياغات جديدة لمسلمات قديمة" كما أسميناها. وقد ركزنا على بيان العلاقة بين المسلمات الأساسية التى يحتوى عليها كل اتجاه نظرى من جهة وبين التوجه الايديولوجى لصاحب هذا الاتجاه والمضامين الايديولوجية له، وما يشير إليه من إجراءات اجتماعية عملية من جهة أخرى حتى يكون الدارس على وعى بالموقف السياسى الذى يتخذه عند اختياره لأى من الاتجاهات النظرية السائدة فى علم الاجتماع.

وتركيزنا على هذه العلاقة يستند على ما أثبته الكثيرون من علماء الاجتماع من عدم الحياد الايديولوجى فى النظرية الاجتماعية منذ نشأتها وارتباطها الوثيق بالموقف السياسى لصاحب النظرية.

ويجب أن نذكر فى هذا المقام أن الخلفية الفكرية التى نعتمد عليها فى عرضنا ومناقشتنا للنظرية الاجتماعية فى علم الاجتماع مستمدة من المعرفة المتوافرة فى ميدان علم اجتماع المعرفة بصفة عامة وعلم اجتماع علم الاجتماع Sociology of Sociology بصفة خاصة.

وأهم ما نركز عليه فى هذا الصدد حقيقة أن المعرفة (والنظرية الاجتماعية إحدى صورها) تكون دائما نتاجاً للظروف الاجتماعية والثقافية التى

تظهر فيها، وتعكس إلى حد كبير الموقع الاجتماعي للعالم وبخاصة الطبقة التى ينتمى إليها كما يقرر عالم اجتماع المعرفة كارل مانهايم.

ولكن على الرغم من أن هذه الحقيقة قد وجهتنا دائماً فى عرضنا وفى تقييمنا للنظرية الاجتماعية إلا أننا لم نحاول أن نجعل من هذا الكتاب مؤلفاً فى علم اجتماع المعرفة أو فى علم اجتماع النظرية الاجتماعية، وبالمثل فإنه على الرغم من تسليمنا بأن الظروف التاريخية التى ارتبطت بظهور كل اتجاه نظرى قد تركت بصماتها واضحة عليه فإننا لم نحاول أن نجعل منه كتاباً فى تاريخ الفكر الاجتماعى، فكل موضوع من هذين الموضوعين يتطلب مؤلفاً مستقلاً يتناول بعمق وتفاصيل وعن دراية تاريخ المجتمعات الغربية وتحليلاً مستفيضاً للظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية التى ظهرت فيها هذه الاتجاهات ويربط بين التغيرات الاجتماعية من جهة وبين التغيرات أو التعديلات التى طرأت على النظرية الاجتماعية من جهة أخرى وتقديم الأدلة على انتماءات وولاءات وأنشطة أصحاب هذه النظريات وانعكاسها على نظرياتهم وفوق هذا كله فإن مثل هذه المؤلفات تنطلق من التسليم بأن القارئ على علم كاف بالنظريات التى تؤرخ لها أو تحللها اجتماعياً.

إن محاولة الجمع بين الأهداف الثلاثة (التحليل الاجتماعى للنظرية الاجتماعية والتأريخ للفكر الاجتماعى وعرض النظرية الاجتماعية بشكل واضح وتقييمها) فى مؤلف واحد لا يمكن أن ينجم عنه سوى عدم تحقيق أى منها بطريقة جدية.

وأخيراً أود أن أقرر أننى قد استفدت كثيراً عند وضعى لهذا المؤلف من المناقشات المثمرة التى دارت بينى وبين طلابى بالجامعات المصرية (عين شمس والقاهرة والإسكندرية والمنيا) والأمريكية (جامعة سان فرنسيسكو) والعربية (الجزائر وقاريونس) أثناء تدريسى لهم مواد علم الاجتماع ومادة النظرية الاجتماعية لمدة تزيد على العشر سنوات سواء فى مرحلة الليسانس أو مرحلة

الدراسات العليا كما أننى قد أفدت من مناقشة الزملاء من الأساتذة المصريين والأجانب الزائرين وطلاب الماجستير والدكتوراه لآرائى ومناقشتى لآرائهم أثناء جلسات السمنار الذى يعقد أسبوعياً بقسم الاجتماع بجامعة عين شمس منذ عام ١٩٦٩.

وقد أتاحت لى فرصة زيارة جامعة Hull بالمملكة المتحدة خلال شهر ديسمبر ١٩٧٦ إمكانية الاطلاع فى مكتبتها على أحدث المراجع الأجنبية فى موضوع النظرية الاجتماعية، وأتوجه بالشكر للأستاذ الدكتور بونز Pons رئيس قسم الاجتماع بالجامعة والدكتور طلال أسد أستاذ الأنثروبولوجيا وأعضاء هيئة التدريس بالقسم على ما بذلوه من جهد وما قدموه من مساعدة.

ولابد أن أشيد هنا بالجهد القيم الذى قدمه أساتذة ورواد علم الاجتماع فى الجامعات المصرية فى شرح وتقديم النظريات الاجتماعية للقارئ العربى والذى يجد القارئ ثبتاً بمؤلفاتهم فى النظرية الاجتماعية فى آخر الكتاب وأرجو أن يكون هذا العمل امتداداً لإسهاماتهم.

ولا يسعنى فى النهاية إلا أن أشكر كل من أسهم من الزملاء والأصدقاء فى إكمالى لهذا العمل سواء بالمناقشة أو المساعدة الفعلية، وأخص بالذكر الأستاذ الصديق الدكتور/ عاطف غيث رئيس قسم الاجتماع بكلية الآداب جامعة الإسكندرية لتشجيعه الدائم لى على الكتابة فى هذا الموضوع ولمناقشته المثمرة معى للاتجاهات النظرية ولآرائه النقدية التى أثرت مجال علم الاجتماع فى مصر.

وأتوجه بالشكر للزميلين الصديقين مجدى حجازى المدرس المساعد بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية وشادية على قناوى المدرس المساعد بقسم الاجتماع بآداب عين شمس لمناقشاتهما البناءة ولحثهما الدائم لى لإكمال هذا العمل، والآنسة سهام نعيم أحمد على ما بذلته من مجهود كبير فى

إعادة نسخ أصول الكتاب ومراجعة تجاربه وما أبدته من ملاحظات أثناء ذلك العمل.

كما كان لزوجتي وبناتي هالة وهبة وسحر أكبر الفضل في توفير الجو المناسب لإنجاز ذلك العمل وتحملن في سبيل ذلك الكثير فلهن كل تقدير.

وأنني لآمل أن يسهم هذا العمل في تحقيق بعض من الوضوح الفكري فيما يتعلق بالنظرية الاجتماعية.

سمير نعيم أحمد

مدينة نصر في ١٩٧٧/٩/٢٣

هوامش المقدمة :

١- Giodeon Sjoberga and Roger Nett" A Methodolgy for Social Research. (New York: Harper of Row, 1968), p.29.

٢- أو سنيبوف: قضايا علم الاجتماع، ترجمة: سمير نعيم، وفرج أحمد (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٠)، ص٦٤

٣- نيقولا تيماشيف: نظرية علم الاجتماع - طبيعتها وتطورها - ترجمة: محمود عودة، محمد الجوهرى، والسيد الحسينى، ومحمد على (القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٠)، ص١٦.

٤- عاطف غيث: الموقف النظرى في علم الاجتماع المعاصر (الإسكندرية، دار الكتب الجامعية، ١٩٧٢)، ص١.

٥- Don Martindale, Nature and Types of Sociological Theory (London, Routledge-Kegan paul.)1967).

٦- نيقولا تيماشيف - المرجع السابق.

٧- Theoder Abel. The Foundation of Sociological Theory, (New York, Random House, 1970).

٨- Don Martindale, op.cit., Xy.


mohamed khatab


mohamed khatab


mohamed khatab


mohamed khatab


mohamed khatab


mohamed khatab


mohamed khatab


mohamed khatab


mohamed khatab

الباب الأول

طبيعة النظرية فى علم الاجتماع

الفصـل الأول : طبيعة المعرفة العلمية ومكونات العلم.

الفصل الثاني : النظرية الاجتماعية بين الواقع والممكن.

الفصل الثالث : أسس تقييم النظرية الاجتماعية.

الفصل الأول

طبيعة المعرفة العلمية ومكونات العلم

ليس من الممكن أن نفهم معنى النظرية العلمية ودورها فى العلم دون أن نفهم أولاً معنى العلم ومكوناته، لذلك فإننا سنبدأ دراستنا للنظرية الاجتماعية بمقدمة ضرورية نشرح فيها النقاط الآتية :

١- معنى المعرفة العلمية.

٢- مكونات العلم.

٣- طبيعة النظرية العلمية وعلاقتها بغيرها من مكونات العلم.

وعلى ضوء هذه المقدمة نستطيع أن ننتقل للحديث عن النظرية الاجتماعية بوصفها صورة من صور النظريات العلمية.

١- معنى المعرفة العلمية :

يمكننا القول أن المعرفة بصفة عامة عبارة عن نسق من المعانى والمعتقدات والأحكام والمفاهيم والتصورات الفكرية التى يكونها الإنسان عن أى جانب من جوانب الكون الذى يعيش فيه[1].. ومع أن مصدر المعرفة دائماً هو الواقع، سواء كان هذا الواقع فيزيقياً (جامداً) أو بيولوجيا (حيا) أو اجتماعيا، إلا أن هناك دائماً فرقاً بين معرفة تصور هذا الواقع تصويراً موضوعيا دقيقاً وبين معرفة أخرى تعكس هذا الواقع بصورة مخالفة لما هو عليه فعلاً. والنوع الأول من المعرفة هو ما يطلق عليه المعرفة العلمية، وهى تلك المعرفة، التى اكتسبها الإنسان من خلال محاولاته الدائمة للسيطرة على الطبيعة (بجوانبها الفيزيقية والبيولوجية والاجتماعية) وإخضاعها لإرادته عن طريق عمله الجماعى والتى مكنته بدورها من التنبؤ بالظاهرات المختلفة والتحكم فيها. أما النوع الثانى من المعرفة (غير العلمية) فيتمثل فى المعرفة

الميتافيزيقية التــى تفسر ظـاهرات الكون الطبيعيـة بقـوى فوق طبيعيـة وفـى المعرفة الأدبية والفنية التى تعكس ظاهرات الكون من خلال المشـاعر الذاتيـة للأدبـاء والفنـانين. ولكـى نوضـح هذه الأنـواع الثلاثـة مـن المعرفـة (العلميـة والميتافيزيقية والفنية) نضرب لذلك مثلاً بإحدى الظاهرات التى يمكن أن تكون موضوعاً لهذه الأنواع مـن المعرفـة ولتكن الشـجرة: المعرفـة العلميـة تحـاول تصوير الشـجرة فـى الواقـع، فعـالم الحياة يصـف لنـا الشجرة بدقـة بأجزائـها المختلفة ويبين لنا كيفية نموها ويفسر لنا ما بين هذا الكائن الحى وبيـن التربـة التى ينشأ فيها من علاقات ويشرح لنا العمليات (البيولوجية) أو (الحيوية) التى تتم - بداخله - كعملية التمثيل الكلوروفيلى أو الضوئى.

وبناء على هذه المعرفة نستطيع أن نتحكم بنجاح فى هذه الظاهرة، أى نستطيع أن نزرعها فى المكان المناسب والوقت الملائم، ونستطيع أن نزيد من سرعة نموها عن طريق تزويدها بما تحتاج إليه فعلاً من أسمدة أو ميـاه، كما نستطيع أن نزيد من محصولها أو نحسن منه.. إلـخ. أمـا المعرفـة الميتافيزيقية فأنها تمدنا بصورة عن القوى فوق الطبيعة التى تتحكم فى هذه الظاهرة، ومـن أمثلة هذه المعرفة ما كانت تتصوره الأقوام البدائيـة مـن أن كل شـئ بـالكون تسكنه روح هى التى تحدد سلوكه وكان هذا التصور يعرف بما يسمى بأحيـاء المادة Animism وكانت وسيلة التحكم فى هذه الظاهرات تبعاً لهذا النوع من المعرفـة وسـيلة ميتافيزيقيـة أيضـا، تتمثل فـى إقامـة طقوس معينـة كـالرقص لإرضاء هذه الروح حتـى تفعـل مـا يريده الإنسـان، (مثلمـا كـان يفعل قدمـاء المصريين فى طقوسهم لإرضــاء النيل بإلقاء عروس البحر فيه حتـى يـأتى الفيضان)، ويمكننا أن نقارن هنـا بيـن درجـة نجـاح هـذه الوسيلة مـن التحكم القائمة علـى المعرفـة الميتافيزيقيـة وبيـن درجـة نجـاح إقامـة السـدود كوسيلة للتحكم فى مياه النيل والقائمة على المعرفة العلمية.

أما المعرفة الأدبية أو الفنية فأنها تصور لنا نفس الظاهرة (الشـجرة) من خلال مشاعر الأديب والفنان الذى يبرز لنـا جوانـب معينـة منـها ويضفـى

عليها معان لا توجد فيها ذاتها ولكن توجد فى عقل الإنسان، ولا تهدف هذه المعرفة إلى التحكم فى الظاهرة أو السيطرة عليها بقدر ما تهدف إلى تحقيق مشاعر إنسانية معينة نحوها أو استمداد مشاعر منها (كالجمال) مثلاً.

المعرفة العلمية أذن تتصف بصفتين أساسيتين أولهما أنها تصور الواقع موضوعياً، أى أنها تعكس هذا الواقع كما هو عليه، ليس فى خصائصه الظاهرة فحسب ولكن فى جوهره، وثانيهما أنها تمكننا من التعامل مع هذا الواقع بكفاءة عن طريق التحكم فيه والسيطرة عليه، والعلم يستطيع التوصل إلى تصوير الواقع الذى يدرسه تصويراً موضوعياً لأن العلماء يستخدمون فى دراساتهم منهجا Method وأسلوبا خاصا تم اكتشافه من خلال الدراسات العلمية المتعددة فى كافة المجالات يعرف بالمنهج العلمى Scientific method ويتصف هذا المنهج بعدة خصائص أهمها[٢] :

أولاً : الاعتماد على الأدلة التى يمكن التحقق من صدقها لقبول أو رفض أى حكم أو فكرة، والأدلة هنا تعنى الوقائع Facts التى يمكن لأى عالم مدرب على الملاحظة العلمية أن يلاحظها ويرتبها أو يقيسها أو يحصيها وأن يتأكد منها، وهذه الخاصية تحدد نوعية الظاهرات التى يدرسها العلم، فالعلم لا يدرس إلا تلك الموضوعات التى يمكن الحصول على أدلة محسوسة عنها أو بعبارة أخرى العلم لا يدرس إلا الأشياء التى لها وجود موضوعى فى الطبيعة.

وهذه الخاصية تجعل العلماء مرنين فى تفسيراتهم للظاهرات التى يدرسونها فإذا ما جدت أدلة تنفى ما سبق أن توصلوا إليه من تفسيرات فإنهم يرفضون هذه التفسيرات على الفور أو يعدلون منها. وعلى ذلك فليس فى العلم صدق أو حقيقة مطلقة Absolute Truth ولكن الصدق دائماً فى العلم نسبى relative، فالعلماء لا يعتقدون أن هناك استنتاجات تصلح لكل زمان ومكان فى ظل كل الظروف، وجميع الاستنتاجات العلمية تخضع للتعديل بل وحتى

الرفض إذا ما وجدت أدلة جديدة تستدعى ذلك، وهذا ما يفرق بين العلم والعقيدة.

والعلماء يحصلون على الأدلة عن طريق إجراء الملاحظات العلمية التى تختلف عن الملاحظات العادية فى أنها تتصف بعدة صفات - أهمها[٢]:

أ- الدقة Accuracy.

ونعنى بها أن العالم يتأكد دائما من أن وصفه للأشياء التى يلاحظها مطابق لما هى عليه فى الواقع، فالعالم لا يقول مثلا أن هذه الغابة مليئة بالأشجار الميتة، إلا إذا تأكد تماما بعد فحص جميع الأشجار أنها قد ماتت فعلا، كما أنه لا يقول "أن الأسر المصرية قد أصبحت الآن أقل حجما مما كانت عليه من قبل"، ولكنه يحدد بدقة حجم الأسرة الآن وحجمها فى فترة سابقة محددة قبل أن يصدر هذا الحكم.

ب- التحديد Precision.

تتصف الملاحظة العلمية أيضا بالتحديد، وبينما تعنى الدقة صحة الملاحظة يعنى التحديد تعيين درجة معينة للشئ الملاحظ، فقولنا أن الغابة مليئة بالأشجار الميتة ملاحظة دقيقة إذا تأكدنا من موت الأشجار ولكنها ملاحظة غير محددة لأن كلمة مليئة غير واضحة. ولكننا إذا قلنا أن جميع أشجار الغابة ميتة أو أن ٩٠% منها ميتة لكانت ملاحظاتنا دقيقة ومحددة أيضا.

لذلك فإن العلماء يعتمدون فى ملاحظاتهم على "القياس" Measurement ويستخدمون لذلك مختلف المقاييس الدقيقة مثل الترمومتر لقياس درجة الحرارة والبارومتر لقياس الضغط ومقاييس الذكاء والشخصية والاتجاهات الاجتماعية..الخ.

جـ- التسجيل الدقيق.

يلجأ العلماء دائما إلى تسجيل ملاحظاتهم بدقة حتى يمكن الرجوع إليها فيما بعد ومقارنتها بملاحظات غيرهم، وهم لا يعتمدون على ذاكرتهم لما يمكن

أن تحدثه من تشـويه أو نقص فـى دقـة الملاحظـات ولكنـهم يستخدمون لذلـك أجهزة للتسجيل الدقيق فى مختلف المجالات.

د - الموضوعية.

الموضوعيـة فـى الواقـع محصلـة الصفات الأربــع السـابقة التــى إذا توفرت كان وصف العالم للشئ المدروس أقرب ما يمكـن لمـا هو عليـه فعـلاً وليس لما يرغب أن يكون. ولكـن مـن حـق العـالم بعـد أن يقـدم هذا الوصـف الموضوعى للظاهرة موضوع الدراسة أن يصدر عليه حكماً ما بنـاء علـى مـا هو متوافر لديه من معلومات أو بيانات، وهذا الحكم بـدوره يكون موضوعياً إذا كان يعتمد على الأدلة، فمن حق العالم مثلاً بعد أن يصـف سلوك الذبـاب أن يصدر حكماً بأن الذباب ضار بصحة الإنسان وأن يحدد أساليب إبادته.

هذا عن الخاصية الأولى للمنهج العلمـى، وهـى الاعتمـاد علـى الأدلـة المستفادة من الملاحظة الدقيقة والمحددة والمنظمة والمسجلة بدقة والتى تتوفر فيها الموضوعية.

ثانياً: التسليم بمبدأ الحتمية: Determinism يسلم المنـهج العلمـى بـأن جميـع مظاهر الكون نتاج لعمليات أو أحداث طبيعية فكل ظـاهرة لـها تـاريخ يتلخص فى الأحداث التى سبقت حدوث الظاهرة، وبناء على ذلك فـإن العلماء لا يقتصرون على وصف أى ظاهرة أو حدث ولكنـهم يسـعون دائماً إلى اكتشاف العلاقات بين الظاهرة التى يدرسونها وبين ما سبقها من أحداث أدت إلى وقوعـها. وتختلـف الحتميـة العلميـة عن الحتميـة الميتافيزيقية فى أن الحتمية العلميـة تفتـش عـن مسـببات الظـاهرة فـى الطبيعة بينما تفتش الحتمية الميتافيزيقية عن مسببات الظاهرة فى قوى فوق طبيعية والتسليم بمبدأ الحتميـة الطبيعيـة فـى المنـهج العلمـى هـو الذى أدى بعلماء الحيـاة إلـى اكتشـاف مسببات الأمـراض فـى الجسـم الإنسانى أو فى البيئة الطبيعية (مثل الميكروبات) وبالتالى أمكن علاج

هذه الأمراض بالأساليب العلمية الناجحة كما أن التسليم بمبدأ الحتمية الطبيعية هو الذى أدى إلى اكتشاف مسببات الفيضانات، وبالتالى أمكن التحكم فيها بإقامة السدود، وجميع القوانين العلمية قد تم التوصل إليها نتيجة التسليم بهذا المبدأ.

ثالثاً : التسليم بترابط ووحدة ظاهرات الطبيعة: يسلم المنهج العلمى بأن جميع ظاهرات الكون مترابطة ومتفاعلة مع بعضها البعض، وبالتالى فإن على العلماء أن يكشفوا عن طبيعة هذا الترابط و التفاعل وأن يتوصلوا إلى القوانين التى تحكمه، وقد أمكن للعلماء استرشاداً بهذا المبدأ أن يتوصلوا إلى الكثير من القوانين سواء فى مجال الظاهرات الجامدة (الفيزيقية) أو الظاهرات الحية (البيولوجية) أو الظاهرات الإنسانية الاجتماعية، فقانون الجاذبية ليس إلا تعبيراً عن تفاعل الأجرام السماوية فالأرض ترتبط بغيرها من الكواكب فى المجموعة الشمسية كما أن المجموعة الشمسية ذاتها ترتبط بغيرها من التكوينات والمجموعات السماوية والكائنات الحية ترتبط ببعضها البعض ويتأثر كل منها بالآخر ويؤثر عليه ليس هذا فحسب، ولكن هذه الكائنات جميعاً ترتبط بالبيئة التى تعيش فيها وتتأثر بها وتؤثر عليها وليس أدل على وحدة وترابط جميع ظاهرات الكون مما تم للعلماء اكتشافه عن العلاقة بين الشمس (ظاهرة فيزيقية) والحياة.

فالطاقة الشمسية تؤدى إلى ما يعرف بظاهرة التمثيل الكلوروفيلى فى النبات حيث يمتص النبات الكربون الذى يوجد فى ثانى أكسيد الكربون وينطلق الأكسجين الذى يتنفسه الإنسان، وهكذا نرى أن النبات يمثل حلقة فى سلسلة التفاعلات بين الظاهرات الفيزيقية والحية، فبدون الشمس لن يوجد النبات وبدون النبات لا وجود للإنسان أو لغيره من الكائنات الحية. وعلى هذا فأنه لكى نستطيع فهم أى ظاهرة فى الكون لابد لنا من أن ندرس كل جوانبها

وجميع العلاقات بين هذه الجوانب ليس هذا فحسب ولكن لابد لنا أيضا أن ندرس علاقة هذه الظاهرة بغيرها من الظاهرات.

رابعا: التسليم بأن هناك درجة من الاستمرارية أو الثبات النسبى والانتظام فى ظاهرات الكون، فالمنهج العلمى على الرغم من تسليمه بأن جميع ظاهرات الكون فى حالة تغير دائم، إلا أن هذا التغير لا يحدث على شكل قفزات مفاجئة أو أحداث عرضية أو عشوائية ولكنه يتبع نظاما ثابتا نسبيا، فما يحدث على نحو معين فى ظل ظروف معينة سوف يتكرر على نفس النحو تقريبا إذا توفرت نفس الظروف، ولذلك فإن العلماء يحددون مهمتهم بأنها البحث عن القوانين الثابتة نسبيا وراء ما هو متغير.

أن استخدام المنهج العلمى الذى يتصف بهذه الخصائص الأساسية الأربعة فى تحصيل المعرفة هو الذى يميز إذن بين المعرفة العلمية والمعرفة غير العلمية، وعلى ذلك يمكننا تعريف العلم تعريفا مبسطا بقولنا "أنه المعرفة المنظمة بظاهرات الكون التى تم التوصل إليها وصياغتها باستخدام أسلوب أو منهج معين هو المنهج العلمى". وهذه المعرفة ذات طبيعة تراكمية وتمكن الإنسان من التعامل بكفاءة مع البيئة الطبيعية، ولكن ما هى مكونات هذه المعرفة؟

٢- مكونات العلم [٤]:

رأينا أن المعرفة العلمية تختلف عن غيرها من أنواع المعرفة فى المنهج الذى يتبع فى التوصل إليها، والذى يحدد بما يتضمنه من مسلمات، طبيعة الظاهرات القابلة للدراسة العلمية من جهة (الظاهرات الطبيعية الخاضعة للملاحظة وذات الوجود الموضوعى المستقل عن أرادتنا) ويحدد من جهة أخرى كيفية دراسة هذه الظاهرات واستخلاص النتائج منها كما يقرر الهدف من هذه الدراسة، ويمكننا أن نستنتج من ذلك أن المعرفة العلمية تتكون من ثلاثة عناصر رئيسية:

- ملاحظات منظمة دقيقة ومحددة وموضوعية لوقائع Facts فى الكون.
- إجراءات تستخدم فى إجراء هذه الملاحظات (مثل القياس والتجربة).
- استنتاجات عامة من هذه الوقائع تبين العلاقات الترابطية والسببية بينها.

ومن الواضح أن المعرفة العلمية بعناصرها الثلاثة هذه تختلف عن أى معرفة أخرى، فالمعرفة التى توجد لدى الناس العاديين والتى يكتسبونها من خلال تجاربهم اليومية إنما تتضمن أساساً الملاحظات التى يقومون بها للأشياء المحيطة بهم دون أن يدركوا العلاقات الجوهرية بين هذه الأشياء وبعضها البعض أو يكونوا استنتاجات عامة عنها. والمعرفة الميتافيزيقية والفنية والأدبية لا تزيد عن كونها تأملات فكرية لا تستند على ملاحظات منظمة ودقيقة وموضوعية لوقائع موجودة فى الكون أو بعبارة أخرى لا تستند على أدلة مستمدة من الواقع تخضع للاختبار وللتحقق من صدقها. والمعرفة العلمية وحدها هى التى تجمع بين الملاحظات المنظمة أو الموضوعية للوقائع الطبيعية، وبين الاستنتاجات التى يصل إليها العلماء عن العلاقات الترابطية والسببية بين هذه الوقائع، وسوف نتحدث فيهما يلى بالتفصيل عن عناصر المعرفة العلمية أو مكونات العلم والعلاقة الجدلية بين بعضها البعض.

تتكون المعرفة العلمية من جانبين: جانب حسى يسمى بالمعرفة الحسية أو العيانية Concrete ونعتمد فيها على الخبرة الحسية التى تزودنا بها أعضاء الحس، وجانب منطقى أو عقلى يسمى بالمعرفة العقلية، أو المجردة Abstract ونعتمد فيها على العقل أو وظائف المناطق العليا بالمخ.

وهذان الجانبان لا انفصال بينهما بأى حال من الأحوال، ولكنهما يمثلان حلقتين متصلتين فى سلسلة المعرفة العلمية، ومن خلال تفاعلهما تتقدم المعرفة وتتطور.

الجانب الحسى: تبدأ المعرفة دائماً بالخبرة الحسية فهى التى تزودنا بالخبرة المباشرة بموضوعات العالم الخارجى المحيط بنا والمستقل عنا، فأول

انطباع عن العالم الخارجي يأتينا عن طريق أعضاء الحس فهي النافذة التي تدخل منها موضوعات العالم الخارجي إلى عقل الإنسان، وأعضاء الحس جزء من الجهاز الحسي الذي يتكون من أعضاء الحس والأنسجة العصبية ومناطق الإحساس في المخ، والمثيرات الخارجية التي توجد في العالم الخارجي تحدث تهيجات في عضو الحس تنتقل عبر الأنسجة العصبية إلى المخ لتتحول إلى احساسات، فالمثير الصوتي مثلاً يحدث تهيجات بالأذن تنتقل إلى المناطق الحسية بالمخ لتصبح احساسات صوتية، والمثير الضوئي يؤثر على العين ويتحول إلى احساسات ضوئية، وهكذا بالنسبة لباقي الحواس. وبدون هذه الخطوة الأولى والأساسية تصبح المعرفة مستحيلة.

وهذه الاحساسات حين تصل إلى المناطق الحسية في المخ لا تزيد عن كونها أشعة ضوئية مختلفة في حالة الاحساسات الضوئية مثلاً ولا يكون لها أي معنى، ولكن المخ يضفي عليها معنى، أي يحولها من احساسات إلى مدركات percepts مثل الشجرة أو المنضدة أو السبورة..الخ فالإدراك يعني إضفاء معنى على مجموعة معينة من الاحساسات المباشرة. وهذه المدركات قابلة للاستعادة في المخ مرة أخرى بعد حدوثها وفي حالة غيابها. وفي هذه الحالة تسمى أفكاراً ideas وأعضاء الحس تمكننا من إدراك موضوعات العالم المحيط بنا ولكن في جوانبها الخارجية أو السطحية فقط فهي تمكننا مثلاً من إدراك ضوء منبعث من لمبة كهربائية، ولكنها لا تمكننا وحدها من معرفة أن هذا الضوء ناجم عن سيل من الإلكترونات تتحرك بسرعة معينة. فالجانب الحسي من المعرفة على الرغم من أنه أساس كل المعرفة الإنسانية لا يمكننا وحده من التعرف على الطبيعة الداخلية للأشياء أي جوهرها، أو بعبارة أخرى لا يمكننا وحده من التوصل إلى القوانين، وهنا يأتي التفكير المجرد أو المنطقي ليلعب دوراً هاماً في تعرفنا على جوهر الأشياء.

ويعتمد العلم على الجانب الحسي في جمع المعلومات الموضوعية عن الظاهرات التي يدرسها، فالعلماء يقومون بإجراء الملاحظات الدقيقة والمنظمة

عن كافة الظاهرات التى يدرسونها ويعتمدون فى ذلك أساسا على خبرتهم الحسية بها، وهم يلجأون إلى وسائل شتى لزيادة دقة هذه الخبرة الحسية مثل استخدام الأجهزة الدقيقة التى لا تعنى شيئا أكثر من كونها وسائل مساعدة لأعضاء الحس. فالترمومتر مثلا وسيلة مساعدة لإحساس اللمس والميكروسكوب والتلسكوب وسيلتان مساعدتان لإحساس النظر، وسماعة الطبيب وسيلة مساعدة لإحساس السمع.. وهكذا. ولكن المعرفة التى نستمدها من هذه الخبرة الحسية تصبح عديمة القيمة تماما إذا لم تستغل بعد ذلك استغلالا عقليا يساعد العلماء على النفاذ إلى جوهر الأشياء التى يدرسونها والتوصل إلى القوانين التى تحكمها.

الجانب العقلى أو المجرد Abstract فى المعرفة العلمية :

إن التفكير المجرد أو المنطقى صفة يتصف بها الإنسان وحده بين الكائنات الحية نظرا لما يتمتع به من جهاز عصبى معقد ومتطور. ويعتمد هذا التفكير على استخدام الرموز Symbols بينما يعتمد الجانب الحسى على استخدام الاحساسات التى ترتبط بالأشياء الملموسة المباشرة. والرمز عبارة عن فكرة توجد فى عقل الإنسان يشير بها إلى أشياء ملموسة توجد فى العالم الخارجى. ولكن هذه الرموز تتدرج من الرموز البسيطة التى ترتبط مباشرة بأشياء خارجية إلى رموز أكثر تعقيدا تشير إلى ما هو مشترك بين مجموعة من الأشياء. فرمز "السيارة" مثلا يشير إلى شئ معين ملموس أمامنا، ولكن لفظ "وسائل النقل" يشير إلى خاصية مشتركة بين مجموعة من الأشياء تبدو ظاهريا شديدة الاختلاف (الدواب - السيارات - القطارات - الطائرات - السفن). وأول وأبسط شكل من أشكال الرمز هو "المدرك" الذى نصور به الشئ الذى نلاحظه فى عقلنا فى خصائصه الخارجية فقط، ولكن هناك أشكالا أخرى من الرموز المعقدة تساعدنا على تصوير الأشياء فى جوهرها، وتعرف هذه الرموز بالمفهومات concepts والمفهومات تشكل العناصر الرئيسية فى المعرفة العقلية أو فى النظرية العلمية، فأى نظرية علمية تتكون من عدد هائل

من هذه المفهومات التى ترتبط مع بعضها البعض بشكل متناسق فى شكل فروض أو قوانين أو تعميمات، انظر مثلاً إلى هذه العبارة: المعادن تتمدد بالحرارة وتنكمش بالبرودة، تتكون هذه العبارة من مجموعة من المفهومات أو الرموز المترابطة التى تصور الخصائص الجموهرية لعدد لا نهاية له من الأشياء التى تمت ملاحظتها باستخدام أعضاء الحس، ولنأخذ مفهوما واحداً منها وليكن المعادن هذا المفهوم فى حد ذاته مركب ويتضمن عدداً من المفهومات الأخرى، مثل الحديد والنحاس والألومنيوم..الخ ومفهوم الحديد يشير إلى مجموعة من المدركات التى توجد فى الطبيعة (قطع من مادة معينة) ولكنه يركز على الخصائص الجوهرية لها ويهمل كافة الخصائص الثانوية أو السطحية مثل الأشكال المختلفة التى توجد عليها هذه المادة وبالمثل يشير مفهوم المعادن إلى الخصائص الجوهرية المشتركة بين أنواع شتى من المادة ويهمل الخصائص الثانوية أو السطحية لها مثل اللون أو الشكل.

والعلماء (وكذلك الإنسان بصفة عامة) يتوصلون إلى المفهومات عن طريق عمليتين أساسيتين يتمان فى العقل هما : التحليل Analysis وهى العملية التى نقسم بها الظاهرة التى نلاحظها إلى عناصرها أو جوانبها المكونة لها من أجل فهم أهمية كل جانب فى الظاهرة واختيار الجوهرى منها والتأليف أو التركيب Synthesis وهى العملية التى نقوم فيها بتجميع أو تركيب الأجزاء أو العناصر الهامة فى الظاهرة سوياً. فمفهوم "الإنسان" مثلاً تم التوصل إليه عن طريق تحليل الخصائص أو الجوانب التى توجد لدى أفراد متعددين: مثل اللون وشكل الجسم والسن والنوع ومكان الإقامة والسلوك.. الخ، ثم اختيار أهم هذه الجوانب وأكثرها جوهرية والتى تميز بين الإنسان وغيره من الكائنات الحية مثل التفكير أو اللغة أو العقل والقدرة على العمل، ثم تركيب هذه الخصائص الجوهرية سوياً وابتداع رمز يشير إليها هو "الإنسان" ونلاحظ هنا أنه قد تم إهمال الخصائص الثانوية والسطحية التى يختلف فيها بنو البشر عن بعضهم البعض.

والمفهومات على الرغم من أنها نتاج للتفكير العقلى أو المجرد إلا أنها مستمدة أساساً من ملاحظة الواقع أو من الخبرة الحسية، وعلى ذلك فأنه كلما ازدادت خبرة الإنسان وتعمقت بالعالم المحيط به ازداد عدد المفهومات لديه.

ونظراً لأن كل علم من العلوم يقوم بدراسة نوع معين من الظاهرات الطبيعية فإن كل علم تصبح له مفهوماته الخاصة به. ولما كان العلم يتصف بالدقة فإن كل مفهوم من المفهومات التى يستخدمها لابد أن يعرف بدقة عن طريق تحديد ما يشير إليه من العلاقات بين المدركات وبذلك يسهل الاتصال بين العلماء.

وكل أشكال المعرفة العقلية أو المجردة تتكون من مفهومات فى علاقات مترابطة فيما بينها، ومن هذه الأشكال:

١- الأحكام أو القضايا :

وهى عبارة عن تقريرات أو تعبيرات عن أشياء تمت ملاحظتها وتتضمن مجموعة من المفهومات المترابطة، مثل قولنا: الشمس تشرق من جهة الشرق، أو يمر الكائن الحى بمراحل نمو مختلفة، أو تسقط الأمطار شتاء.

٢- الفروض :

وهى عبارة عن تقريرات عن علاقات محتملة بين ظاهرات أو أحداث مختلفة ولكن لم يتم التأكد منها بالأدلة القاطعة، مثال ذلك: "تصنيع الريف يؤدى إلى انخفاض نسبة جرائم الثأر"، أو "توجد حياة فوق سطح المريخ"، ويلاحظ هنا أن الفرض يتكون من عدة مفهومات أيضا، كما أنه يكون دائما مستنداً على ملاحظات عديدة سابقة ويدعونا إلى إجراء مزيد من الملاحظات.

٣- القانون :

يشير إلى علاقة ثابتة بين متغيرين أو أكثر فى ظروف معينة، وهذه العلاقة قد أمكن التأكد منها بالأدلة، وهو مثل الفرض يتضمن نوعا من التعميم

إلا أن التعميم فى حالة الفرض يكون احتمالياً فإذا ما وجدت أدلة تؤكده، تحول إلى قانون، ويعبر القانون عن نظام محدد من الروابط السببية والثابتة بين الظاهرات وعن العلاقات الجوهرية بينها والتى يتسبب فيها تغير بعض الظواهر فى تغير محدد لظواهر أخرى. وتتخذ القوانين أشكالاً مختلفة تتدرج من الشكل البسيط إلى الشكل المعقد، ويمكننا التمييز بين ثلاثة أنواع من القوانين :

١- القوانين النوعية أو الجزئية.
٢- القوانين العامة التى تتعلق بمجموعات كبيرة من الظاهرات.
٣- القوانين الكلية أو الشمولية التى تتعلق بالكون بأسره.

٤- النظرية :

يمكننا تعريف النظرية بشكل عام بأنها نسق من المعرفة المعممة تفسر الجوانب المختلفة للواقع، وتختلف النظرية العلمية عن غيرها من النظريات فى أنها تخضع للتحقق من صدقها عن طريق الملاحظة الأمبيريقية (التجريبية)، وتمثل النظرية أعلى درجة من درجات التجريد Abstraction والتعميم Generalization فى العلم. وتفسر النظرية القوانين تماماً مثلما تفسر القوانين الوقائع Facts التى تمت ملاحظتها وتوجد العلاقة بينها، كما أنها تساعد العلماء فى نفس الوقت على اكتشاف قوانين جديدة أو وضع فروض لاختبار صدقها.

ويرى جدعون جوبرج فى كتابه مناهج البحث الاجتماعى(٥) أن للنظرية العلمية ثلاثة أبعاد رئيسية :

١- الشكل أو البناء المنطقى.
٢- المضمون، أى التعميمات المتعلقة بطبيعة الظاهرات التى تدرسها.
٣- الافتراضات المتعلقة بالمنهج الذى يستخدم فى جمع الوقائع وطبيعة المادة التى يدرسها العلم.

وأى نظرية من ناحية الشكل أو البناء المنطقى تتكون حسبما يقول تيماشيف فى كتابه نظرية علم الاجتماع[٦] من مجموعة من القضايا تتسق كل منها مع الأخرى وتنتظم بشكل معين يسمح باشتقاق تعميمات منها بطريقة استنباطية كما تسمح باستكشاف الطريق لملاحظات أبعد مدى وتعميمات تنمى مجال المعرفة.

٣- العلاقة بين الجانبين الحسى والعقلى فى العلم :

من عرضنا السابق لطبيعة الجانب الحسى والجانب العقلى فى العلم يتضح أن هذين الجانبين لا انفصال بينهما على الإطلاق وأن العلاقة بينهما دائماً علاقة جدلية، فالمفهومات والأحكام والقوانين والنظريات كلها قائمة فى الأساس على ملاحظات حسية لمعطيات الواقع المادى الذى يدرسه العلم، كما أن هذه الجوانب العقلية جميعها ترشد العالم بعد ذلك عند إجرائه لمزيد من الملاحظات العلمية باستخدام أعضاء الحس، وكلما تطورت المعرفة العقلية كلما أمكن للعلماء جمع حقائق جديدة، وكلما جمعت حقائق جديدة كلما أدى ذلك إلى تطوير المعرفة العقلية والوصول إلى نظريات اكثر اتساعاً وشمولاً وصدقاً، ولما كانت النظرية العلمية هى أكثر عناصر الجانب العقلى من العلم تجريداً أو تعميماً فأنه يجدر بنا أن نتحدث عن أهم وظائف النظرية فى العلم.

يحدد ويليام جود Good وبول هات Hatt فى كتابهما مناهج البحث الاجتماعى[٧] وظائف كل من النظرية (الجانب العقلى) والوقائع (الجانب الحسى) فى العلم على النحو التالي :

أولاً : وظائف النظرية فى العلم :

١- تحديد الاتجاه الأساسى للعلم عن طريق تحديد نوع المادة أو الوقائع التى يجب جمعها عن الظاهرة المدروسة، فلو كانت الظاهرة موضع الدراسة مثلاً هى كرة القدم، فإن النظرية الاقتصادية سوف توجه

العالم لجمع حقائق عن أنماط العرض والطلب التى تتصل بتسويقها فى الوقت الذى تحدد النظرية الكيماوية جمع حقائق عن تكوين الكرة من الناحية الكيميائية وتوجه النظرية الفيزيائية العالم نحو حقائق عن كتلة الكرة والضغوط المختلفة التى تؤثر على ثقلها وسرعتها. أما النظرية الاجتماعية فهى توجه العالم لجمع حقائق تتعلق بالأنشطة الاجتماعية المتصلة بالكرة ونوعيات التنظيمات الاجتماعية الخاصة بهذا النشاط وهكذا.

٢- تقديم إطار تصورى Conceptual Shcheme: يسترشد به العالم عند جمعه للحقائق، وهذا الإطار يساعد العالم على إدراك ما بين الوقائع من علاقات ويرشده إلى نوعية الوقائع التى يتعين عليه جمعها.

٣- تلخيص الوقائع وتلخيص العلاقات بينها: أن كل قانون وكل فرض بل وحتى كل مفهوم تتضمنه النظرية ليس إلا تلخيصا أو تكثيفا هائلا لعدد لا نهاية له من الملاحظات التى قام العلماء بإجرائها، فمفهوم الخلية الحية مثلا يلخص فى كلمة واحدة ملاحظات عديدة أجريت عن شكل أو صورة معينة من المادة ومفهوم الأسرة يفعل نفس الشئ، والقوانين تلخص العلاقات المتعددة بين الظاهرات موضوع الدراسة، والنظرية تلخص العلاقات بين القوانين، وبدون عملية التلخيص والتنظيم هذه يتعذر تماما الإلمام بمكتشفات العلم أو استنتاج أى شئ منها.

٤- التنبؤ بالوقائع: إذا كانت النظرية تلخص الوقائع وتقرر وجود نظام عام يربط بين الملاحظات التى يتوصل إليها العالم فأنها تصبح أيضا تنبؤات بما سيحدث فى المستقبل، فقولنا مثلا أن المعادن تتمدد بالحرارة يعنى فى نفس الوقت أنه إذا لم تترك مسافات مناسبة بين قضبان السكك الحديدية فأنها سوف تتقوس نظرا لتمددها. وقولنا أن البعوض ينقل مرض الملاريا يعنى فى نفس الوقت تنبؤا بأن نسبة هذا

المرض ستقل إذا ردمنا البرك والمستنقعات التى يتوالد فيها البعوض وهكذا.

٥- تحديد أوجه النقص فى معرفتنا: أننا لا نستطيع أن نعرف ما ينقصنا فى أى مجال إلا إذا عرفنا أولا ما هو متوفر لدينا، وإذا كانت المعرفة المتوفرة لدينا من الكثرة فأنه يصعب علينا أن نعرفها جيدا، ولما كانت النظرية تلخص وتنظم المعرفة المكتسبة فأنها تساعدنا على التعرف على ما ينقصنا من معرفة وبالتالى ترشدنا إلى الجوانب التى يجب أن نركز بحثنا عليها.

٦- النظرية تقوم بمهمة ترشيد التطبيق: أن الغاية النهائية للعلم هى التطبيق، بمعنى أن العلماء يدرسون ظاهرات الكون ويحاولون التوصل إلى القوانين التى تحكمها من أجل استخدام نتائج دراستهم فى التعامل مع الطبيعة والسيطرة عليها، والنظريات العلمية بما أنها تلخيص لكل الحقائق التى اكتشفها العلماء تقوم بمهمة ترشيد أى توجيه التطبيقات العلمية فى مجالات الحياة المختلفة، فقوانين الطفو مثلا ساعدت على بناء السفن ونظرية الجاذبية ساعدت على بناء الطائرات، وهكذا.

والعلاقة بين الممارسة أو التطبيق من جهة وبين النظرية العلمية من جهة أخرى علاقة متبادلة، فمحك صدق النظرية هو نجاح ما تشير إليه من تطبيقات عملية، كما أن التطبيقات العملية والممارسة، تدعو العلماء إلى استكمال أو تعديل نظرياتهم.

ثانيا : وظائف الوقائع فى العلم :

أن النظرية (التى تمثل أعلى مراحل الجانب العقلى فى العلم) والوقائع (التى يمثل وصفها وملاحظتها الجانب الحسى فى العلم) يمثلان كما سبق أن ذكرنا وحدة عضوية ولا وجود لأحدهما دون الآخر، فالمعرفة العقلية أو المجردة مستحيلة دون معرفة حسية ذلك أن المعلومات التى تمدنا بها أعضاء

الحس هى المادة الأولية أو الأساسية التى تتكون على أساسها المفهومات (العناصر أو المكونات الأساسية للمعرفة العقلية) كما سبق أن ذكرنا. كما أن المعرفة الحسية وحدها لا يمكن اكتسابها دون توجيه عقلى. فالمعرفة العقلية تضفى معنى أعمق على المعلومات التى تزودنا بها أعضاء الحس وتمكننا من معرفة جوهر الظاهرات التى ندرسها، ومثلما بينا دور النظرية فى العلم فأننا يجب أن نبين أيضا دور الوقائع فى العلم.

أن الوظيفة الأولى لملاحظة الوقائع هى المساعدة على تكوين النظرية فمن خلال الملاحظة الحسية للظاهرات يمكن تكوين المفهومات فالفروض فالقوانين فالنظريات، فالنظرية مستحيلة دون ملاحظة حسية لوقائع الكون، ولكن يجب ألا ننسى أننا فى جمعنا للوقائع نسترشد دائما بما سبق صياغته من نظريات.

والوظيفة الثانية لملاحظة الوقائع هى تعديل أو إعادة صياغة النظرية ذلك أن عملية البحث العلمى عملية دائمة ومستمرة، واكتشاف وقائع جديدة يؤدى باستمرار إلى تعديل النظرية أو إعادة صياغتها لكى تتلاءم مع الوقائع الجديدة التى تم اكتشافها.

أما الوظيفة الثالثة لملاحظة الوقائع فهى توضيح النظرية وإثبات صدقها، فكلما توصل العلماء إلى اكتشاف وقائع جديدة أدى ذلك إلى إثبات صحة النظرية.

وتتضح الوحدة العضوية بين النظرية أو المعرفة العقلية من جهة والوقائع أو المعرفة الحسية من جهة أخرى فى العلوم الطبيعية أكثر منها فى العلوم الاجتماعية، فمازالت العلوم الاجتماعية تعانى من الانفصال بين الجانبين، وسوف نتحدث عن ذلك بالتفصيل عند تناولنا للنظريات الاجتماعية وسنبين أسباب هذا الإنفصال بين جانبى المعرفة العلمية فى العلوم الاجتماعية ونتائجه بالنسبة لهذه العلوم.

هوامش الفصل الأول :

١- عبد الباسط محمد حسن: أصول البحث الاجتماعى، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٧٦م.

٢- انظر فى ذلك: G. Sjoberg and R. Nett, op.cit., pp.23-28

وكذلك: عماد الدين إسماعيل، المنهج العلمى وتفسير السلوك (القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٦٢)، ص٤٠-٥٤.

٣- Paul Horton and Chester L. Hunt: Sociology (New York, McGraw-Hill, 1964), pp.10-16.

٤- انظر:

- V. Afanasyv: Marxist phiosophy.
- J. d. Bernal: Science in History.
- G. Sjoberg: Methodolgy in Social Research.

٥- G. Sjoberg: op.cit., pp.

٦- نيقولا يتماشيف - مرجع سابق، ص١٥.

٧- Good and Hatt P. Methods in Social Research (New York, McGraw-Hill, 1952), pp.8-12.

الفصل الثاني

النظرية الاجتماعية بين الواقع والممكن

أن ما سبق لنا الحديث عنه فيما يتعلق بمكونات العلم والعلاقة العضوية بين الجانبين الحسي والمعرفى والاعتماد المتبادل بين النظرية من جهة والوقائع من جهة أخرى إنما يمثل الصورة النموذجية أو المثالية للمعرفة العلمية بصورة عامة، ولكن هذه الصورة غير متحققة فى ميدان علم الاجتماع بصفة خاصة، وقد قرر عالم الاجتماع الأمريكى الشهير رايت ميلز فى كتابه "التصورات السوسيولوجية"(1) أن هذا العلم يوجد به انقسام وعدم تكامل بين المعرفة الحسية من جهة والمعرفة العقلية من جهة أخرى، فهناك بين علماء الاجتماع من يقتصر عملهم على مجرد جمع وقائع جزئية عن الحياة الاجتماعية دون أن يؤدى جمع هذه الوقائع إلى صياغة نظرية عامة عن المجتمع - ودون أن يسترشدوا فى جمع الوقائع بنظرية عامة، وهناك فريق آخر من علماء الاجتماع يقومون بصياغة نظريات عامة عن المجتمع تتصف بالصبغة التأملية أو المكتبية دون أن تعتمد هذه النظريات على وقائع تمت ملاحظتها والتأكد من صحتها، وقد أطلق رايت ميلز على الفريق الأول أصحاب اتجاه الأمبيريقية أو التجريبية المجترأة abstracted empericism وبين ميلز فى كتابه عقم الاتجاهين وكيف أن كلا منهما يؤدى إلى عرقلة نمو علم الاجتماع ويعوق الوصول إلى الفهم العلمى السليم للظاهرات الاجتماعية.

وقد كان من جراء ذلك ما نجده الآن فى ميدان علم الاجتماع من تعدد فى النظريات، وعلى عكس ما نجده فى العلوم الطبيعية من وحدة النظرية، وإذا كان أى علم من العلوم يتصف بالوحدة بين الجانبين الحسى والعقلى فإن هذا الانقسام الواضح فى علم الاجتماع إنما يدل على أنه لم يبلغ فى الواقع بعد المستوى المطلوب، وأن نظرياته التى لا تدعمها الحقائق لا تزيد عن كونها

تأملات فكرية ولا ترقى إلى مستوى النظريات العلمية، ولا يجب أن يتبادر إلى أذهاننا أن هناك استحالة في الوصول إلى نظريات علمية فى ميدان علم الاجتماع. فذلك ممكن تماماً لأن الظاهرات الاجتماعية التى يدرسها هذا العلم ظاهرات طبيعية أى توجد فى الطبيعة ويمكن إخضاعها تماماً للدراسة بالمنهج العلمى وبالتالى يمكن الوصول إلى القوانين التى تحكمها وصياغة نظرية عامة عنها، ولكن عجز علم الاجتماع عن تحقيق ذلك حتى الآن يرجع إلى أسباب اجتماعية وأيديولوجية تناولها الكثيرون من علماء الاجتماع بالشرح وبالتفصيل وسوف نعرضها بعد أن نشرح الموقف الراهن للنظرية الاجتماعية.

معنى النظرية الاجتماعية :

تتفق النظرية الاجتماعية مع غيرها من النظريات العلمية من حيث بنائها ووظائفها فى العلم ولكنها تختلف عنها من حيث المضمون، فالنظرية الاجتماعية تهدف إلى تقديم تفسيرات وتصورات عامة للحياة الاجتماعية من حيث تطورها ونشأتها وتغيرها أو من حيث علاقة كل جانب من جوانب هذه الحياة بغيره من الجوانب، تماماً مثلما تهدف النظرية البيولوجية إلى تقديم صورة موضوعية عن نشأة الحياة وتطورها وعناصرها ومكوناتها والعلاقات بين جوانبها المختلفة، ومثلما يوجد فى علم الحياة نظرية عامة عن الحياة بأسرها ونظريات نوعية عن كل شكل من أشكال هذه الحياة، يفترض أن يوجد فى علم الاجتماع نظرية عامة ونظريات نوعية عن كل شكل من أشكال الحياة الاجتماعية.

وعلى الرغم من اختلاف علماء الاجتماع حول معنى النظرية الاجتماعية وأهدافها وحدودها إلا أن تحليل النظريات الاجتماعية فى الماضى والحاضر يدل كما يقرر يتماشيف[٢] على أنها تدور حول عدة تساؤلات عامة وأساسية أهمها :

١ - ما المجتمع وما الثقافة؟

٢- ما الوحدات الأساسية التى ينبغى أن نحلل المجتمع والثقافة إليها؟

٣- ما طبيعة العلاقة بين المجتمع والثقافة والشخصية؟

٤- ما العوامل التى تحدد حالة المجتمع والثقافة وتغيرهما؟

٥- ما علم الاجتماع وما مناهجه الملائمة؟

ويحدد رايت ميلز ثلاثة أسئلة رئيسية يجب أن تحاول النظرية الاجتماعية الإجابة عليها(٢):

١- ما طبيعة البناء الاجتماعى للمجتمع الكلى؟ وما هى مكوناته الأساسية وكيف ترتبط هذه المكونات بعضها ببعض؟ وكيف يختلف هذا البناء عن غيره من الأبنية؟ وما الدور الذى يلعبه أى عنصر داخل هذا البناء ذاته بالنسبة لبقاء هذا البناء وبالنسبة لتغيره؟

٢- ما موضع هذا المجتمع فى التاريخ الإنسانى؟ وما هى آليات تغيره؟ وما موضع هذا المجتمع فى تطور الإنسانية ككل وما الدور الذى يلعبه فى ذلك؟ وكيف يؤثر أى عنصر تدرسه على الفترة التاريخية التى يتحرك فيها وكيف يتأثر بها؟ وما هى الخصائص الجوهرية لهذه الفترة؟ وكيف تختلف عن غيرها من الفترات؟ وما هى خصائصها المميزة فى العملية التاريخية؟

٣- ما هى نوعيات الرجال والنساء التى لها السيادة فى هذا المجتمع فى تلك الفترة؟ وما هى النوعيات التى فى سبيلها إلى السيادة؟ كيف يتم اختيارهم وتكوينهم وتحريرهم أو قمعهم؟ وكيف يزداد وعيهم أو كيف يتم تزييف هذا الوعى حين يصابوا بالتبلد بدلاً من الحساسية؟ ما أشكال الطبيعة الإنسانية التى يفصح عنها السلوك الذى نلاحظه فى هذا المجتمع وفى هذه الفترة؟ وما مغزى كل عنصر نقوم بدراسته فى المجتمع بالنسبة للطبيعة الإنسانية؟

ويرى رايت ميلز أن هذه الأسئلة هى التى اهتم بها أفضل علماء الاجتماع عند معالجتهم لأى مسألة اجتماعية، فهى تمثل المحاور الأساسية لدراسة الإنسان والمجتمع ذلك أن الوظيفة الأساسية للنظرية الاجتماعية المبدعة هى الانتقال من منظور إلى آخر، أى من المنظور السياسى إلى السيكولوجى ومن دراسة أسرة واحدة إلى دراسة الميزانيات القومية فى بلدان العالم، ومن المدرسة إلى الجيش ومن صناعة البترول إلى الشعر المعاصر، أن صاحب النظرية يجب أن يتمتع بالقدرة على أن يربط بين أكثر المسائل عمومية وبين أكثرها شخصية وفردية وأن يكتشف العلاقة بين الاثنين.

من ذلك نرى أن الوظيفة الأساسية للنظرية الاجتماعية هى التصوير الموضوعى (أى المستند على الأدلة) للعلاقات المتبادلة بين جوانب النشاط الاجتماعى للناس بوصفهم أعضاء فى مجموعات اجتماعية تتفاعل مع بعضها البعض داخل تكوينات اقتصادية اجتماعية أكبر وأشمل (مثل التكوين الاجتماعى والاقتصادى الإقطاعى أو الرأسمالى أو الاشتراكى)، وللتطور التاريخى لهذه التكوينات وتتضمن القوانين التى تحكم الحياة الاجتماعية فى بنائها ووظيفتها وتطورها والقوانين الخاصة التى تحكم كل جانب من جوانبها على حدة.

واقع وإمكانية النظرية الاجتماعية :

ولكن هل توصل علم الاجتماع إلى مثل هذه النظرية؟ الإجابة بالنفى. وهل من الممكن الوصول إليها؟ الإجابة بالإيجاب. فقد سبق أن ذكرنا أن الظاهرات التى يدرسها علم الاجتماع ظاهرات طبيعية تخضع للدراسة العلمية المنهجية وبالتالى فمن الممكن الوصول إلى نظرية علمية صادقة عن المجتمع مثلما هو الحال بالنسبة للعلوم الأخرى التى توفرت فيها هذه النظرية مثل علم الحياة وعلم الفيزياء.

ولكن لماذا لم يتم التوصل إلى هذه النظرية العلمية فى ميدان علم الاجتماع على الرغم من مرور حوالى ١٧٠ عاماً على اكتساب دراسة

المجتمع عنوان العلم، وعلى الرغم من أن التفكير في المجتمع قديم قدم البشرية؟

لكي نستطيع الإجابة على هذا التساؤل علينا أن نتوقف قليلاً لندرس الظروف الفعلية التي تحيط بالعلم وتشجعه على التطور أو تعرقل تطوره ذلك أن العلم قد وجد دائماً في مجتمع وكانت بينه وبين هذا المجتمع علاقات تأثير متبادل. ولكي نوضح الظروف الفعلية التي تعوق تطور النظرية الاجتماعية وتعوق وصولها إلى فهم موضوعي ومتكامل للظاهرات الاجتماعية يجب أن نشير إلى الظروف الاجتماعية الفعلية التي عاقت تطور العلوم الفيزيقية والبيولوجية من قبل وإلى ما طرأ على هذه الظروف من تغير أدى إلى تطور ونمو هذه العلوم ثم نحاول التعرف على الظروف الاجتماعية المرتبطة بنشأة علم الاجتماع وكيف تشجع هذه الظروف على عرقلة نمو النظرية الاجتماعية أو على نموها(٤).

يدلنا التاريخ على أن المكتشفات العلمية الجديدة في ميادين العلوم الفيزيقية والبيولوجية كانت تلقى في أوربا أشد المعارضة والمقاومة مما أثر على تقدمها وأعاق نموها لفترة طويلة من الوقت، والأمثلة على ذلك كثيرة ومنها ما تعرض له عالم الفلك والرياضة والطبيعة الإيطالي الشهر جاليلي جاليليو (١٥٦٤-١٦٤٢م) من سجن واضطهاد من جانب محاكم التفتيش الكاثوليكية التي نشطت في أوربا وخاصة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر وكانت مهمتها اكتشاف الكفرة ومعاقبتهم بالتعذيب والسجن والإعدام حرقاً، وقد أجبرت هذه المحاكم التفتيشية الكاثوليكية جاليليو على إنكار ما نشره في إحدى مقالاته عام ١٦٣٢م أورد فيه نظرية مؤسس علم الفلك الحديث نيكولا كوبر نيكس (١٤٧٣-١٥٧٣) بأن الشمس هي المركز وأن الأرض تدور حولها. لقد كانت الكنيسة الأرثوذكسية في ذلك الوقت متحالفة مع الإقطاع الأوربي وكانت تسيطر على عقول الناس وتنشر بينهم الخرافات التي

تتفق ومصالح الإقطاع. ولهذا كانت تحارب العلم والفكر العلمى فى كافة صوره لأن هذا الفكر كان سيسقط الفكر الزائف الذى كانت الكنيسة، والإقطاع يروجانه. وكانت الكنيسة تدرك أن كشف الأكاذيب والخرافات وفضح زيف الفكر الذى تروج له من شأنه أن يؤدى إلى الإطاحة بمصالحها ومصالح الإقطاع. ولكن مع قدوم عصر التنوير ومع ما طرأ على المجتمع الأوربى من تحول من مجتمع زراعى إقطاعى إلى مجتمع صناعى رأسمالى ومع ما حدث من ثورات بورجوازية أهمها الثورة الفرنسية. ونظرا لحاجة الرأسمالية الناشئة إلى العلم والمكتشفات العلمية من أجل تطوير التكنولوجيا وزيادة الإنتاج وتحسينه وتحقيق المزيد من الأرباح - كل ذلك أدى إلى تشجيع العلم والعلماء الطبيعيين على الانطلاق والتقدم والنمو المتزايد، لدرجة أن ما حققه العلم الطبيعى خلال القرن الواحد من الزمان يفوق ما حققته البشرية خلال تاريخها الطويل بكثير.

كانت دراسة الظاهرات الفيزيقية والبيولوجية إذن دراسة علمية والوصول إلى القوانين التى تحكمها والتنبؤ بها والتحكم فيها ممكنة دائما ولم تكن مستحيلة، ولكن واقع العلوم الفيزيقية والبيولوجية فيما قبل عصر التنوير والثورة الصناعية كان يتناقض تماما مع هذه الإمكانية، ولكن مع تغير الظروف الاجتماعية الفعلية (والتى ساعد العلم أيضا على تغييرها) أمكن أن تتحول هذه الإمكانية إلى واقع فعلى وحققت العلوم الفيزيقية والبيولوجية تقدما مذهلا فى كافة المجالات.

ترى هل هناك وجه شبه فى ذلك بين العلوم الفيزيقية والبيولوجية من جهة والعلوم الاجتماعية من جهة أخرى؟ بعبارة أخرى هل هناك ظروف اجتماعية حالت ومازالت تحول دون انطلاق العلوم الاجتماعية وتقدمها وكشفها عن قوانين الحياة الاجتماعية والتوصل إلى نظريات اجتماعية صادقة؟

الإجابة على ذلك بالإيجاب قطعا فهناك ظروف اجتماعية حالت ومازالت تحول دون تقدم العلوم الاجتماعية.

معوقات تطور النظرية الاجتماعية :

من هذه الظروف أن اهتمامات المجتمعات بصفة عامة كانت تنصب على البيئة الطبيعية لكى يستطيع الإنسان أن يحافظ على بقائه وأن يتغلب على العوامل التى تهدد هذا البقاء وبالتالى فإن اهتمام الإنسان أنصب أولاً على دراسة البيئة الطبيعية ولذلك تطورت العلوم الفيزيقية قبل تطور العلوم الاجتماعية، أن الحاجات الفعلية والمادية والمباشرة للمجتمعات الإنسانية أدت إلى أن تولى هذه المجتمعات اهتماماتها إلى السيطرة على البيئة الطبيعية أولاً.

وقد ظهرت العلوم الاجتماعية تباعاً واستقلت عن الفلسفة منذ أواخر القرن التاسع عشر، ولكنها فى رأى الكثيرين ظهرت منذ البداية كعلوم زائفة ليست مهمتها الحقيقية كشف الحقائق الاجتماعية والوصول إلى فهم علمى لها بقدر ما كانت مهمتها إخفاء هذه الحقائق أو تشويهها لسبب بسيط هو أن الرأسمالية الناشئة كانت ترى من مصلحتها كشف الحقائق فيما يتعلق بالكون المادى لاستغلالها فى الإنتاج الرأسمالى وتطويره، ولكن لم يكن من مصلحتها كشف الحقائق الاجتماعية لأن من شأن ذلك أن يكشف أيضاً عن استغلالها للطبقات العاملة، ذلك الإستغلال البشع الذى صوره الكثير من الأدباء والمفكرين فى ذلك الوقت. ومثلما احتضنت الكنسية والإقطاع العلماء الفيزيقيين والبيولوجيين الذين يشوهون الحقائق المتعلقة بالكون المادى بما يتفق وأفكارهم ومصالحهم واضطهدت كل من حاول مهاجمة هذه الأفكار وتقديم فهم علمى حقيقى للكون المادى احتضنت الرأسمالية المفكرين الاجتماعيين (أمثال أوجست كونت وهربيرت سبنسر وماكس فيبر وباريتو) لأنهم أخذوا على عاتقهم مهمة ترويج مبادئ وأفكار الرأسمالية(٥). ولما كان الجو السائد آنذاك هو الجو العلمى فقد أضفوا على أفكارهم الصفة العلمية وتشبهوا بالعلوم الطبيعية فى دراساتهم من أجل إكساب هذه الأفكار قوة أكبر فى الإقناع، كما حاربت الرأسمالية الأفكار العلمية الاجتماعية واضطهدت كل

من يروجون لها وأجبرت البعض منهم على إنكارها بل ونفى الصفة العلمية عنها. ولكن مثلما لقيت العلوم الفيزيقية والبيولوجية دفعة قوية مع تغير الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ومثلما ساهمت نفس هذه العلوم فى إحداث هذه التغيرات يحدث نفس الشئ الآن بالنسبة للعلوم الاجتماعية.

فمع زيادة وعى وقوة الطبقة العاملة فى البلدان الرأسمالية ومع زيادة قوة وفعالية الحركات الثورية داخل هذه البلدان وفى البلدان المستعمرة ومع انكشاف زيف الفكر الذى تروجه الرأسمالية - مع ذلك كله بدأت فى أواخر الستينات من القرن العشرين تيارات واتجاهات جديدة فى علم الاجتماع تصارع من أجل التقدم العلمى الحقيقى لعلم الاجتماع بل للعلوم الاجتماعية بأسرها وعلى كشف الحقائق والقوانين الاجتماعية وإلى استخدام هذا الفهم العلمى فى إحداث تغيرات تقدمية فى المجتمع من أجل صالح الإنسان، واتخذت هذه التيارات لنفسها تسمية جديدة هى الراديكالية.

فهناك علم الاجتماع الراديكالى وعلم النفس الراديكالى، وعلم الإجرام الراديكالى الخ .. ومثلما هاجمت العلوم الفيزيقية والبيولوجية (الراديكالية) فى القرون الماضية الفكر الخرافى الذى كان يسود هذه العلوم ودعت إلى تغيير جذرى فيه بناء على ما توفر لها من معلومات وحقائق عن الكون المادى، تدعو هذه العلوم الاجتماعية الراديكالية إلى إحداث تغير جذرى فى مضمون ومسلمات العلوم الاجتماعية بل وإحداث تغيرات جذرية فى بناء المجتمع بأسره. وتلقى هذه التيارات العلمية الجديدة مقاومة شديدة من جانب الرأسمالية ومن جانب العلماء الذين يدافعون عنها، ولكن هذه المقاومة وذلك الاضطهاد الذين يتعرضون له يختلفان فى أساليبهما عما كان سائداً فى عصور ما قبل النهضة ويتخذ أشكالاً مختلفة منها استخدام المؤسسات العلمية ذاتها كوسيلة للضغط والإرهاب.

ونحن نعلم أن الباحث العلمي يحتاج لمصادر لتمويل بحوثه، وهذه المصادر أما أن تكون الحكومات أو المؤسسات الاقتصادية والصناعية التي تملك المال في المجتمعات الرأسمالية. وموقف الحكومات والمؤسسات في هذه البلدان موقف معروف ومحدد، فهي تقوم بتمويل البحوث العلمية وتشجيع العلماء الذين تؤدى جهودهم إلى فائدة سريعة ومباشرة لها، وعملية تمويل العلم أصبحت في العصر الحديث ترتبط ارتباطا وثيقا بالاستثمار بحيث نجد الآن في معظم البلدان الصناعية أقساماً للأبحاث العلمية داخل الشركات الكبيرة والمصانع تستخدم العلماء وتنفق عليهم، بل أن الجامعات ومراكز البحوث في الولايات المتحدة مثلاً تحصل على ميزانية تمويل البحوث العلمية فيها من الشركات الكبيرة سواء في شكل أموال هبات أو منح دراسية لإعداد العلماء أو تأتى من الحكومات.

ولو قارنا الأموال التي تصرف على إجراء البحوث العلمية الفيزيقية والبيولوجية والاجتماعية في البلدان الرأسمالية التي نشأت فيها العلوم الاجتماعية أساسا لوجدنا أن الغالبية العظمى من هذه الأموال توجه إلى فروع معينة من العلوم الطبيعية أكثر من غيرها لان لها تطبيقات استثمارية أو حربية أكثر من غيرها، يتضح ذلك من ازدهار بحوث استخدام الذرة في الحرب أكثر من بحوث استخدامها في السلم، ونجد نفس الشئ في العلوم البيولوجية حيث نجد أموالاً هائلة تنفق على استخدام الميكروبات في الحروب بينما لا ترصد مثل هذه الأموال لعلاج الأمراض المستعصية.

أما الأموال التي ترصد للبحوث الاجتماعية فإنها توجه في معظمها لتلك البحوث الجزئية التي تخدم الجهات الممولة بشكل مباشر، ومن أمثلتها بحوث الرأى العام حتى يمكن التأثير عليه لصالح الجهات السياسية والاقتصادية وبحوث الروح المعنوية للعمال من أجل جعلهم يقدمون إنتاجا أكثر لأصحاب الأعمال في مقابل الأجر الذى يحصلون عليه ولكن من يحاول

أن يجرى بحوثا لكشف الحقائق الاجتماعية الأخرى لا يجد أى تشجيع بل ربما طرد من عمله أو حرم الامتيازات التى يتمتع بها زملاؤه الذين يعملون فى خدمة النظام وتزييف الواقع فى أذهان الناس باسم العلم. ولنأخذ مثالاً على ذلك ظاهرة التمييز العنصرى فى الولايات المتحدة الأمريكية من غير المعقول أن يشجع أصحاب مزارع القطن الكبيرة بحثا يمكن أن يكشف عن الاستغلال البشع الذى يتعرض له الزنوج من جانب أصحاب الأعمال البيض وعن الظروف السيئة التى يعيش فيها هؤلاء الناس، بل أنهم سوف يسارعون إلى تمويل أى أبحاث سيكولوجية تبين أن سبب تدهور حالة الزنوج أو الطبقة العاملة بصفة عامة يرجع إلى نقائص عقلية أو ثقافية فيهم أنفسهم.

إن تطور علم الاجتماع فى الطريق العلمى وتقديمه فهما موضوعيا للحياة الاجتماعية ليس فى صالح الرأسمالية ولذلك فإنها تعمل بشتى الأساليب على تعطيل تطوره وعلى تزييف الحقائق الاجتماعية ويتولى (علماء الاجتماع) الموالون للنظام الرأسمالى مهمة الترويج لفكرة أن الظاهرات الاجتماعية لا يمكن أبدا دراستها دراسة علمية وأنه لا يمكن الوصول إلى قوانين اجتماعية ولا يمكن للإنسان أن يتحكم فى مسار المجتمع ولا يمكن أن توجد نظرية اجتماعية عامة واحدة وأنه لابد من وجود نظريات متعددة تعكس الآراء المختلفة للعلماء الاجتماعيين.

وتأتى الأدلة على ذلك من داخل المجتمعات الرأسمالية ذاتها ومن علماء الاجتماع الشباب المتمردين على علم الاجتماع التقليدى أو ما أصبحوا يطلقون عليه علم الاجتماع المزيف أو علم الاجتماع الرجعى أو المحافظ أو علم الاجتماع النظام Establishment Sociology.

وهناك الآن تيار قوى فى علم الاجتماع فى كل من الولايات المتحدة الأمريكية ودول أوربا الغربية يسمى "علم الراديكالى" وفيما يلى وصف لعلم الاجتماع التقليدى قدمته مجموعة من المتخصصين فى علم الاجتماع أطلقت على نفسها اسم "حركة تحرير علم الاجتماع فى أمريكا".

إن علم الاجتماع يرتبط ارتباطا وثيقا بالأجهزة الحاكمة ويعبر عن مصالح القوى المسيطرة فى المجتمع الأمريكى ويتضح ذلك من القيم والمعتقدات السائدة بين علماء الاجتماع ومن ولائهم لهذه الأجهزة.

وعلى الرغم من إدعاء علماء الاجتماع لصفة الحياد إلا أنهم يقومون بإجراء بحوث لصالح التنظيمات القومية فى المجتمع ويمدونها بالمعرفة التى يحتاجون إليها للسيطرة على مشكلاتهم. وهم يضعون خبرتهم تحت تصرف النظام ويجعلون تطور علم الاجتماع يسير فى الاتجاه الذى تحدده احتياجات الذين يمولونهم وتحت ستار الحياد فشل علم الاجتماع فى أن يسهم بأى شكل فى فهم مشكلات الفقراء والضعفاء وفى مساعدتهم على التغلب على سيطرة ذوى النفوذ والقوة عليهم.

إن علماء الاجتماع حاولوا أن يضفوا على أنفسهم الصبغة العلمية عن طريق تطوير أساليب وطرق البحث العلمى ولكن على حساب المضمون كما قدموا نظريات علمية ولكنها تخلو من المعرفة الحقيقية بالمجتمع. إن علماء الاجتماع قد تجاهلوا دراسة المشكلات الحقيقية للمجتمع الأمريكى، وكل من حاول ذلك واهتم بدراسة الواقع كان يواجه بالنبذ ونفى صفة العلمية عنه.

إن النظريات الاجتماعية الرجعية والليبرالية تبالغ عن عمد فى إظهار أن المجتمع تسوده حالة من الاتفاق والإجماع وتدعو إلى المحافظة على ذلك وتهمل حقيقة وجود الصراع بين مصالح المجموعات المختلفة فيه، وتدعو إلى التفاهم والصبر والنية الحسنة لحل أى مشكلات فيه. وذلك لا يمت للعلم بصلة. أنه لا يزيد عن كونه ضراعة ولا يصور الواقع بل يعبر عن آمال الطبقة الاجتماعية التى يمثلها علماء الاجتماع.

إن علم الاجتماع تحت تأثير وهم الابتعاد عن الصراعات المنتشرة فى المجتمع تخلى عن مسئوليته فى أن يكشف حقيقة القوى الاستغلالية فى المجتمع، وأصبحت الطبيعة الرجعية للحكومة الأمريكية خارج نطاق البحث

الاجتماعى ولكن السكوت على وضع ما يعنى الرضا عنه، وعدم كشف هذا الوضع يعنى تأييده"[٦].

وفى كتاب صدر عام ١٩٧٠ بعنوان "علم الاجتماع الراديكالى[٧]" يتناول مجموعة من علماء الاجتماع الراديكاليين شرح أسباب تخلف علم الاجتماع فى أمريكا وفشله فى تحقيق إمكانية الفهم العلمى للمجتمع، وأهم هذه الأسباب خضوع علم الاجتماع لسيطرة الرأسمالية والاحتكارية وقيامه بدور الدفاع عن هذا النظام وتبريره ويدعو هؤلاء العلماء إلى التمرد على ذلك الوضع وإلى استخدام المنهج العلمى فى فهم المجتمع وكشف القوانين التى تحكمه وإلى مناقشة ونقد الآراء التى يروج لها علماء الاجتماع التقليديين المستفيدين من النظام والمدافعين عنه.

نتبين مما سبق أن الدراسة العلمية للظاهرة الاجتماعية والوصول إلى نظرية اجتماعية عامة أمور ممكنة تماما ولكن هناك ظروفا وعوامل تعوق وتعرقل نمو وتطور العلوم الاجتماعية بصفة عامة وعلم الاجتماع بصفة خاصة وهذه الظروف لجتماعية وتشبه الظروف التى كانت تعرقل نمو وتطور العلوم الفيزيقية والبيولوجية قبل عصر الثورة الصناعية. ولكن هذه الظروف ليست أبدية، أى أنها تتغير. ومثلما تطورت العلوم الفيزيقية والبيولوجية فى أوربا مع ظهور قوى اجتماعية جديدة من مصلحتها كشف الحقائق المتعلقة بالكون المادى فإن العلوم الاجتماعية فى سبيلها إلى التطور فى الاتجاه العلمى الحقيقى مع ظهور وتعاظم القوى الاجتماعية الجديدة التى من مصلحتها كشف الحقائق المتعلقة بالحياة الاجتماعية وهذه القوى هى القوى الشعبية والمثقفون المستنيرون الذين يهمهم كشف الحقيقة والدفاع عنها.

أهمية دراسة النظرية الاجتماعية :

سبق أن ذكرنا أن العلم يتكون من جانبين أساسين هما الجانب الحسى والجانب العقلى وتحدثنا بالتفصيل عن مكونات الجانبين وعن العلاقة الوثيقة

والمتبادلة بينهما. ورأينا أن الصورة النموذجية لأى علم هى تلك التى لا تنفصل فيها النظرية عن الوقائع بمعنى أن تضم النظرية كل الوقائع التى تم اكتشافها وتربط بينها وتضفى عليها معنى وتخرج منها بمجموعة من التعميمات العامة المترابطة، وفى هذه الحالة تصبح النظرية موجها للباحثين عند جمعهم لوقائع جديدة تسهم فى إثراء النظرية وتطويرها.

وأى باحث فى أي علم من العلوم لا غنى له عن نظرية توجهه فى جمعه للوقائع المتعلقة بالظاهرة التى يريد دراستها، وفى اختياره للفروض التى يد أن يختبر صدقها، وفى اختياره للمنهج وللأدوات التى سيستخدمها فى دراسته، فبدون هذه النظرية يتخبط فى جمع معلوماته بحيث تأتى غير مترابطة ثم يعجز فى النهاية عن إضفاء معنى عليها أو تفسيرها. وهنا أريد أن أتوقف قليلاً لأشرح أهمية دراسة "النظريات الاجتماعية" بالنسبة لطالب علم الاجتماع.

إن الهدف الرئيسى لطلاب علم الاجتماع من دراستهم هو فهم المجتمع الذى يعيشون فيه ومحاولة الإسهام فى تطوير الحياة الاجتماعية فيه. وهم يدركون أن فهمهم للمجتمع لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق الدراسة الفعلية لجوانب الحياة الاجتماعية والتعرف عليها، ولكن المجتمع الذى نعيش فيه ونريد أن نفهمه يضم عدداً لا نهاية له من الوقائع الاجتماعية Facts وكل منها يمكن أن يكون موضوعاً للدراسة : خذ مثلاً بعض النماذج لما يمكنك أن تفكر فى دراسته : عادات الناس فى مختلف الأحياء والقرى المتعلقة بالتعامل الاجتماعى فى كافة صوره مثل أسلوب التحية بين فئات الناس (الأكبر والأصغر سنا، النساء، والرجال) ملابس النساء، ملابس الرجال، العلاقات بين الطلبة والطالبات فى الجامعة، كيفية ركوب الناس للمواصلات وتعاملهم فيها، العلاقات بين العاملين وبعضهم البعض، أشكال الاستهلاك بين فئات الناس، والانحرافات بين الشباب، الجريمة والمخدرات، البغاء، القيم، وضع المرأة فى

المجتمع، الفقر، الاستغلال، الرشوة .. الخ الأشياء التى لا حصر لها، ولكن أى هذه الموضوعات أولى بالدراسة ولماذا ندرسها وبأى كيفية؟

لكى تستطيع حتى أن تختار أياً من هذه الموضوعات لابد أن يوجد لديك تصور عام عن المجتمع الذى توجد فيه ، أى لابد أن يكون فى ذهنك هدف ما لهذه الدراسة، ولابد أن تكون لديك طريقة ما لدراسة ما تختاره من موضوعات وفوق هذا كله لابد أن تكون على علم بجهود من سبقوك إلى التفكير فى ذلك وما توصلوا إليه من نتائج، وما وقعوا فيه من أخطاء حتى تستطيع تجنبها، أى أنك لا تستطيع أن تبدأ أبداً من نقطة الصفر، وإلا فإنك لن تضيف له جديداً أبداً. والعلم بصفة عامة ذو طبيعة تراكمية Accumulative بمعنى أن كل دارس يضيف له شيئاً جديداً اعتماداً على معرفته بما توصل إليه من سبقوه. وهذه المعرفة توجد دائماً فى الكتب ليس على شكل حشد هائل من المعلومات المتفرقة ولكن على شكل استنتاجات عامة ونظريات "وأى باحث جاد لابد أن يبدأ أولاً بقراءة هذه المعرفة المتوفرة وإلا فإنه سيتخبط فى بحثه ويجمع معلومات ليكتشف بعد ذلك أن غيره قد توصل إلى جمعها أو أنها عديمة القديمة كما أنه قد يصل إلى استنتاجات يتضح له أنه قد ثبت خطؤها من زمن بعيد لأن الأسلوب المتبع فى دراستها كان خاطئاً. مثال ذلك أنه لو حاول بعض منكم أن يدرس مشكلة مثل الجريمة دون أن يقرأ شيئاً من النظريات عنها وعن المجتمع فإنه قد يكون معرضاً لخطر أن ينصرف جهده لجمع معلومات عن آباء وجدود أو شجرة عائلة المجرمين على فرض أن هذا السلوك وراثى وبعد فترة طويلة يكتشف أنه منذ زمن بعيد درس باحثون كثيرون هذا الفرض وصاغوا نظرية حوله (مثل نظرية لومبروزو) ثم أتى بعدهم باحثون آخرون أثبتوا أن المنهج الذى اتبعوه فى هذه الدراسة كان خاطئاً من الناحية العلمية وأعادوا الدراسة مرة أخرى بمنهج جديد أثبت بما لا يدع مجالاً للشك خطأ هذه النظرية تماماً - وبالتالى لم تعد ما سميت بالنظرية البيولوجية فى تفسير السلوك الإجرامى تعتبر نظرية علمية، وكذلك ثبت خطأ

النظرية الاجتماعية التى كانت تستند عليها، وهى الداروينية الاجتماعية أو النظرية البيولوجية أو العضوية فى تفسير المجتمع (مثل نظرية هربرت سبنسر). معرفتك إذن بهذه النظريات تجنبك الوقوع فى الخطأ الذى وقع فيه من سبقوك إلى الدراسة وتوجهك إلى اختيار متغيرات أو وقائع أخرى غير الوقائع البيولوجية لكى تربط بينها وبين السلوك الإجرامى، مثل المتغيرات السيكلولوجية، والاقتصادية والاجتماعية، والسياسية .. الخ. ولكن ما ينطبق على المتغيرات البيولوجية ينطبق أيضا على هذه المتغيرات الأخرى. فهناك من درسوا كل هذه المتغيرات وصاغوا نظريات حولها وهناك من فندوا هذه النظريات وتلك الدراسات وبينوا أوجه النقص والخطأ فيها. ولو أنك أغفلت الإطلاع عليها أيضاً لوقعت مرة أخرى فى نفس الخطأ.

إن الطالب الذى يدرس العلوم الفيزيقية والبيولوجية (فى كلية العلوم والهندسة والطب والصيدلة .. الخ) لا يبدأ أبداً بالدراسة المباشرة لواقع الظاهرات التى فى مجال تخصصه، ولكنه يبدأ بدراسة النظريات المتعلقة بها. فطالب الطب لا يبدأ بدراسة الأمراض وعلاجها، ولكنه يبدأ بدراسة نظرية الحياة فى علم البيولوجيا ويدرس وظائف الأعضاء ويدرس الكيمياء والفيزياء وتكوين وبناء الكائن الحى (فى التشريح) .. الخ ويمثل ذلك بالنسبة له الخلفية الفكرية والعلمية التى توجهه بعد ذلك فى كل دراساته وتطبيقاته العملية. صحيح أنهم يدرسون له فقط كل ما ثبتت صحته ولا يدرسون له ما كان يوجد من نظريات أو أفكار خاطئة منذ مئات السنين، ولكنهم يدرسون له أيضاً وجهات النظر المختلفة التى لم تحسم بعد فى علمهم المعاصر. فإذا ما وجدت الأدلة الكافية على صدق إحدى وجهات النظر أو التفسيرات فإن التفسيرات الخاطئة لا تستبعد من الدراسة ولكنها تظل تذكر كتحذير من الوقوع فى خطأ تبنيها حتى تستبعد تدريجياً بمرور الوقت وبرسوخ التفسير الصحيح.

ولكن هذه العلوم كما نعلم استقرت منذ زمن بعيد أما العلوم الاجتماعية فإنها بالمقارنة لها حديثة النشأة وهى مازالت فى مرحلة مشابهة لمرحلة نشأة

العلوم الفيزيقية والبيولوجية والتى كان يسود بها الكثير من النظريات المتضاربة وكان على دارس هذه العلوم أن يدرس كل هذه النظريات ويناقشها لكى يسهم فى كشف الحقيقة ويثبت صدق أو خطأ كل منها.

الموقف الآن بالنسبة لعلم الاجتماع شبيه بالموقف بالنسبة للعلوم الفيزيقية والبيولوجية من قبل حوالى الخمسمائة عام: نظريات متعددة ومتضاربة وفى كثير من الأحيان تقدم كل منها تصورا عاما للمجتمع يختلف عن الأخرى وتركز كل منها على جوانب منه تختلف عن الجوانب التى تركز عليها غيرها وتقدم جميعها تفسيرات مختلفة لمنشأ الحياة الاجتماعية وجوهرها وتغيرها وعلاقة مكوناتها ببعضها البعض، وتستخدم كل منها مفهومات تختلف عن الأخرى وتشير إلى أسلوب أو منهج للبحث خاص بها، وحصيلة ذلك كله أن كيفية دراسة أى باحث للواقع الاجتماعى سوف تعتمد على النظرية التى يتبناها.

من هنا تأتى أهمية دراسة كل من هذه النظريات ومناقشتها - وسوف تظل هذه الدراسة والمناقشة مستمرة حتى يتم جمع الأدلة الكافية على خطأ أو صواب كل منها أو على الأقل ما يحتويه كل منها من عناصر صحيحة بحيث يتم فى النهاية الوصول إلى نظرية اجتماعية عامة واحدة قابلة للإضافة إليها وإثرائها بكيفية تراكمية مثلما هو الحال بالنسبة للنظرية البيولوجية أو الفيزيائية.

إننا ندعو دائما إلى استيعاب كل النظريات الاجتماعية بدون استثناء وإلى إعمال العقل فيها ومناقشتها ونقدها؛ فيجب أن نتمتع دائما بالقدرة على التفتح الفكرى على جميع الاتجاهات، وليس هناك ما هو أخطر على علمنا وعلى مجتمعنا من الانغلاق على فكر واحد ومن أن نصبح أسرى قوالب جامدة ومن إلزام أبنائنا باستظهار آراء نفرضها عليهم ونعطل بها ملكة التفكير والنقد عندهم.

هوامش الفصل الثاني :

١- Mills, C. W. The Sociological Imagihation. (London, Oxford University Press 1969).

٢- نيقولا تيماشيف: نظرية علم الاجتماع، مرجع سابق، ص١٨

٣- Mills, C. W. op.cit., pp.

٤- انظر فى ذلك:

J. D. Bernal: Science in History. (New York. Howthorn Books, 1965).

٥- يجمع الكثير من المؤلفين على أن نشأة النظرية الاجتماعية كانت نشأة محافظة مضادة لفلسفة التنوير فى أوروبا وأنها سخرت لخدمة البورجوازية وتبرير سيطرتها السياسية والاقتصادية، انظر فى ذلك:

Irving Zeilin: Ideology and the Development of Sociological Theory (Prentice-Hall, New-Belhi, 1969).

Robert Nisbet: The Sociological Tradition. London, 1970.

T. B. Bottomore: Sociology as Social Criticism. London, George Allen and Unwin, 1975.

وبالعربية انظر:

د.عبد الباسط محمد حسن: علم الاجتماع، (القاهرة: مكتبة غريب، ١٩٧٧).

٦- Sociology Liberation Movement Handbill, 1968, in Paul Horton and Gerald R. Iesli: Studies in the Sociology of Social Problems, New York, Appleton-Century-Crafts. 1971, pp.18-19.

٧- J. D. Colfax and Jack Roach (ed.) Radical Sociology, New York, Basic Books.

الفصل الثالث

أسس تقييم النظرية الاجتماعية

يختلف الموقف النظري في العلوم الطبيعية عنه في العلوم الاجتماعية بصفة عامة وفي علم الاجتماع بصفة خاصة، ففي العلوم الطبيعية كعلم الحياة مثلاً يوجد واقع بيولوجي له وجود موضوعي مستقل عن العالم الذي يبحثه (ظاهرات الحياة) من جهة ومن جهة أخرى توجد نظرية عامة تصور هذا الواقع في جوهره وتضم القوانين التي تحكم تغيره وتطوره، كما توجد نظريات نوعية أو فرعية تصور كل جانب من جوانب هذا الواقع على جدة (مثل نظريات وظائف الأعضاء أو التشريح أو الأجنة) ولكنها تستند على النظرية العامة وتستمد منها مسلماتها الأساسية، ولم يعد هناك تعدد في النظريات العامة في العلم الطبيعي الواحد بل أصبحت هناك نظرية واحدة ثبت صدقها بالأدلة الأمبيريقية وأصبحت مهمة العلماء تطويرها والإضافة إليها واستخدامها في تفسير كافة الأحداث التي تدخل ضمن نطاقها. أما في علم الاجتماع وغيره من العلوم الاجتماعية فإنه على الرغم من وجود واقع اجتماعي له وجود موضوعي مستقل عن العالم الذي يبحثه (الظاهرات الاجتماعية) فإننا نجد نظريات عامة متعددة كل منها يقدم تصويراً لهذا الواقع يخالف ذلك الذي يقدمه غيرها. وبالتالي فإننا سنجد تفسيرات مختلفة لنفس الظاهرة الاجتماعية الواحدة. وهنا يواجه أي دارس لهذه النظريات بموقف حتمي يتعين عليه فيه أن يقارن بين هذه النظريات المختلفة ويختار من بينها ما يرى أنها الأصلح أو أنها الأكثر إقناعا، إلا أن عملية المقارنة هذه تتطلب بالضرورة تقييما لكل منها على حدة، فعلى أي أساس يتم هذا التقييم.

في أحيان كثيرة يلجأ دارسو النظريات الاجتماعية إلى تقييم هذه النظريات والمفاضلة بينها على أسس غير علمية، ويتعاملون مع هذه

النظريات كما لو كانت سلعاً أو أشياء مما تقابلهم في حياتهم اليومية يعتمد اختيارهم لأحدها دون الأخرى على المزاج الشخصي أو مدى جاذبيتها الانفعالية. فبعضهم يتبنى نظرية ما لأنها الأكثر رواجاً أو انتشاراً في ذلك الوقت مثلما يشترى سلعة ما لأنها "الموضة" أو لأن كل الناس المرموقين يشترونها. وبعضهم يتبنى نظرية أخرى لأن أشخاصاً معينين يثق فيهم ويحترمهم (كالأساتذة مثلاً) يتبنونها. والبعض الآخر يتبنى نظرية ثالثة لأنها تبدو بسيطة واضحة أو حتى لأنها تبدو عميقة غامضة يصعب على الآخرين فهمها![1] كما أن بعض دارسي النظريات الاجتماعية يتبنى نظرية ما لأنها ظهرت في الغرب الذي يحبه لا في الشرق الذي يكرهه أو العكس ! ولا يندر أن تقابل شخصاً ما له وزنه في علم الاجتماع يقر لك صراحة أنه يرفض حتى مجرد قراءة نظرية معينة لأنها رأسمالية أو لأنها اشتراكية أو لأنها أجنبية ومستوردة ولا يقبل إلا نظرية محلية حتى ولو كانت قديمة وعفى عليها الزمن!

ولكن ... هل هكذا يجب أن تفاضل بين النظريات في العلم؟ هل قبل العلماء نظرية اينشتاين لأنها الأكثر رواجاً أو لأنها أكثر بساطة أو تعقيداً أو لأنها ظهرت في أمريكا لا في الهند؟ وهل رفضها علماء في أي مكان لأنها لم تنبع من بلادهم؟ بالطبع لا .. لقد قبلت نظرية أينشتاين عن النسبية بعد أن تمت المقارنة بينها وبين النظرية السابقة عليها وتقييم كل منهما على أسس موضوعية واختبار صدق كل منهما، وهكذا الحال بالنسبة لكل النظريات العلمية الأخرى. إن أحداً لم يعد يثير الآن بالنسبة للنظريات العلمية في العلوم الطبيعية أسئلة كتلك التي يثيرها أحياناً المشتغلون بالعلوم الاجتماعية مثل هل تصلح هذه النظرية لتفسير واقعنا المحلي الذي يختلف عن الواقع الذي ظهرت لتفسيره؟ لأن الجميع يدركون الآن أن هناك نظريات عامة تنطبق على الظاهرة الطبيعية أينما كانت وتضم القوانين العامة التي تحكمها ونظريات نوعية تنطبق على كل نوع من هذه الظاهرات دون غيره. فالنظرية العامة عن الحياة تنطبق على كل الكائنات الحية بلا استثناء أينما كانت ووقتما كانت.

ولكن هناك قوانين نوعية لا تنطبق إلا على النبات (مثل التمثيل الكوروفيللى) وقوانين أخرى لا تنطبق إلا على الإنسان وهكذا. والمفروض أن ينطبق نفس الشئ على النظريات الاجتماعية. فلابد أن توجد نظرية عامة تنطبق على الظاهرة الاجتماعية بوجه عام وتقدم تصورا عاما عنها، ثم على ضوء هذا التصور العام توجد نظريات نوعية تقدم تفسيرات خاصة لكل ظاهرة اجتماعية على حدة.

وعلى ذلك فإن تقييمنا لأى نظرية اجتماعية عامة يجب أن يتحدد على أسس علمية وموضوعية لا على أسس الأهواء الشخصية أو الأفكار غير العلمية. كما أن قبولنا أو رفضنا لأى من هذه النظريات لابد أن يكون بناء على دراسة مستفيضة لها ثم تطبيق الأسس العلمية للتقييم عليها. ولكننا يجب أن نشير هنا إلى ضرورة الاهتمام بالمبادئ العامة التى ترتكز عليها النظرية أكثر من اهتمامنا بتفاصيلها عند تقييمنا لها ذلك أن تفاصيل كل نظرية مستمدة من هذه المبادئ العامة. وإغفال المبادئ العامة للنظرية والاهتمام بتفاصيلها يؤدى إلى التخبط العشوائى فى التقييم، وهذا ما نجده فى الكثير من الدراسات النقدية للنظريات الاجتماعية.

أن أول مهمة يجب أن تواجهنا عند دراستنا لأى نظرية اجتماعية هى أن نتعرف عليها ونستخلص المبادئ العامة أو الافتراضات أو المسلمات الأساسية التى تدور حولها هذه النظرية. يلى ذلك إخضاع هذه المبادئ أو المسلمات للفحص الدقيق ومناقشة مدى صدقها والتساؤل عن الأدلة التى تؤكدها أو تنفيها. ويساعدنا على الكشف عن صدق أو زيف هذه المسلمات محاولة التعرف على التحيزات الايديولوجية والسياسية التى تتضمنها النظرية من جهة وما تشير إليه النظرية من إجراءات عملية من جهة أخرى. أى أنه يتعين علينا عند تقييمنا لأى نظرية أن نثير أربعة تساؤلات أساسية نحاول الإجابة عليها:

١- ما المبادئ أو المسلمات الأساسية التى تدور حولها النظرية الاجتماعية؟

٢- ما الأدلة على صدق هذه المبادئ أو خطئها؟

٣- ما المضمون الايديولوجى والسياسى للنظرية وما مدى تأثيره على المبادئ العامة أو المسلمات الأساسية للنظرية؟

٤- ما الإجراءات العملية التى تشير إليها النظرية إذا سلمنا دون مناقشة بمسلماتها الأساسية؟

ولكى أوضح العلاقة بين هذه التساؤلات الأربعة أضرب مثالا بالنظرية العنصرية التى روجت لها ألمانيا النازية وعلماؤها عن تفوق الجنس الآرى على غيره من الأجناس البشرية. إن هذه النظرية كانت تستند على مسلمة أساسية مؤداها أن هناك خصائص بيولوجية موروثة لدى كل جنس من الأجناس البشرية تحدد بشكل أبدى تفوقه أو تخلفه الحضارى ولا سبيل إلى تغيرها، وكان علماء البيولوجيا الألمان يحاولون تقديم أدلة زائفة على صدق هذه المسلمة ولكن البحوث البيولوجية أثبتت أن ليس هناك أى "موروثات Genes" ترتبط بالتحضر أو التخلف مثلما توجد مورثات ترتبط بلون البشرة مثلاً، كما أن الدراسات التاريخية والحضارية المقارنة أثبتت أن كثيراً من الأجناس التى تعتبرها النظرية العنصرية متخلفة كانت لها حضارات أرقى بكثير جداً من حضارات تلك الأجناس التى تعتبرها النظرية أرقى من غيرها. (كانت الحضارة الفرعونية دليلاً على زيف هذه الادعاءات، فى الوقت الذى كانت مصر الفرعونية تقيم حضارة راقية مازالت حتى الآن مصدراً لحضارات العالم كانت شعوب أوربا تحيا حياة بدائية جداً). وهكذا اتضح أن المسلمة الأساسية التى استندت عليها النظرية العنصرية عن الإنسان تنفيها الأدلة الامبيريقية. فإذا ما حللنا هذه النظرية من ناحية مضمونها الأيديولوجى لوجدنا أنها ذات مضمون استغلالى، فهى لم تكن سوى محاولة لتبرير استعمار دول معينة لشعوب العالم عن طريق استغلال العلم والتستر وراءه. والإجراءات العملية التى تشير إليها هذه النظرية كانت ببساطة تسليم الشعوب

والأقوام المستعمرة والمستغلة بالأمر الواقع وقبول الخضوع لسيطرة القوى الاستعمارية بوصفه قضاء وقدر هذه الشعوب الذى لا مفر منه ولا سبيل إلى تغييره طالما أن أساسه بيولوجى. أن هذه النظرية العنصرية لو كانت قد قبلت دون مناقشة لأدت إلى استمرار الاستعمار. ولكن مناقشة مسلماتها الأساسية وتحليل الإدلة على صدقها والبحث عن أدلة تنفيها مع الكشف عن مضمونها الايديولوجى وأهدافها العملية أدت إلى رفضها تماماً فى الأوساط العلمية والشعبية وإلى استبدالها بنظرية علمية صحيحة مؤداها أن جميع أجناس العالم لا تختلف عن بعضها فى استعداداتها البيولوجية وأن ما يوجد بينها من اختلافات حضارية يرجع إلى ظروف تاريخية وبيئية يمكن تعديلها وتغييرها.

ولكن دعاة العنصرية والاستعمار والاستغلال لجأوا بعد إكتشاف زيف هذه النظرية من الناحية البيولوجية إلى العلوم الاجتماعية وصاغوا نظريات مشابهة عن الوراثة الاجتماعية والحضارية حاولوا بها أن يوهموا شعوب العالم أن هناك شعوباً متخلفة بالضرورة بحكم تراثها الحضارى والاجتماعى الذى يفرض عليها هذا التخلف كما قسموا الناس داخل المجتمع الواحد إلى فئات متخلفة حضارياً وسيكولوجيا واجتماعياً وفئات متقدمة لها الحق فى السيطرة على المتخلفين وتوجيه أمورهم. وتاريخ العلوم الاجتماعية ملئ بهذه المسلمات ويكفى أن نشير إلى نظريات الصفوة فى علم الاجتماع وإلى نظريات الذكاء فى علم النفس (مثل نظرية أيزنك فى إنجلترا وجنسن فى الولايات المتحدة). ولابد لدارس النظرية الاجتماعية أن يخضعها للمناقشة والتحليل مستخدماً نفس أسس التقييم التى استخدمت فى مناقشة وتحليل النظرية البيولوجية العنصرية. وسوف نعرض فيما يلى لأسس التقييم هذه بالتفصيل(٢).

أولاً : الافتراضات أو المسلمات الأساسية التى تدور حولها النظرية :

ونعنى بالافتراضات أو المسلمات تلك الأفكار التى تعتبر محوراً أساسيا تدور حوله النظرية وقد يخضعها صاحب النظرية للمناقشة ويقدم أدلة

عليها أو قد يقدمها على أنها مسلمات لا تقبل الشك. وقد تكون هذه الأفكار المحورية ظاهرة ومعبراً عنها بوضوح في النظرية وبالتالي يسهل مناقشتها أو قد تكون كامنة أو خافية وبالتالي يصبح علينا أن نبذل جهداً في استنتاجها من خلال النظرية وإخضاعها للمناقشة. وقد أطلق الفن جولدنر على هذه الافتراضات تسمية "الافتراضات الخلفية Background assumptions" بينما أسماها جدعون جوبرج "الافتراضات الرئيسية Basic assumptions" وعادة ما تعكس هذه الافتراضات التوجيه الايديولوجي لصاحب النظرية وانحيازاته الاجتماعية. كما أن هذه الافتراضات التي تتضمنها النظرية سوف تؤثر على أي باحث يجري دراسات عن أي ظاهرة اجتماعية. وقد سبق لنا الحديث عن العلاقة بين النظريات والبحث في ميدان العلم.

يقرر جوبرج أن النظريات الاجتماعية المختلفة مثل البنائية - الوظيفية والتفاعل الرمزي والوضعية والماركسية تتضمن جميعها افتراضات معينة عن الواقع الاجتماعي وعن طبيعة الإنسان وعن علاقة العالم بالمادة التي يدرسها وأن هذه الافتراضات ترتبط جميعها ببعضها البعض منطقياً إلى حد ما.

ولما كان أي باحث في ميدان الظاهرات الاجتماعي يتبع بالضرورة نظرية ما حتى ولو عن غير وعي، فإن هذه النظرية بما تتضمنه من افتراضات أساسية حول تلك الموضوعات السابق ذكرها سوف تؤثر عليه في جميع خطوات بحثه، ابتداء من اختياره للمشكلة موضوع البحث واختياره لأدوات جمع البيانات حتى تفسيره للمادة التي سيجمعها مهما كان مجال دراسته.

وقد صنف جوبرج هذه الافتراضات الأساسية إلى خمس فئات أساسية هي:

١- افتراضات خاصة بطبيعة الواقع الاجتماعي.

Assumption about social reality

٢- افتراضات خاصة بطبيعة الإنسان وقدراته.

Assumption about the nature of man and his potentiality.

٣- افتراضات خاصة بعلاقة الباحث بالظاهرات الاجتماعية التى يلاحظها.

Assumptions concerning the observers relationships to observed social phenomena.

٤- افتراضات خاصة بمستوى النظرية.

Assumptions concerning the - level of theory.

٥- افتراضات خاصة بالمتغيرات السببية أو التفسيرية.

Assumptions about causal or explanatory variables.

وفيما يلى شرح لكل نوع من هذه الافتراضات الأساسية التى تحدد مضمون النظرية الاجتماعية.

أولاً : الافتراضات الخاصة بطبيعة الواقع الاجتماعى :

تعتبر هذه الافتراضات من أهم موجهات النظرية الاجتماعية.

ويمكن مناقشة هذه الافتراضات على أساس عدة أبعاد فرعية :

١- التغير أو الثبات فى الواقع الاجتماعى.
٢- التكامل أو الصراع.
٣- المادية أو المثالية.
٤- وحدة الملاحظة والتحليل الأساسية (الفرد أو الجماعة).

(أ) الافتراضات المتعلقة بالتغير أو الثبات فى النظام الاجتماعى:

هناك بين علماء الاجتماع من يؤكدون أن الواقع الاجتماعى فى حالة تغير دائم وأن النظام الاجتماعى ليس ثابتاً ولكنه يكون دائماً فى حالة تكوين.

وفى مقابل هذا الافتراض نجد فريقاً آخر من علماء الاجتماع يرون أن الواقع الاجتماعى فى حالة ثبات واستقرار. وهذا الاتجاه الأخير هو السائد فى علم الاجتماع المؤسسى فى الغرب.

ويرتبط بهذا الافتراض المتعلق بالتغير أو الثبات افتراضات متعارضة فيما يختص بقدرة الإنسان على السيطرة على بيئته. فأصحاب الاتجاه الأول (الثبات) يرون أن الإنسان لا يفعل أكثر من أن يستجيب للنظام القائم (أى يتلاءم معه) أما أصحاب الاتجاه الثانى (التغير) فيسلمون أن فى وسع الإنسان أن يغير دائماً من بيئته.

(ب) الافتراضات المتعلقة بالتكامل أو الصراع:

يرى أصحاب النظريات التى تفترض مسبقاً أو تسلم بفكرة التكامل من أمثال تالكوت بارسونز أن الإنسان يسعى بطبعه إلى الاتساق والتعاون وأنه يتجنب التوتر والصراع. ووجهة النظر هذه تتناقض تماماً مع وجهة نظر علماء آخرين من أمثال كارل ماركس وزيميل، الذين افترضوا أن الإنسان فى حالة صراع دائم مع بعضه البعض ومن المؤكد أن وجهة النظر الأخيرة هذه سوف تؤدى بالباحث إلى تحليل النظام الاجتماعى بطريقة مختلفة تماماً عن تلك التى يتبناها علماء الاجتماع الذين يؤكدون على التكامل والتعاون. كما أن الباحث فى هذه الحالة سوف يتبنى فى الغالب المنطق الجدلى فى تحليلاته وسوف يهمل تماماً فكرة التوازن على عكس أصحاب الافتراضات التكاملية.

(جـ) الافتراضات المتعلقة بالمادية أو المثالية:

على الرغم من أن العلماء الفيزيائيين (علماء الطبيعة) يعتمدون كلية على افتراض الأساس المادى للواقع فإن العلماء الاجتماعيين مازالوا يجدون صعوبة فى التسليم بأن العالم المادى هو الواقع النهائى. وقد كان الماركسيون هم الذين قدموا التفسير المادى للواقع.

وهناك جدل شديد بين علماء الاجتماع حول هذا الموضوع، ولكن يجب أن نشير هنا إلى أن بعض علماء الاجتماع قد يسلمون بالأساس المادى للواقع الاجتماعى ولكنهم لا يسلمون بكفرة الصراع. كما أن معنى الأساس المادى يختلف من عالم لآخر. فعلماء الاجتماع فى ميدان الايكولوجيا البشرية

يعتبرون الأساس المادى هو التكنولوجيا والبيئة والسكان، بينما يعتبر علماء الاجتماع الماركسيون أن هذا الأساس يتمثل بصفة رئيسية فى القوى الإنتاجية وعلاقات الإنتاج فى المجتمع.

وهناك فريق آخر من علماء الاجتماع يتبنون فكرة الثنائية (أى المادية والمثالية فى أن واحد) مثل علماء الاجتماع الظواهراتيين أو الفينومينولوجيين ومنهم الفرد شوتز، حيث يرون أن الواقع ليس هو العالم المادى أو نسق المفهومات لدى الفرد ولكنه الرابطة بين الأثنين.

(د) الافتراضات الخاصة بالوحدة الأساسية للدراسة - الفرد أو المجموعة :

مازال هناك خلاف أساسى بين علماء الاجتماع حول هذه النقطة ويتمثل الخلاف فى ذلك الجدل الدائر بين هومانز وبارسونز، فهومانز يرفض فكرة المجموعة أو النسق الاجتماعى كوحدة أساسية للتحليل، ويتفق معه فى ذلك كثير من العلماء فهم يعتقدون أن الكل (أو المجموعة) ليست أكثر من مجرد مجموع أجزائها. بينما يرى الآخرون، ومن بينهم بارسونز أن الكل هو وحدة الدراسة وأنه يختلف عن مجرد مجموع الأجزاء.

ويمكننا أن نضيف إلى ذلك موقف الماركسيين المادى الجدلى الذين يختلفون عن هذين الفريقين من حيث أنهم يرون العلاقة الجدلية بين الكل والجزء كما يؤكدون فى نفس الوقت على الأسس المادية والتاريخية للواقع الاجتماعى.

ثانياً : الافتراضات الخاصة بطبيعة الإنسان وقدراته :

يرتبط هذا الافتراض الأساسى ارتباطاً وثيقاً بالافتراض الخاص بطبيعة الواقع الاجتماعى.

فهناك من العلماء الاجتماعيين من افترض أن الإنسان وأفعاله غير منطقية فالذين يتبعون الفكر الفرويدى مثلاً يعتقدون أن الإنسان قد خلق مجتمعاً

يعمل دائماً على كبت حوافزه البيولوجية، فقد رأى فرويد أن الإنسان تدفعه دوافع وحوافز خفية لا يمكن فهمها إلا إذا تعمقنا فى فهم لا شعوره. وعلى هذا فإن المقابلات التى كان يجريها فرويد فى دراساته كانت تعتمد على افتراض أن الإنسان فى جوهره غير عقلانى أو غير منطقى. ولكن فرويد من جهة أخرى قد حاول بوصفه عالماً أن يفرض طابعاً عقلانيا على أفعال الإنسان غير العقلانية (أى قدم تحيلاً عقلانيا لذلك).

وهناك فريق آخر من العلماء يخالف هذا الرأى ويرفض التسليم بهذه الفكرة الفرويدية ويرى أن الإنسان كائن عقلانى. وقد سلم "تالكوت بارسونز" بذلك في كتابه "بناء الفعل الاجتماعي" ولكنه عاد فتأثر بفكر فرويد عن الطبيعة اللاعقلانية للإنسان فى كتاباته اللاحقة.

كما أن هناك من بين العلماء الاجتماعيين من يسلمون بفكرة توماس هوبز الفيلسوف الإنجليزى التى مؤداها أن الإنسان شرير بطبعه وأنه يهدف دائماً إلى تحقيق مصلحته على حساب الآخرين، بينما يسلم غيرهم بأن الإنسان يرغب دائماً فى التضحية بمصالحه من أجل الصالح العام (مثل سوروكين).

وأخيراً نجد من بين علماء الاجتماع أولئك المتشائمون وأولئك المتفائلون فيما يتعلق بقدرة الإنسان على تحسين وتطوير ذاته وبيئته. فالوضعيون مثلاً لا يسلمون بأن الإنسان يستطيع التحكم فى بيئته، بينما يرى أصحاب نظرية التفاعل الرمزى (مثل بلومرميد) أن الإنسان قادر على تحسين ذاته والماركسيون يحاولون التوفيق بين فكرة حتمية السلوك الإنسانى من جهة وبين قدرة الإنسان على إعادة تشكيل بيئة من خلال الجهود الثورية من جهة أخرى.

ثالثا : الافتراضات الخاصة بعلاقات العالم بالظاهرات الاجتماعية التى يدرسها:

يضع كل عالم اجتماع بعض الافتراضات التى تكون عادة ضمنية فيما يتعلق بعلاقة الباحث بالواقع الاجتماعى. فهناك فريق من علماء الاجتماع

يفترضون أن القائم بالملاحظة قادر على أن يعزل نفسه عما يلاحظه وأنه يستطيع أن يجرى ملاحظاته مستقلاً عن الواقع الذى يدرسه وهذا الاتجاه هو الذى يتبناه المنطقيون لكن هناك فريقاً آخر يرى أن القائم بالملاحظة يؤثر فى الواقع الاجتماعى ويتأثر به بدوره. وهناك فريق ثالث يرى أن القائم بالملاحظة (أى الباحث) يؤثر ويتأثر بالنظام الاجتماعى الذى يدرسه ولكن يستطيع عن طريق جعل هذه العلاقة المتبادلة تتخذ طابعاً موضوعياً أن يمارس درجة من السيطرة على هذه العلاقة وبالتالى يستطيع أن يحقق درجة عالية من الموضوعية التى يسلم الأمبيريقيون بها ولكنهم لا يستطيعون تحقيقها ومن المؤكد أن هذه الافتراضات سوف تؤثر هى الأخرى على كل خطوات البحث الاجتماعى، فالباحث الذى يرى إمكانية عزل نفسه عن الظاهرة سوف يهمل دراسة نفسه كمتغير فى الظاهرة التى يدرسها أما الباحث الذى يسلم بعكس ذلك فإنه سيجعل نفسه موضوعاً للدراسة أثناء دراسته لأى ظاهرة.

رابعاً : الافتراضات المتعلقة بمستوى النظرية :

مازلنا نجد فى ميادين علم الاجتماع وعلم النفس وعلم الإنسان جدلاً واسعاً حول ما إذا كان يجب على العالم أن يستخدم فى بحثه فروضاً بسيطة أو يستخدم أنساقاً نظرية مجردة أو كبيرة أو يلجأ إلى النظريات متوسطة المدى.

ويرتبط مستوى النظرية الذى يستخدمه العالم بتصوره لنمو المعرفة الإنسانية فالباحثون الذين يتبعون الاتجاه الامبيريقى المحدود يعتبرون المعرفة شيئاً يتراكم جزءاً فوق جزء وأن عناصر هذه المعرفة سوف تتجمع على المدى البعيد فوق بعضها البعض لكى تكون النظرية. وفى مقابل ذلك الاتجاه نرى علماء آخرين مثل سوروكن الذى يقرر فى كتابه "الديناميات الاجتماعية والثقافية" أن المعرفة لا يمكن أن تتجمع إلا عن طريق إطار نظرى كبير ومن خلال هذا الإطار تمتزج عناصر المعرفة مع بعضها البعض فى كل متكامل له معنى.

- وهناك فريق ثالث يمثله "روبرت مرتون" يتخذ موقفاً وسطاً بين الاتجاهين يرى أن على الباحث أن يسترشد بنظرية متوسطة المدى أى بنظرية عن كل نوع من الظاهرات على حدة وليس مجرد فروض متفرقة كما يرى الامبيريقيون ولا نظرية ضخمة كما يرى سوروكن وبارسونز.

ويختلف الماركسيون عن هؤلاء جميعاً فى وجهة نظرهم عن طبيعة المعرفة فهم يرون أن الخبرة الحسية هى أساس كل المعرفة الإنسانية بالواقع وأن الإنسان من تحليله لخبرته هذه تحليلاً عقلياً يستطيع أن يصل إلى جوهر وحقيقة الأشياء التى يلاحظها ويصوغ معرفته هذه على شكل قوانين ونظريات عامة توجهه وترشده لجمع مزيد من الوقائع عن العالم المحيط به وكلما توفرت له وقائع جديدة استطاع أن يعدل من هذه النظرية ويطور فيها، ويرى الماركسيون أن النظرية العلمية عن المجتمع لا يجب أن تكون مادية فحسب ولكن لابد أن تكون تاريخية أيضاً.

كما أنهم يرون أن النظرية التى تضم القوانين العامة ترشد العالم دائماً إلى اكتشاف القوانين الخاصة المتعلقة بظاهرات معينة وتؤدى هذه القوانين الخاصة بدورها إلى اكتشاف قوانين عامة تؤدى بدورها إلى تعديل القوانين القائمة. وبذلك كله يسترشد العالم بنظرية أعم عن طبيعة الفكر أو الوجود وهى بالنسبة لهم المادية الجدلية. وهناك دائماً علاقة جدلية بين النظرية والواقع.

خامساً : الافتراضات المتعلقة بالمتغيرات السببية أو التفسيرية :

تعكس طبيعة المتغيرات التى يستخدمها الباحث فى تفسيره للظاهرات التى يدرسها افتراضاته الأساسية عن طبيعة الواقع الاجتماعى مستوى التنظير أى أنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بكل المتغيرات السابق الحديث عنها.

وتعتمد صياغة الباحث للمتغير أو المتغيرات التفسيرية على ميدان بحثه بالطبع، سواء كان هذا الميدان أنساق الشخصية أو الأنساق الاجتماعية أو الأنساق الثقافية وكذلك العلاقات المفترضة بين أنماط الظاهرات الاجتماعية.

ولكن ميدان دراسته ذاته يعكس إلى حد بعيد مفهوم العالم عن الطبيعة الأساسية للواقع الاجتماعى. فالماديون سوف يفسرون التغير الاجتماعى على أساس متغيرات مثل وسائل الإنتاج بينما يفسر المثاليون ذلك على أساس متغيرات أخرى مثل القيم أو الأفكار.

ويستخدم علماء الاجتماع فى العادة واحداً أو أكثر من المتغيرات الآتية كمتغيرات مستقلة (تفسيرية) :

١- المتغير التاريخى :

يفترض كثير من العلماء الاجتماعيين وخاصة علماء الانثروبولوجيا أن كل ثقافة لها قوانينها الخاصة وعلى ذلك فإنه لا يمكننا فهم أنماط الأنساق الثقافية إلا إذا اعتبرناها وحدة كلية لها امتدادها الزمنى. وهذا الافتراض الذى يؤكد على اعتماد الحاضر على الماضى يفرض على الباحث الأسلوب التاريخى فى البحث وإلى حد ما يفرض عليه أيضاً أن يتبنى إطاراً نظرياً تطورياً لكى يفهم الحاضر ويتنبأ بالمستقبل.

- المتغير الاقتصادى أو التكنولوجى :

يفترض كثير من العلماء الاجتماعيين أن العوامل الاقتصادية والتكنولوجية هى التى تحدد كافة الظاهرات الاجتماعية ولذلك فإننا نرى كثيراً منهم يتخذون من الثورة الصناعية متغيراً أساسياً يفسرون به التغير المستمر فى أبنية المجتمعات. ويعتقد بعض الكتاب أن العامل الاقتصادى متمايز من الناحية التحليلية عن العامل التكنولوجى ويؤكد بعضهم على متغير أو آخر من الاثنين.

ومن جهة أخرى يرى الماركسيون أن أساليب الإنتاج تتضمن كلاً من العوامل التكنولوجية والاقتصادية ولكنهم يعطون أهمية أكبر للعوامل الاقتصادية ولكن يجب أن نضع فى اعتبارنا أن العوامل الاقتصادية

والتكنولوجية يمكن أن تعتبر ذات أساس مادى كما هو الحال فى النظرية الماركسية أو ذات أساس مثالى كما هو الحال فى النظريات المثالية. فالمثاليون يميلون إلى النظر إلى التكنولوجيا بوصفها نسقاً من الأفكار والمعرفة التى يمكن بواسطتها التعامل مع الموضوعات المادية.

٣- متغير القيم الثقافية :

يميل معظم العلماء الاجتماعيين إلى افتراض أن هذا المتغير هو أهم المتغيرات التى يمكن بواسطته تفسير الفروق بين المجتمعات، فقد اعتمد ماكس فيبر على نسق القيم والمعتقدات بوصفه نسقاً تفسيرياً فى تفسيره للعلاقات بين الدين والنسق الاقتصادى فى مختلف قطاعات العالم الاجتماعى.

ويفعل تالكوت بارسنز نفس الشئ فى دراسته للظاهرات الاجتماعية. وبذلك يقف موقفاً مخالفاً تماماً لموقف العلماء الاجتماعيين الذين يعطون الأولوية للعوامل المادية.

٤- متغير القوة الاجتماعية :

يعتقد كثير من العلماء الاجتماعيين وبخاصة علماء الاجتماع المتأثرين "بموسكا" و "باريتو" و "ميشلز" أن القوة الاجتماعية يمكن أن تستخدم كمتغير يفسر التغيرات البنائية التى تطرأ على الأنساق وقد استخدم ماركس القوة كمتغير تفسيرى لكى يدعم وجهة نظره عن أهمية وسائل الإنتاج، كما استخدمه فيبر لكى يدعم به وجهة نظره عن أهمية القيم الثقافية.

٥- متغيرات تفسيرية أخرى :

وهناك متغيرات أخرى كثيرة يستخدمها علماء الاجتماع وخاصة الأمبيريقيون منهم لتفسير الظاهرات الاجتماعية التى يدرسونها مثل حجم السكان والحضرية والسن والنوع والأسرة والبيرقراطية و .. الخ ويختلف علماء الاجتماع فيما بينهم فيما يتعلق باستخدامهم لهذه المتغيرات حسب درجة

العمومية أو التخصيص فى مستوى التنظير الذى يستخدمون هذه المتغيرات فى ضوئه.

هذه هى فئات الافتراضات الأساسية التى قدمها جدعون جوبرج بوصفها من أهم المحددات النظرية لكل خطوات البحث الاجتماعى. ويجب أن نشير هنا مرة أخرى إلى الترابط بين جميع الافتراضات بعضها البعض فى نسق متكامل يشكل فى النهاية الإطار النظرى للباحث. فإذا كان الباحث ماديا جدليا مثلاً فإنه سيبدأ بالتسليم بأن أساس الواقع الاجتماعى مادى وأن هذا الواقع فى حالة تغير مستمر وأن التغيرات الكمية تؤدى إلى تغيرات كيفية وأن هذا الواقع يتضمن دائماً صراعا بين الأضداد، وهذا الصراع هو القوة المحركة للتاريخ حيث ينجم عنه كيفية جديدة تدخل فى صراع مع ضدها لينجم عن ذلك كيفية أخرى وهكذا. كما أنه سوف يعتبر وحدة الدراسة الأساسية والمتغير التفسيرى الرئيسى هو التكوين الاقتصادى الاجتماعى (إقطاعى - رأسمالى - اشتراكى مثلاً) وسوف يركز بصفة أساسية أيضا على دراسة كافة الظاهرات الاجتماعية من منظور تاريخى دون أن يجعل الفرد أبدا وحدة الدراسة الأساسية أو المتغير التفسيرى كما أنه سيجعل الحالات النفسية والقيمية والثقافية متغيرات تابعة وليست متغيرات مستقلة.

كذلك سوف يفترض منذ البداية أن الإنسان قادر على تغيير واقعه الاجتماعى أو بعبارة أخرى على دفع عجلة التغير إلى الأمام فى اتجاه التطور الاجتماعى حسب القوانين المادية التاريخية وذلك عن طريق فهمه لهذه القوانين وعن طريق عمله الثورى وسوف يفترض هذا الباحث المادى الجدلى أيضا أن الباحث يستطيع أن يؤثر على الظاهرة موضوع الدراسة حتى أثناء دراسته لها فالباحث والظاهرة يدخلان سويا فى علاقة جدلية بالضرورة وسوف يسترشد هذا الباحث فى كل خطوات بحثه بنظرية عامة عن الكون والمجتمع ويستمد من النظرية فروضه الجزئية التى يخضعها للدراسة.

ويختلف ذلك الباحث بالطبع عن باحث آخر وضعى يسلم بافتراضات مخالفة تماماً لتلك التى يسلم بها المادى الجدلى. فالباحث الوضعى سوف يبدأ بالتسليم بأن أساس الواقع الاجتماعى فكرى أو قيمى أى مثالى، حتى لو اتخذ محوراً لدراسته بعض المتغيرات التى تبدو مادية مثل التكنولوجيا أو الاقتصاد فانه سيضفى عليها* مضموناً فكرياً بوصفها نسقاً من الأفكار أو المعتقدات وليس بوصفها أشياء مادية كما أنه سيميل إلى النظر إلى الواقع الاجتماعى على أنه فى حالة من السكون والتكامل والاستقرار وسيجعل وحدة دراسته التى يركز عليها الفرد أو المجموعة الصغيرة. كما أنه سيميل إلى افتراض أن الباحث منفصل تماماً عن الظاهرة التى يدرسها وأنه لابد أن يكون محايداً تماماً عند دراسته لها (وذلك ما تعرض للكثير من النقد على أساس أنه مناف للواقع)، ولن يستخدم الباحث الوضعى نظرية عامة يسترشد بها فى دراسته أو بتعبير أدق لن يعترف بأنه يسترشد بنظرية عامة بل سيدعى أنه يهدف فقط إلى مجرد الوصول إلى فروض جزئية يمكن التحقق من صدقها بالتجريب وأن النظرية تمثل بالنسبة له نهاية المطاف وسيهمل مثل ذلك الباحث المتغيرات التاريخية والمادية ويهتم بمتغيرات جزئية أو فرعية ذات طبيعة مثالية.

ثانياً : المضمون الأيديولوجى للنظرية :

على عكس ما يدعيه علماء الاجتماع المثاليون لا تخلو نظرية اجتماعية من مضمون أيديولوجى كما سبق أن أوضحنا. وإذا ما عدنا إلى الافتراضات الأساسية السابق الحديث عنها وإلى ما سبق أن شرحناه عن العلاقة بين النظرية والأيديولوجيا لوجدنا أن كلاً من الافتراضات التى تتضمنها النظرية ذات بعد أيديولوجى واضح.

وسوف نناقش هذا المضمون الايديولوجى عند عرضنا للنظريات المختلفة ولكن يجب أن يكون فى أذهاننا ونحن ندرس هذه النظريات بعض الأسئلة التى تدلنا على هذا البعد الايديولوجى مثل :

١- ما المجموعات الاجتماعية التى يدافع صاحب النظرية بطريقة صريحة أو ضمنية عن مصالحها؟

٢- ما المجموعات التى يؤكد صاحب النظرية أنها صاحبة الحق فى السيطرة على المجتمع؟

٣- أى نظام اجتماعى - اقتصادى يصوره صاحب النظرية على أنه النظام الأمثل للبشرية؟

٤- ما الجوانب التى يركز عليها صاحب النظرية اهتمامه ويبرزها وما الجوانب التى يتغافل عنها أو يتجاهلها فى الحياة الاجتماعية؟ ولمصلحة من فى المجتمع يتم هذا الإبراز أو التجاهل؟

ثالثاً : الأدلة الواقعية على صدق الاستنتاجات النظرية :

سبق أن ذكرنا أن النظرية التى لا تستند على وقائع أو أدلة مستمدة من الواقع لا تزيد عن كونها مجرد تأملات عقلية غير علمية ولذلك فإن أى أحكام أو استنتاجات تتضمنها النظرية يجب لكى نقبلها أن تكون مدعمة بالأدلة.

فإذا أصدر صاحب نظرية ما (مثل باريتو أو موسكا) حكما بأن الحكام يمثلون صفوة المجتمع وأنهم يكونون مزودين بخصائص ومهارات فطرية أو موروثة تؤهلهم لحكم بقية أفراد المجتمع، أو أن هناك أجناس بشرية أرقى من غيرها وبالتالى فمن حقها أن تسيطر على غيرها، وجعل هذا الحكم محورا لنظريته فإننا لابد أن نتساءل هنا عن الأدلة الواقعية على ذلك، وأن نفتش عن أدلة أخرى تؤكد أو تنفى هذا الاستنتاج.

ويمكننا فى هذا المثال أن نهدم هذا الحكم والنظرية المرتبطة به كلها إذا ما استطعنا أن نثبت أن الصفوة الحاكمة لا تتميز عن غيرها من بقية مجموعات المجتمع إلا فى سيطرتها على مصادر الثروة فى المجتمع وأنه إذا انتقلت هذه السيطرة إلى مجموعة أخرى ظل يفترض لفترات طويلة طبقا لهذه النظرية أنه تنقصها هذه المهارات (مثل الطبقة العاملة) فإننا فى هذه الحالة نستطيع أن نرفض النظرية بأسرها لأنها تستند على أدلة صادقة.

- وكذلك الحال بالنسبة لأحكام أخرى أقيمت عليها النظريات الجغرافية مثل نظرية "مونتسكيه" الذى قرر أن سكان المناطق الباردة يختلفون بالضرورة عن سكان المناطق الحارة فى عقائدهم وخصائصهم النفسية ونظمهم الاجتماعية وأن الطقس والبيئة يلعبان الدور الحاسم فى تحديد شكل المجتمع.

لقد اتضح من المقارنات الواقعية بين مختلف المجتمعات أن هذا الحكم يفتقر إلى الأدلة الواقعية بل أن هناك كثيرا من الأدلة التى تنفيه.

رابعا : الإجراءات العملية التى تشير إليها النظرية :

يجب علينا عند قراءتنا لأى نظرية أن نحاول دائما أن نستنتج منها الإجراءات التى توجهنا إليها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، ولو عدنا إلى مثال النظريات الجغرافية لنترجمها إلى إجراءات عملية لوجدنا أنها تعنى مباشرة، أن سكان المناطق الحارة سوف يظلون على ما هم عليه من صفات مهما حاولوا تغييرها فيما أن الطقس ثابت فإن حالة هذه المجتمعات لابد أن تكون أيضا ثابتة وبالتالى فلا أمل لديهم فى التفكير فى أن يصبحوا مثل سكان المناطق الباردة. كما أن نظرية الصفوة توحى لنا أيضا بأن على جميع الناس أن يخضعوا لهذه الصفوة لأنها هى الأقدر على الحكم وتسيير دفة المجتمع، والعلماء الذين يفترضون أن المجتمع فى حالة اتزان وتكامل وينفون فكرة الصراع فيه إنما يدعون الناس إلى المحافظة على حالة الاتزان المفترضة هذه ويحذرونهم من الثورة أو التمرد على أى أوضاع جائزة قائمة لأن من شأن ذلك الإضرار بكيان المجتمع.

والعلماء الذين يفترضون أن قدرات الإنسان على تغيير واقعه الاجتماعى محدودةُ يدعون الناس إلى قبول الواقع الاجتماعى كما هو عليه وإلى أن يرضى كل إنسان بقدره ونصيبه وألا يسعى إلى تغيير هذا الواقع.

تلخيص :

يتعين علنيا عند دراستنا النظرية الاجتماعية أن نتبع الخطوات التالية :

أولا : قراءة وفهم واستيعاب هذه النظرية بكافة أبعادها.

ثانيا : استخلاص المسلمات الأساسية التى ترتكز عليها كل تفاصيل النظرية.

ثالثا : إثارة التساؤلات الآتية والحصول على إجابات عليها من النظرية ذاتها.

١- كيف تصور النظرية الواقع الاجتماعى بشكل عام ؟

هل تؤكد أن أساس هذا الواقع مثالى (القيم والأفكار والمعتقدات الخ) أم تؤكد أن أساسه مادى (كيفية إنتاج أفراد المجتمع لمستلزمات معيشتهم وكيفية توزيع عائد هذا الإنتاج ونوعية العلاقات المترتبة على ذلك)؟

- هل تؤكد أن الواقع الاجتماعى فى حالة ثبات وتوازن، أم تؤكد أنه فى حالة صيرورة وتغير دائمين؟
- هل تؤكد أن التغير ضرورى لاستمرار المجتمع أم تؤكد أنه مخل ببقاء المجتمع ومهدد لاستمراريته؟
- هل تؤكد أن المجتمع تسوده دائما أو يجب أن تسوده حالة من التكامل والاتفاق الاجتماعى بين أفراده بغض النظر عما بينهم من اختلافات وبغض النظر عن طبيعة النظام الاجتماعى الاقتصادى أم أن هناك فيه حالة من الصراع بين المجموعات لاختلاف مصالح كل منها داخل النظم الاجتماعية التى تخلق التفاوت بين المجموعات.
- هل تؤكد على أن وحدة دراسة الواقع الاجتماعى هى الفرد أم المجموعة أم المجتمع الكبير؟

٢- كيف تصور النظرية طبيعة الإنسان :

- هل تصور الإنسان على أنه قادر دائما على تغيير واقعة الاجتماعى أم تصوره على أنه محكوم بهذا الواقع وليس عليه إلا أن يتلاءم معه.

- هل تصور الإنسان على أنه كائن منطقى عقلانى أم على أنه غير عقلانى؟

- هل تصور الإنسان على أنه أنانى بطبعه أم على أنه اجتماعى؟

٣- كيف تصور النظرية علاقة العالم بالظاهرات الاجتماعية التى يدرسها؟

- هل تسلم بأن العالم جزء من الظاهرات التى يدرسها يؤثر فيها ويتأثر بها فى نفس الوقت أم تسلم بأنه منعزل عنها.

- هل تسلم بأن هدف العلم الاجتماعى دراسة الظاهرة من أجل تغييرها وتطويرها أم من أجل الإبقاء عليها والحفاظ على وضعها؟

٤- ما مدى الشمول فى النظرية؟

- هل تقدم تصورا عاما عن المجتمع الإنسانى بأسره؟

- هل تقدم تصورا عاما عن نوع معين من المجتمعات؟

- هل تقتصر على تقديم تصور عن أنواع معينة من الظاهرات؟

٥- ما هى نوعية المتغيرات التى تعتمد عليها النظرية فى تفسير الظاهرات الاجتماعية المختلفة؟

- هل هى متغيرات تاريخية؟

- هل هى متغيرات مادية (اقتصادية مثلا).

- هل هى متغيرات مثالية (الأفكار والقيم).

- هل هى متغيرات جغرافية وطبيعية؟

٦- هل تميز النظرية بين القوانين العامة (أو الأحكام العامة) التى تنطبق على المجتمع الإنسانى ككل وبين القوانين النوعية التى تنطبق على كل نوع من أنواع المجتمعات وكل مرحلة من مراحل تطورها أم تقوم بالتعميم من نوع واحد على الإنسانية ككل؟

٧- ما المضمون الايديولوجى للنظرية؟

- ما النظام الاجتماعى الاقتصادى الذى تصوره النظرية على أنه النظام الأمثل للبشرية؟
- ما المجموعات الاجتماعية التى تدافع النظرية بطريقة صريحة أو ضمنية عن مصالحها؟
- ما المجموعات التى تؤكد النظرية أنها صاحبة الحق فى السيطرة على المجتمع.
- ما الجوانب التى تبرزها النظرية وما الجوانب التى تتغافل عنها أو تتجاهلها فى الحياة الاجتماعية.
- ما موقف صاحب النظرية السياسى وما الأدلة على انتماءاته وولاءاته الاجتماعية؟

٨- ما الأدلة الواقعية على صدق المسلمات والاستنتاجات التى تتضمنها النظرية؟

- هل هناك أدلة تاريخية على صدقها وما هى؟
- هل هناك أدلة من علوم أخرى تؤكدها؟
- هل اتبع المنهج العلمى فى الوصول إلى هذه الأدلة؟
- هل تدعونا النظرية للتفتيش عن الأدلة ومناقشتها أم تقدم لنا أفكارا باعتبارها حقائق لا تقبل المناقشة؟
- هل الأدلة التى تقدمها النظرية على صدق مقولة ما كافيه وهل توجد أدلة مناقضة؟

٩- ما الإجراءات العملية التى تشير إليها النظرية إذا استرشدنا بها فى التطبيق أو فى رسم السياسات الاجتماعية؟ هل تشير علينا بالحفاظ على الوضع القائم فى المجتمع وعلى نوعية العلاقات القائمة بين المجموعات

الاجتماعية فى المجتمع الواحد وبين المجتمعات (المتقدمة والمتخلفة مثلا) دون إحداث تغييرات فى البناء الاجتماعى أم تدعونا إلى تغيير هذا الواقع وتطويره؟ هل تدعونا إلى أن نرسم سياساتنا الاجتماعية بحيث نعمل على جعل الإنسان يتكيف ويتلاءم مع الواقع الذى تصوره على أنه ثابت، أم تدعونا إلى تغيير الواقع ليتلاءم مع الواقع الذى تصوره على أنه ثابت، أم تدعونا إلى تغيير الواقع ليتلاءم وحاجات الإنسان. بعبارة أخرى هل الإجراءات التى تدعونا إليها النظرية ذات طبيعة محافظة Conservative أى تهدف إلى إبقاء الوضع على ما هو عليه أم هى إصلاحية ليبرالية Liberal تدعونا إلى إحداث تغييرات ثانوية طفيفة أم أنها ثورية هدفها خلق أوضاع جديدة تماما ومتطورة؟

إن إجابتنا على هذه التساؤلات بعد استيعابنا لأى نظرية اجتماعية ندرسها هى التى تساعدنا على اتخاذ موقف محدد منها، وفى رأينا أن هذه التساؤلات تمثل المعايير العلمية، وقد أثارها علماء اجتماع يتصفون بسعة الأفق والقدرة على التفكير النقدى الإيجابى وساعدتهم على أن يقدموا إسهامات مفيدة لعلم الاجتماع فحظوا بتقدير واحترام المشتغلين بهذا العلم، ومن أمثلة هؤلاء العلماء : "رايت ميلز، وجدعون جوبرج وألفن جولدنر وزايتلين وروبين بلاكبورن".

كلمة أخيرة أود أن أذكرها بهذا الصدد، أن دراستنا النظرية الاجتماعية بصفة خاصة ولعلم الاجتماع بصفة عامة يجب أن تكون موجهه بهدف أساسى هو مستقبل مجتمعنا، فهل الإجراءات العملية التى تشير إليها النظرية الاجتماعية تدعونا إلى تغيير واقع هذا المجتمع وتطويره للحاق بركب التقدم أم أنها تصرف انتباهنا عن الهدف وتكرس حالة التخلف والتبعية التى تعانى منها مجتمعات العالم الثالث. هل النظرية الاجتماعية إذا طبقنا عليها المعايير العلمية الصحيحة لتقييم نظرية علمية فلا أم أنها لا تزيد عن كونها سلاحا أيديولوجيا يتخفى وراء ستار العلم؟

هوامش الفصل الثالث :

١- انظر فى ذلك: مؤلف رايت ميلز (التصور السوسيولوجى) وبخاصة عند حديثه عن موقف دراسى النظريات الاجتماعية من نظرية تالكوت بارسونز.

٢- استخلصنا أسس تقييم النظرية الاجتماعية من دراستنا لمجموعة من المؤلفات لعدد من العلماء فى النظرية الاجتماعية ونقدها مثل :

- Wright Mills : Sociological Imagination.
- C. Sjoberg: Methodology in Social Research.
- Alvin Gouldner: The Coming Crisis of Western Sociology.
- D. Kolfax and J. Roach: Radical Sociology.
- Ian Taylor et al; Radical Criminology.
- G. Osipov: Sociology.
- V. Afansyev: Marxist philosophy.
- سى. ى. بربوف، نقد علم الاجتماع البورجوازى المعاصر.

انظر تفاصيل المراجع بقائمة المراجع آخر الكتاب.

الباب الثانى

النظريات الكلاسيكية ونقدها

الفصل الرابــع: أوجست كونت

الفصل الخـامس: أميل دوركايم

الفصل السادس: ماكس فيبر

الفصل السابــع: فلفريدو باريتو

الفصل الثامــن: كارل ماركس

الفصل الرابع

وضعية كونت وسكونية المجتمع

قليلون هم الذين مازالوا ينكرون أو ربما لا يعلمون الموقف السياسى لأوجست كونت وتحيزاته الطبقية الأيديولوجية وارتباط ذلك الموقف الأيديولوجى له بما صاغه من نظرية عامة عن المجتمع الإنسانى. ولكن كثيرين هم الذين مازالوا غير قادرين على إدراك أن أفكار كونت الايديولوجية التى ألبسها لباس العلم الاجتماعى مازالت هى ذاتها التى تشكل لب وجوهر علم الاجتماع التقليدى فى الغرب مهما اتخذت من أساليب وصور نظرية متنوعة قد تبدو للنظرة السطحية مغايرة لأفكار كونت. وسوف نحاول فى هذا الفصل إبراز موقف كونت الايديولوجى وانعكاساته على نظريته بما تضمنته من مسلمات أساسية وما تشير علينا به من إجراءات تطبيقية؟ ثم نكشف فى الفصول التالية عن تطابق مسلمات كونت النظرية مع مسلمات غيره من علماء الاجتماع الكلاسيكيين ومع مسلمات علماء الاجتماع التقليديين المحدثين فى الغرب.

الموقف الأيديولوجى لأوجست كونت:

إن كل من تعرض من المؤلفين فى النظرية الاجتماعية لأوجست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧) لم يستطع، حتى ولو أراد، أن يتجنب الإشارة لموقف كونت الايديولوجى، ذلك أنه كان من الصراحة والوضوح بحيث لم تخل أى من كتاباته من دليل عليه.

إن اهتمام كونت بالنظرية الاجتماعية، بل أن اختراعه اسم "علم الاجتماع" قد نبع من دوافع سياسية أكثر منها علمية أو فكرية بحتة. وفى ذلك يقول نيقولا تيماشيف :

"لقد روع كونت بالآثار الهدامة للثورة الفرنسية، شأنه فى ذلك شأن كثير من فلاسفة هذه المرحلة، وبخاصة الفلاسفة الاجتماعيين أمثال بونال وجوزيف دى ميستر، كما روعته الفوضى التى ترتبت على تقويض الجماعات الاجتماعية الوسيطة بين الأسرة والدولة بالقوة، ولذلك كان إصلاح المجتمع هو شغل كونت الشاغل منذ البداية، وكان ذلك هو الهدف الرئيسى فى حياته. ولما كان العلم الجديد بذلك غير متاح وغير قائم، فقد كرس جهوده لخلقه"[1].

علم الاجتماع إذن كان بالنسبة لكونت هو الركيزة التى يجب تطويرها والاعتماد عليها لإصلاح المجتمع، ففى أى اتجاه كان كونت يريد الإصلاح وما دور علم الاجتماع فى ذلك؟ يمكننا أن نستدل على نوايا كونت من خطاب كتبه إلى نيقولا قيصر روسيا قال فيه :

"إن الثورة الجماعية للمفكرين المحدثين ضد كل أشكال السلطة السابقة قد خلقت بالتدريج لدى كل فرد ميلا معتاداً لعصيان العقل والقلب مما يؤدى إلى القضاء على كل نظام إنسانى، وهكذا فإن الغرب بأسره يتجه نحو الشيوعية الهمجية التى تسحق فيها الحرية الحقيقية تحت وطأة المساواة المهينة والمخزية"[2].

وقد أرفق كونت بهذا الخطاب نسخة من كتابة "الفلسفة الوضعية" وأيد فى خطابه ديكتاتورية الحاكم وعبر عن اقتناعه بأن أسلوب الحكم الديكتاتورى هو المناسب للقيام بإصلاحات تنقل روسيا إلى المجتمع الوضعى.

ولم تكن الشيوعية التى يخشاها كونت هى مجرد النظام الاجتماعى الذى تنادى به الماركسية أو الفكر الاشتراكى ولكن كل شئ وكل فكر تحررى بورجوازى. فلسفة التنوير اعتبرت شيوعية ونظام الإصلاح المالى البورجوازى اعتبر شيوعياً ودفاع الشخص عن نفسه مستخدماً عصا إذا هوجم ببندقية نظر إليه على أنه من شرور الشيوعية، والنظام البرلمانى الديمقراطى نظر إليه على أنه مساواة مهينة ومخزية. لقد انضم كونت إلى زعماء الثورة المضادة للثورة الشعبية فى فرنسا وسخر نفسه فى خدمتهم.

لقد عارض كونت كما يقرر مؤرخ علم الاجتماع الأمريكى برنارد سترن Bernard Stern النظام البرلمانى وهلل للانقلاب الذى قاده الديكتاتور لويس بونابارت. وقد أعلن كونت سعادته بالنظام الديكتاتورى بقوله: "أن جمهوريتنا قد انتقلت من المرحلة البرلمانية التى لا تناسب إلا إنجلترا فى المرحلة الانتقالية التى تمر بها، إلى المرحلة الديكتاتورية، وهى التى تمثل النظام الأوحد المناسب لفرنسا مع العلم بأنه نظام مناسب أيضاً لغيرها من البلدان الكاثوليكية كما نرى فى أسبانيا. لقد تخلينا عن أوهام الدستورية وليس هناك من سبيل آخر للقضاء على الثورة سوى إقامة تحالف فعال بين النظام والتقدم"(٣).

ولم يكن كونت معادياً للاشتراكية والديمقراطية فحسب ولكنه كان أيضاً شديد العداء لأبسط حقوق العمال فى إقامة روابط أو نقابات أو منظمات سياسية تدافع عن حقوقهم وتحقق العدالة الاجتماعية، ودعا إلى إعادة البناء الروحى للطبقة العاملة Spiritual Construction حتى يمكن إعادة بناء المجتمع، ولذلك رأى أن التربية هى الوسيلة الأساسية للإصلاح الاجتماعى.

لقد أيد كونت إقامة النظم الديكتاتورية وقمع أى حركات راديكالية ولكنه قرر فى نفس الوقت أن التربية يجب أن تكون الوسيلة الأساسية لإصلاح المجتمع، فالاستمالة فى رأيه خير من العنف لأنه كان يدرك أن العنف من جانب السلطة سوف يولد عنفا لدى الجماهير وفى ذلك يقول كونت : " إن الهدف الجوهرى للسياسة العملية يجب أن يكون تجنب الثورات العنيفة التى تنشأ عن العقبات التى توجد فى طريق تقدم الحضارة واختزال هذه الثورات إلى مجرد حركات أخلاقية". ورسم كونت الطريق لتجنب الثورات العنيفة بقوله : "يجب أن نعرف بأكبر درجة من الدقة الاتجاه الفعلى للحضارة حتى نستطيع أن نجعل سلوكنا السياسى متفقا معه وحتى يمكن تجنب الصدام مع الطبقات الحاكمة ومنع أى خطر يمكن أن يلحق بنظام الملكية الخاصة".

وقد اتخذ كونت موقفاً عدائياً من الايديولوجيات الثلاث الرئيسية السائدة فى عصره وهى الليبرالية والاشتراكية والشيوعية، وبذل كل جهد للحد من انتشارها"فقد رفض منذ البداية الليبرالية الفلسفية بكل متضمناتها ومقتضياتها السياسية والاقتصادية رغم أن المظاهر الاقتصادية لهذه الحركة كانت تنادى بضرورة رفع القيود والحواجز المفروضة على الحياة الاقتصادية لإتاحة الفرصة لظهور الحوافز الفردية التى تساعد على النجاح. كذلك وقف موقف المعارضة السافرة الصريحة من الشيوعية التى كان يعتبرها ايديولوجية لا أخلاقية، ودخل فى حوار عنيف مع الاشتراكية انتهى به إلى رفضها لأنها تقف موقف العداء من المجتمع البورجوازى وتحاول تغييره عن طريق الثورة وليس عن طريق التوعية أو عن طريق التغيز التدريجى البطئ. وهذا معناه فى آخر الأمر أن أوجست كونت يرى أن المجتمع الإنسانى يعيش على التنظيم أكثر مما يعيش على الايديولوجيات وأن أفضل صورة للحياة الاقتصادية والسياسية هى بالتالى الرأسمالية وبالذات الرأسمالية الأوربية[٤].

وعلى الرغم من أن أوجست كونت قد دعا إلى إنشاء علم جديد لدراسة المجتمع أسماه علم الاجتماع إلا أنه كان طوال حياته وفى كل مؤلفاته رجل أخلاق وداعية ايديولوجية أكثر منه عالماً، بل أن بعض المؤلفين اعتبروه مدعياً للنبوة وأنه اعتبر نفسه نبياً للإنسانية يبشر بدين جديد هو الوضعية. وقد وصفه دانكان متيشل فى قاموس علم الاجتماع بقولة : "فيلسوف ورجل أخلاق وعالم اجتماع فرنسى"[٥]. وصور كونت علماء الاجتماع بصورة القساوسة أو قساوسة الدين الجديد للبشرية ووضع ترتيباً هرمياً لهم يشبه التدرج فى الكنيسة الرومانية، بل أنه تعدي هذا كله إلى حد تسمية أيام السنة بأسماء قديسين وضعيين.

ومن الثابت تماماً أن أفكار كونت النظرية التى حاول أن يصبغها بالصبغة العلمية لم تنفصل أبداً عن أفكاره العملية أو الإجراءات التى كان يريد أن تتبع فى المجتمع "لقد كانت النظرية ترتبط عنده دائماً أبداً بالفعل أو

بإجراءات اجتماعية، لقد كان، مثل غيره من أنبياء باريس، شخصاً ملتزماً تماماً يعرف جيداً ما يريد أن يكون عليه المستقبل ويرسم صورة هذا المستقبل بأكبر قدر ممكن من التفاصيل الدقيقة"(٦).

ومع هذا فإن علم اجتماع كونت أو ما أسماه علم الاجتماع الخالص Pure Sociology (!) هو الذى أصبح علم الاجتماع الأكاديمى أو علم الاجتماع السائد فى الجامعات فى أوربا الغربية والذى وصل إلى قمة تطوره التنظيمى فى الولايات المتحدة الأمريكية(٧). وسوف يتبين لنا عند عرضنا لأقوى الاتجاهات النظرية الحديثة فى علم الاجتماع، وبخاصة الوظيفية، التشابه الشديد بينها وبين أفكار كونت الأساسية.

ولكن كيف ترجم كونت آراءه السياسية وموقفه الايديولوجى المنحاز تماماً الديكتاتورية والرأسمالية المستبدة إلى نظرية اجتماعية يدعم بها هذه الآراء ويبرر بها النظام الذى ارتأى أنه أصلح نظام للبشرية؟

أولاً : المنهج والفلسفة الوضعية Positive philosophy :

أن أول من استخدم لفظ الوضعية هو هنرى كونت سان سيمون Henri Conte de Saint Simon وكان يعنى به استخدام الطريقة العلمية وتطبيقها على الفلسفة وقد تبنى أوجست كونت هذا اللفظ وصاغ حوله نظرية فلسفية اجتماعية عامة انتشرت على نطاق واسع في بلدان العالم الغربى خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشرين.

وقد رأى كونت أن الوضعية تمثل الأساس الذى يجب أن ترتكز عليه كل محاولات التنظيم الاجتماعى للقضاء على الفوضى الاجتماعية (التى تتمثل فى الحركات النقدية) التىكانت توجد فى أوربا فى عصره من وجهة نظره.

ولفظ الوضعية Positivism يعنى الإيجابية أو اتخاذ موقف إيجابى مما هو قائم فى المجتمع وليس موقفاً نقدياً أو رفضاً أو سلباً لهذه الأوضاع القائمة كما يفعل المفكرون النقديون. وهنا نرى أو ترجمة لايديولوجية كونت إلى مبادئ

نظرية. فهو بتبنيه الفلسفة الوضعية الإيجابيــة قد اقر مبدأ النظر إلى الواقـع الاجتماعي القائم نظرة إيجابية وقبوله على ما هو عليه واستبعد منذ البداية أى محاولة لنقده أو لتغييره. وهذا الواقع هو التنظيم الاجتماعي الرأسمالي القائم على الملكية الخاصة وعلى الحكم المطلق(٨).

وقد رفض كونت أن ترتبط النظرية الاجتماعية بأى فلسفة نقدية أو سلبية، كما رفض أن يولى أى اهتمام للاقتصاد السياسي كأساس لفهم المجتمع، ورأى أن أى معارضة للحقائق الاجتماعية الواقعة يجب أن تمحى من المناقشة الفلسفية. وقد خالف كونت فلاسفة عصر التنوير الفرنسيين الذين كانوا يقيسون العمل الإنساني أو الفاعلية الإنسانية بمقياس حقيقة تعلو على النظام الاجتماعي القائم أى بتنظيم اجتماعي لا يوجد بوصفه واقعا بل يوجد بوصفه هدفا والذين رأوا أن الناس يمكنهم تغيير أشكال الحياة الحالية التى يعيشون عليها. وبدلاً من ذلك رأى كونت أن النظام الاجتماعي القائم هو وحده الذى يمثل الحقيقة وأن وظيفة علمه الجديد هى مجرد تسجيل حقائق هذا النظـام وبذلك كانت نظرية كونت الوضعية منذ نشأتها دفاعا ايديولوجيا عن مجتمع الطبقة البورجوازية كما كانت تحمل بذور تبرير فلسفي للنزعة التسلطية وعودة لإلغاء العقل والتشهير به(٩) وأكد كونت بفلسفته الوضعيـة فكرة عجز الإنسان عن تغيير عالمه الاجتماعي وذلك بسلب ملكة النقد عنده وجعله أسير الواقع الذى يعيشه وإصراره على حرمانه من إعمال عقلة وتصور واقع آخر مستقبلى يقيس عليه واقعه الحاضر.

ويرى هربرت ماركيوز الفيلسوف الأمريكى أن وضعية كونت تشترك مع فلسفات الثورة المضادة لعصر التنوير فى عنصر أساسى هو رفض القول بأن الإنسان قادر على تغيير نظمه الاجتماعية وإعادة تشكيلها وفقاً لإرادته العاقلة. ومن أبرز فلاسفة الثورة المضادة بونال Bonaled وديمستر De Maistre. فقد أراد بونال أن يثبت أن الإنسان لا يستطيع أن

يضفى تركيبا معينا على المجتمع الدينى أو السياسى، تماما كما لا يستطيع أن يعطى الجسم وزنا أو المادة امتداداً ورأى أن تدخل الإنسان لا يؤدى إلا إلى منع المجتمع من بلوغ تركيبه الطبيعى. كما أراد ديمستر أن يبين أن العقل الإنسانى لا يزيد سعادة الدول أو الأفراد شيئاً وأن هذا العقل لا جدوى منه على الإطلاق ومن الواجب قمع أى روح ثورية بنشر تعاليم أخرى تقول أن للمجتمع نظاماً طبيعياً ثابتاً ينبغى أن تخضع له إرادة الإنسان(١٠).

لقد روج كونت فى فلسفته الوضعية لفكرة القوانين الثابتة التى تحكم الظاهرات الاجتماعية تماما مثلما تحكم الظاهرات الطبيعية والبيولوجية.

ونحن نؤكد على حقيقة أن وظيفة الفلسفة بوجه عام هى الكشف عن القوانين العامة والثابتة نسبيا التى تحكم الكون وأن وظيفة العلم الاجتماعى هى الكشف عن القوانين العامة والثابتة نسبياً التى تحكم المجتمع.

ولكننا فى نفس الوقت نرى أن كونت قد خلط عن قصد بين ثبات القوانين والظاهرات التى تحكمها القوانين وقدم مفهوماً غير علمى على الإطلاق للقانون. فالقانون العلمى فى أساسه قاعدة للتغير وليس للثبات فى الظاهرة التى يتناولها. ولولا تغير الظاهرات لما كانت هناك بنا حاجة لأى قوانين. فقانون تمدد المعادن مثلاً قانون ثابت، ولكن ليس معنى ذلك أن حالة المعادن ثابتة، وهذا القانون ليس سوى قاعدة لكيفية تغير حالة المعادن بتغير الظروف التى تؤثر عليها (مثل درجة الحرارة). والحقيقة أن هذا القانون هو وسيلتنا فى التحكم والسيطرة على الظاهرة التى يحكمها وتغييرها وفقا لإرادة الإنسان. أما كونت فقد استغل إعجاب الناس بالقوانين العلمية لكى يدعى أن هناك قوانين ثابتة للمجتمع مما يعنى أن المجتمع ثابت وبالتالى ليس علينا إلا الاستسلام للواقع الذى نعيشه مهما كنا غير راضين عنه، وبدلاً من أن نغير منه علينا أن نغير من أنفسنا لنتلاءم معه، وهذا التغير يمكن أن يحدث عن طريق التربية الأخلاقية. وبذلك خرج كونت كلية على الروح العلمية التى

ادعى أنه يدعو إليها، بل أن الأمر وصل به فى أواخر أيامه إلى اللاعقلانية الكاملة الميتافيزيقية وإلى أن تتحول فلسفة كونت الوضعية إلى مذهب دينى يشتمل على عبادة واسعة النطاق لأسماء ورموز وعلامات.

وقد ذكر كونت فى مؤلفيه الأساسيين، دروس فى الفلسفة الوضعية (١٨٣٠ - ١٨٤٢) ومذهب فى السياسة الوضعية (١٨٥١- ١٨٥٤) صراحة وفى أكثر من موضع أن فلسفته الوضعية هى السلاح الوحيد القادر على محاربة القوة الفوضوية وهى وحدها التى يمكن أن تنجح فى امتصاص النظرية الثورية الشائعة. "والحق أنه ندر أن تجد فى الماضى فلسفة تطالب بمثل هذا الإلحاح وبمثل هذه الصراحة بأن تستخدم فى حفظ السلطة القائمة، وحماية المصالح الموجودة من كل هجوم ثورى"(١١).

إن فلسفة كونت الوضعية التى أقام عليها علم اجتماعه كانت شديدة الوضوح فى دفاعها عن الوضع الاجتماعى القائم وفى تبريرها لمشروعات سيطرة القوى الاجتماعية الرأسمالية على المجتمع، وربما كان هذا سببا من أهم الأسباب التى أدت بالعلماء الاجتماعيين فيما بعد إلى التخلى عنها وتقديم صورة بديلة لها تعتمد على نفس مسلماتها ولكن تخفى الارتباطات القوية بين النواحى الايديولوجية والنواحى المنهجية منها وهذا ما نشاهده فيما يعرف بالاتجاه الأمبريقى الحديث فى علم الاجتماع - ذلك الاتجاه الذى يزعم أصحابه أنهم محايدون تماما من الناحية الايديولوجية ولكنهم فى نفس الوقت يتبعون مبادئ كونت فى دراستهم للمجتمع وأهمها التأكيد على الأهمية القصوى لملاحظة الوقائع وتسجيلها والابتعاد عن التأمل والتفكير فيها. "وقد أراد كونت من إحلاله الملاحظة محل التأمل تأكيد النظام بدلا من الخروج عليه وهو بذلك قد نقل مصدر اليقين من الذات المفكرة إلى الذات المدركة حسيا وفى هذا المجال تمدنا الملاحظة العلمية باليقين، وتتراجع الوظائف التلقائية للفكر، على حين أن وظائفه السلبية تصبح لها مكانة الصدارة(١٢).

وفلسفة كونت الوضعية بإلغائها للذات المفكرة ودعوتها المنهجية إلى أن يكون موضوع الفلسفة والعلم الاجتماعى هو الواقع القائم بحيث يصبح مجال الملاحظة الحسية يتنافى فى رأينا تماما مع كل دروس التاريخ ومبادئ العلم، فالحضارة الإنسانية بأسرها ما كانت لتتقدم وتتطور لولا اعتماد الإنسان على ذاته المفكرة القادرة على تصور مستقبل أو وضع آت لا وجود له بعد والسعى إلى تغيير الواقع القائم ليتطابق مع الصورة المستقبلية. لقد تصور الإنسان مثلا أنه قادر على تحدى الجاذبية الأرضية والتحليق فى الفضاء كالطيور فى وقت لم يكن يمكنه فيه ذلك. وظل هذا الحلم يراوده وظل يبحث ويدرس ويجرب حتى استطاع أن يحيله إلى واقع فعلى، وتصور الإنسان أنه قادر على بلوغ القمر حتى حول هذا الحلم إلى واقع، ولو أن الإنسان قد ظل أسير ملاحظاته الحسية لوقائع الطبيعة ولم يتخيل واقعا آخر مغايرا له، أى لو لم يكن لديه مقياس آخر يقيس عليه واقعه لما حقق أى تقدم علمى أو حضارى بل لأنقرض الجنس البشرى مثلما انقرضت حيوانات أخرى كثيرة لا تملك القدرة على التصور والتخيل. وما حدث بالنسبة للواقع الطبيعى حدث أيضا بالنسبة للواقع الاجتماعى. إن النظام الاجتماعى الذى يدافع كونت عنه ويطالب العلم بالاقتصار على دراسته وملاحظته ويحرم على المفكرين تصور نظام آخر غيره هو نفسه قد جاء نتيجة تصوره قبل أن يكون له وجود ونتيجة كفاح مرير وتضحيات بالغة من أجل تحقيقه، فلماذا إذن تتوقف قدرة العلم والإنسان على تصور المستقبل وعلى تغيير الواقع عنده؟ لقد اصبح من الثابت أن أوجست كونت وغيره من الوضعيين قد أرادوا للإنسان ذلك لأنهم (كانوا يريدون أن تظل السيادة فى المجتمع للرأسمالية الصناعية ولذلك فإنهم وضعوا فلسفتهم أو علمهم في خدمتها ورأوا أن الوظيفة الأساسية للمعرفة العلمية هى المساعدة على تطوير الرأسمالية الصناعية والحفاظ على نظام الملكية الخاصة"[١٣].

ثانيا : علم اجتماع كونت وسكونية المجتمع :

حدد أوجست كونت موضوع علم الاجتماع "أو الفيزياء الاجتماعية، كما كان يسميه من قبل بأنه دراسة الظواهر الاجتماعية بنفس الأسلوب الذى تدرس به الظواهر الفلكية والطبيعية والبيولوجية على اعتبار أن هذه الظواهر تخضع كلها لقوانين طبيعية ثابتة، ولكن الظواهر الاجتماعية عند كونت لم تكن تعدو الظواهر الفكرية أو العقلية فى المجتمع. وعرف علم الاجتماع فى مؤلفه "الفلسفة الوضعية" بأنه دراسة ظواهر العقل الإنسانى والأفعال الإنسانية الناتجة عنه. وبذلك أخرج كونت الواقع المادى الاجتماعى من نطاق دراسة علم الاجتماع، والأفكار بالنسبة لكونت هى التى تحكم العالم وتجعله منظما أو هى التى تحيله إلى حالة من الفوضى والحالة الفكرية هى التى توجه وتحدد كل ما عداها من صور الحياة الاجتماعية. ورأى كونت أن جوهر العملية التاريخية هو تطور الفكر. وبناء على ذلك قدم ما أسماه بقانون المراحل الثلاث The law of the three Stages.[١٤] ومؤدى هذا القانون أن العقل الإنسانى يمر بمراحل ثلاث : المرحلة الأولى وهى ما أسماها بالمرحلة اللاهوتية Theological وهى تلك التى يفسر فيها العقل الظاهرات عن طريق نسبتها إلى قوى أو كائنات غير منظورة لها خصائص الإنسان. والمرحلة الثانية هى ما أسماها بالمرحلة الميتافيزيقية Metaphysical وهى تلك التى يفسر فيها العقل الظاهرات عن طريق قوى مجردة مثل الطبيعة. والمرحلة الثالثة هى ما أسماها بالمرحلة الوضعية Positive وهى التى يقنع فيها الإنسان بملاحظة الظاهرات واستخلاص الروابط التى توجد بين بعضها سواء فى وقت معين أو مع مرور الوقت.

وقد أقام كونت مجموعة من الارتباطات بين المراحل العقلية الأساسية ومراحل تقدم الحياة المادية للإنسان ونموها، وأشكال الوحدات الاجتماعية،

أنماط النظام الاجتماعى، والمشاعر الغالبة أو السائدة، ويمكن وضع هذه لارتباطات على النحو التالى[١٥].

	المرحلة العقلية	المرحلة المادية	نموذج الوحدات الاجتماعية	نموذج النظام	نموذج المشاعر
١	اللاهوتية	العسكرية	الأسرة	منزلى	المحبة والانتماء
٢	الميتافيزيقية	التشريعية	الدولة	جمعى	الاحترام والتوقير
٣	الوضعية	الصناعية	الإنسانية	عالمى	الإحسان والخير

وهكذا نرى أن افتراض كونت عن طبيعة الواقع الاجتماعى افتراض ثالى Idealist بمعنى أنه يرى أن الفكرة أو الحالة العقلية هى التى تحدد ما ذاها من كافة صور الحياة الاجتماعية، فالفكر اللاهوتى يجعل النظام سكرى هو السائد ويجعل من الأسرة نموذجا للوحدة الاجتماعية ويحدد عية المشاعر وإذا تأملنا الجدول السابق لوجدنا أنه يخلو تماما من أى إشارة طبيعة الحياة الاجتماعية الإنتاجية كما وجدنا خلطا كبيرا فى المفهومات. لمرحلة الصناعية التى صاحبت الوضعية سبقتها مرحلة تشريعية ومرحلة سكرية، وكان كونت يجعل من المرحلة الصناعية أيضا مرحلة إنتاجية بينما يبين ارتباط المرحلة التشريعية أو العسكرية بأى نوع من أنواع النشاط تاجى.

والمرحلة الوضعية عند كونت هى نهاية المطاف فى تاريخ البشرية هى تتصف بكل ما هو خير وجميل ففيها العلم والصناعة والإنسانية والعالمية الإحسان والخير ولا يخفى هنا أيضا تقدير كونت للماضى الذى كان يتصف لاحترام والتوقير والمحبة والإنتماء.

لقد تحول تاريخ البشرية جمعاء عند كونت إلى تاريخ أفكار ومشاعر أصيب هذا التاريخ بالجمود والتوقف عند القرن التاسع عشر ولم يعد أمام

الإنسانية هدف تصبو إليه إلا المحافظة على ما وصلت إليه والتحسين منه، فليس فى الإمكان أبدع مما كان.

وقد سلم كونت بأن مجتمعات البشرية لم تسر فى نفس هذا الخط من التقدم بنفس الدرجة ولكن حدث تفاوت فيما بينها فى بلوغ المرحلة الوضعية أو الصناعية والدول الأوربية هى التى وصلت إلى هذه المرحلة، وفسر ذلك تفسيرا عنصريا إذ أنه قد أفترض أن الأجناس البشرية تتفاوت فيما بينها من الناحية العقلية وأن الجنس الأبيض هو أرقاها ولهذا فقد سبق غيره من الأجناس فى الوصول إلى المرحلة الوضعية.

"ولقد كان تفسير كونت للتاريخ على أساس مضاد للمادية عاملا على تيسير مهمته. فهو قد احتفظ بفكرة عصر التنوير القائلة بأن التقدم هو قبل كل شئ تقدم عقلى، وهو النمو المستمر للمعرفة الوضعية، غير أنه أفرغ فكرة عصر التنوير هذه من مضمونها المادى بقدر ما استطاع، وبذلك التزم بالوعد الذى قطعة على نفسه، وهو أن يستعيض بحركة عقلية ضخمة عن القلاقل السياسية العقيمة .. ففكرة التقدم عند كونت تستبعد الثورة، والتغيير الكلى لنسق الظروف الموجودة، ولا يعدو النمو التاريخى إلا تطورا متوافقا للنظام الاجتماعى فى ظل قوانين طبيعية ثابتة"[١٠].

وقد أطلق كونت على دراسته لتتابع هذه المرحلة التاريخية تسمية الديناميكا الاجتماعية أو علم الاجتماع الديناميكى فى مقابل علم الاجتماع الاستاتيكى أو السكونى الذى يدرس قوانين النظام فى المجتمع وشروط وجود المجتمع. وهذان العلمان يشكلان سويا علم الاجتماع عند كونت ولا انفصال بينهما. وهكذا يبدو أن كونت يهدف إلى دراسة كل قوانين الحركة والسكون فى المجتمع. ولكن الحقيقة أن الدراسة الديناميكية عند كونت هى الأخرى دراسة للثبات والسكون. وهنا تتضح مسلمة أخرى أو افتراض آخر عن تصور كونت لطبيعة الواقع الاجتماعى هى مسلمة الثبات فى مقابل التغير.

وتتكشف حقيقة أن الدراسة الديناميكية للمجتمع عند كونت إنما هى دراسة للثبات والسكون من حديثه عن العلاقة بين الديناميكا والاستاتيكية الاجتماعية. وفى ذلك يقول هربرت ماركيوز:

"أن علم الاجتماع عند كونت هو فى أساسه دراسة سكونية للمجتمع" وذلك نتيجة لسيادة تصور النظام، ولكنه أيضا دراسة حركية أو ديناميكية للمجتمع بفضل وجود تصور التقدم. وقد شرح كونت العلاقة بن التصورين الأساسيين مرات كثيرة. فالنظام هو الشرط الأساسى للتقدم وكل تقدم يتجه آخر الأمر إلى دعم النظام .. إن التقدم فى حد ذاته نظام، يعنى أنه ليس ثورة بل تطور[١٧].

ومجال النظام الاجتماعى هو الإستاتيكا الاجتماعية أو السكون الاجتماعى Social Statics وقد صور كونت المجتمع على أنه كل عضوى يمكن تحليله إلى ثلاثة عناصر : الفرد والأسرة والمجتمع وقد تأثر كونت عند دراسته للفرد بعلم الفراسة Phrenology (ذلك العلم الزائف الذى يقوم على التسليم بأن خصائص الناس يمكن التعرف عليها من ملامحهم) وتبنى مفهوم عالم الفراسة جال Gaal عن أن السلوك الاجتماعى محتوم بيولوجيا وبالتالى فهو وراثى، أن كل جنس من الأجناس البشرية يتصرف طبقا لتركيبه البيولوجى (لاحظ هنا افتراض كونت الأساسى عن طبيعة الإنسان من حيث أنها ثابتة لا تتغير لأنها محتومة بيولوجيا ولاحظ أيضا ما بهذا الافتراض من عنصرية). وبناء على ذلك رأى كونت أن جوهر المجتمع هو الطبيعة البشرية محتومة بيولوجيا (أى الثابتة).

وافترض كونت أن الأسرة هى الوحدة الاجتماعية الأساسية وأن كل الأشكال الاجتماعية الأخرى كالقبائل أو الأمم، تنشأ عنها. ورأى أن الجنس البشرى بأسره إنما يمكن النظر إليه على أنه تطور تدريجى لأسرة واحدة. ولا يجب أن تفوتنا هنا الطبيعة المحافظة لهذا الافتراض، فالأسرة عند كونت وعند

غيره من المحافظين هى مؤسسة للضبط الاجتماعى نشأت أساسا لإشباع غريزة بيولوجية هى الجنس بشكل منظم وحسب قواعد معينة. وارتبطت نظرة كونت المحافظة للطبيعة الإنسانية بوجه عام بنظريته المحافظة أيضا إلى المرأة، فعبر عن اعتقاده بأن الأسرة فى عصره قد أصيبت بالتدهور وتمنى أن يشهد المستقبل أسرا تقوم على الدونية الطبيعية للمرأة، فبهذه الكيفية فقط يمكن الحفاظ على المرأة فى حالة من الطفولة الأبدية"(١٨).

أما وحدة التحليل الحقيقية فى علم اجتماع كونت فهى المجتمع والمجتمع أعلى من الفرد، والمجتمع يضم كل الأجناس البشرية وبخاصة الجنس الأبيض. ويعتمد بناء المجتمع وتعقده وتكامله على تقسيم العمل (وهو الخاصية المميزة للمجتمع الرأسمالى موضوع اهتمام كونت). ولكن نظرا لأن تقسيم العمل هذا عندما يتزايد يصبح نقطة ضعف فى المجتمع بدلا من أن يكون مصدرا لقوته فلابد من الحفاظ على فكرة الكل الواحد أى الشعور بالترابط العام بين أجزائه. وأهم الخصائص التى يمكن أن تحقق ذلك فى المجتمع الخاصية الأساسية به المتعلقة بالخضوع للحكومة. فلابد أن يخضع الفرد لمن هم أعلى منه. وهذا الخضوع هو أساس الميل الطبيعى نحو الحكومة التى وجدت بفعل صلاحية بعض الناس بحكم تكوينهم الطبيعى للحكم والسيطرة. وقد أعجب كونت أشد الإعجاب بنظام الطبقات المغلقة فى الهند لأنها كانت تمثل بالنسبة له النموذج الأمثل للنظام(١٩).

هنا تتضح مسلمة أساسية أخرى عند كونت هى مسلمة عجز الإنسان عن تغيير عالمه الاجتماعى وضرورة استسلامه لهذا الواقع. فطالما أن الطبيعة البيولوجية هى التى تحدد خصائص الفرد، وطالما أن الأسرة ترتبط بهذه الطبيعة البيولوجية، وبما أن المجتمع الإنسانى كله تطور عن الأسرة إذن فالمجتمع شئ ثابت جامد يخضع لقوانين بيولوجية وهو أقوى من الفرد وليس على الفرد إلا الاستسلام له، أى الاستسلام الكامل للسلطة لأنها المهيأة

بيولوجيا للحكم. ولا يجب أن يفوتنا هنا خطورة ما رتبه كونت على ذلك من استنتاجات عن الشعوب. فالجنس الأبيض مهيأ بيولوجيا أيضا للسيادة وللحكم وعلى بقية الأجناس أن تخضع له. إن تسليمنا بافتراضات كونت الأساسية عن الطبيعة الإنسانية وعن طبيعة الحياة الاجتماعية دون مناقشة وتحليل لابد أن يقودنا إلى التسليم باستنتاجاته عن طبيعة الشعوب وبالتالى إلى الاستسلام للاستعمار بأشكاله المختلفة والتبعية له. والواقع أن معظم النظريات الاجتماعية المعاصرة فى الغرب مستمدة من أفكار كونت وفلسفته الوضعية ومن المؤسف أن كثيرا من علماء الاجتماع فى بلدان العالم الثالث بما فى ذلك العربى لا يدققون بما فيه الكفاية فى مضمونها الايديولوجى وافتراضاتها الأساسية مما يجعلهم يروجون لها فيقعون، ربما عن غير قصد، فى حبائلها الايديولوجية ويساعدون على تدعيم وتثبيت التخلف والتبعية فى بلادنا.

والديناميكا الاجتماعية عند كونت كما سبق أن ذكرنا تتحول فى نهاية الأمر إلى سكون أو ثبات. ومثلما أفرغ كونت الحياة الاجتماعية من مضمونها المادى واختزلها إلى مجرد حالات فكرية تنبع من استعدادات بيولوجية أفرغ مفهوم التغير والتقدم من مضمونه الثورى الذى أكتسبه فى فلسفة التنوير النقدية واختزله إلى مجرد عملية نمو حتمى آلى لا دخل للإنسان فيه. فالبشرية قد انتقلت من المرحلة اللاهوتية إلى الميتافيزيقية حتى الوضعية (الرأسمالية الصناعية العلمية) وهذه الأخيرة ستنمو نموا طبيعيا إذا قمنا بحمايتها من الثورات ومن الفكر التخريبى النقدى وإذا عملنا على استقرار النظام وعلى نشر مبادئ الاستسلام والطاعة بين الناس. وفى ذلك يقول كونت.

"ما أجمل أن نطيع عندما يمكننا الاستمتاع .. بالسعادة التى يجلبها إعفاء القادة الحكماء الجديرين لنا من المسئولية الملحة المتعلقة بالبحث عن اتجاه عام لسلوكنا"(٢٠).

ويعلق ماركيوز على ذلك بقوله أن السعادة بهذا المعنى أى بمعنى الاحتماء بذراع قوية هى من أخص مميزات المجتمعات الفاشية فى وقتنا الحالى.

أن أهمية أوجست كونت لنا فى دراستنا للنظرية الاجتماعية لا ترجع إلى الناحية التاريخية من اهتمامنا فى هذه الدراسة بقدر ما ترجع إلى حقيقة أن أفكاره وافتراضاته الأساسية مازالت تمثل المنبع الرئيسى لمعظم تيارات علم الاجتماع المعاصر، على الرغم من أن كثيرا من علماء الاجتماع المعاصرين يقللون من أهميته الآن ومن أن منهم من لا يشير إليه بل ويعتبر أن دوركايم هو المؤسس الحقيقى لعلم الاجتماع وليس كونت ويرجع ذلك فى رأينا إلى أن الارتباط بين مبادئ كونت المنهجية والنظرية من جهة وبين مبادئه الايديولوجية كان سافرا ومفضوحا بدرجة كبيرة جعلت المحافظين المحدثين ينفرون منه ويستبدلون نظريته بأخرى يختفى فيها هذا الارتباط، كما أن طبيعة تطور المجتمع الغربى منذ أيام كونت قد تطلب هذا التعديل فى التعبير عن افتراضات كونت الأساسية بحيث توضع فى صيغة يمكن أن تكون أكثر تقبلا من الناس تماما مثلما اضطر الاستعمار إلى إجراء تعديلات فى صورته التقليدية (الاستعمار العسكرى) واستبدال بها صورا أخرى أكثر خفاء وأكثر تقبلا (السيطرة الاقتصادية والسياسية والفكرية).

هوامش الفصل الرابع :

١- نيقولا تيماشيف: مرجع سبق ذكره، ص٢٥

٢- Stern, Bernard. J. Histortcal Sociology (New York), Citadel Press, 1959), p.196.

٣- Stern, Ibid, p.197.

٤- أحمد أبو زيد: العلوم الإنسانية والصراع الإيديولوجى، مجلة عالم الفكر، المجلد الثانى، العدد الثانى، ١٩٧١، ص٢٥٠.

٥- Duncan Michel; A Dictionary of Sociology Routledge and Kegan Paul, London, 1968.

٦- Robert W, Friedrichs: A Sociology of Sociology. The Free Press, New York, 1970, pp.79-81.

٧- Alvin Gouldner. The Coming Crisis of Western Sociology. Heinemann. London, 1971, p.III.

٨- Irving Zeitlen. Ideology and Development of Sociological Theory, Prentice-Hall, 1968, p.36

٩- هربرت ماركيوز، العقل والثروة، ترجمة: فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧٠، ص٣٢٧-٣٢٩.

١٠- المرجع السابق، ص٣٣٠.

١١- المرجع السابق، ص٣٣١.

١٢- المرجع السابق، ص٣٣٦.

١٣- Sherman and Julia Schwendinger. The sociologists of the Chair, Basic Books. New York, 1974.

١٤- Raymond Aron. Main Currents in Sociological Thought, Pengnin Books: england, 1965, p.65-68

١٥- نيقولا تيماشيف: نظرية علم الاجتماع، مرجع سبق ذكره، ص ٤٢٠.

١٦- هربرت ماركيوز: العقل والثورة، مرجع سابق، ص٣٣٧.

١٧- العقل والثورة، مرجع سابق، ص٣٣٦.

١٨- الفلسفة الوضعية نقلا عن :

Don Martindale. Nature and Types of Sociological Theory. Routledge and Kegan Paul, London, 1961, p.63.

١٩- Ibid, p.64.

٢٠- دروس فى الفلسفة الوضعية نقلا عن هربت ماركيوز، مرجع سبق ذكره، ص٣٣٦.

الفصل الخامس

اميل دوركايم والتضامن الاجتماعى

الموقف الايديولوجى لأميل ودوركايم :

فى بداية حديثنا عن اميل دوركايم (١٨٥٨ - ١٩١٧) يجب أن نذكر أنه احتل مكانة بارزة فى فرنسا فى أواخر القرن التاسع عشر وحتى وفاته فى عام ١٩١٧ سواء فى الأوساط الأكاديمية أو الإدارية أو السياسية كما يجب أن نذكر أيضاً أن نظرياته وآراءه عن المجتمع بصفة عامة وعن التربية والأخلاق والسياسة بصفة خاصة قد لقيت رواجاً كبيراً فى الأوساط البورجوازية والحكومية الفرنسية فى ذلك الوقت، فقد تولى أميل دوركايم رئاسة هيئة تحرير الحوليات السوسيولوجية Lanne Sciologique (أهم المجلات الاجتماعية فى فرنسا) منذ عام ١٨٩٨ حتى الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤، كما أنه قد شغل مركزاً هاماً جداً فى المؤسسات التربوية التى تسيطر عليها الدولة فى فرنسا وأدى به مركزه هذا إلى أن يتحكم إلى حد كبير فى اختيار العلماء والأساتذة الذين يعينون فى معاهد التعليم العالى(١).

ويجب أن نذكر أيضاً أنه على الرغم من أن اميل دوركايم كان على معرفة ودراية واسعة بالكتابات الاشتراكية التى ظهرت فى فرنسا بل وفى أوربا بصفة عامة منذ الثورة الصناعية إلا أنه قد اتخذ موقفاً محدداً وواضحاً من الأفكار الاشتراكية حيث هاجمها، وتعتبر أعماله ومؤلفاته جميعاً محاولة لتقديم بديل الاشتراكية بل أن علم الاجتماع الذى قدمه دوركايم كما يقول ريموند آرون ليس سوى بديلاً للاشتراكية(٢).

ويمكننا أن نستدل على موقف اميل دوركايم من كل من الفكر الرأسمالى البرجوازى والفكر الاشتراكى من مجموعة من المؤلفات التى نشرت بعد وفاته وكان قد ألقاها على شكل مجموعة من المحاضرات تدور

كلها حول فكرة الاشتراكية ومهاجمة المبادئ التى تنهض عليها. ومن هذه المقالات مقال بعنوان Le Socialism أو الاشتراكية ومقالة أخرى نشرت لأول مرة فى عام ١٩٥٠ بعنوان Lecons de Sociologic أى دروس فى علم الاجتماع. ولقد رفض دوركايم رفضاً قاطعاً فكرة إعادة توزيع الثروة أو تحقيق أى نوع من التكافؤ فى الملكية أو إلغاء الملكية الخاصة، ورأى أن سبب المشكلات فى المجتمع الحديث أى المجتمع الرأسمالى الذى كان يعيش فيه ليس سبباً اقتصادياً بقدر ما هو سبب أخلاقى، وبالتالى فإن الصراع بين العمال وبين أصحاب الأعمال ليس سوى دليلاً على تفكك المجتمع أو على حدوث حالة من اللامعيارية Anomie فى ذلك المجتمع، والذى يجب عمله هو مجرد تصحيح هذا الوضع ولا يتأتى ذلك إطلاقاً عن طريق إعادة توزيع الثروة أو تعديل النظام الاقتصادى ولكن ذلك يمكن أن يحدث من خلال تحقيق ما اسماه بالإجماع أو الاتفاق الجمعى consensus، ويمكن أن يتم ذلك عن طريق التربية.

وعارض دوركايم التفسير الماركسى للتاريخ على أساس أنه يمثل سلسلة أو حلقة من الصراعات الطبقية بين من يملكون وبين من لا يملكون. ويمكننا أن نلاحظ هنا وجه شبه كبير بين آراء دوركايم وآراء أوجست كونت. وفى مقابل دعوة أصحاب الفكر الاشتراكى إلى العدالة الاجتماعية وإلى تضامن الطبقات المغلوبة على أمرها والمقهورة وثورتها على الظلم الواقع عليها من الطبقات المستغلة، دعا أميل دوركايم إلى التضامن الاجتماعى أو التماسك الاجتماعى، فكان فيلسوف حركة سميت "بالتضامن الاجتماعى Solidarism" فى فرنسا كانت تدعو إلى أن يتضامن كل المواطنين فى الجمهورية الفرنسية من أجل تحقيق الخير للجميع. ورأى أميل دوركايم أن النظام الاجتماعى يحتاج إلى شئ ضرورى لابد أن يتوافر لدى المواطنين وذلك الشئ هو الرضا بما قسم لهم فيجب على كل الناس أن يقنعوا بما لديهم، ولكى يقنعوا بذلك لابد من أن تقدم لهم أساليب التربية المختلفة الأدلة على أن

ليس لهم الحق فى أن يطلبوا أكثر مما لديهم، ولذلك فإنه من الضرورى أن توجد سلطة قوية فى المجتمع يعترف بها الناس تسن القوانين التى تلزمهم بأن يقنعوا بحالتهم الراهنة ولا يجب إطلاقاً أن يترك الأفراد لكى يتطلعوا إلى أشياء ليست من حقهم(٢).

ولكن الدولة فى رأى دوركايم لم تعد قادرة على القيام بمثل هذه الوظيفة لأنها أصبحت بعيدة جداً عن الأفراد كما أن الأسرة أيضاً أصبحت محدودة جداً فى نطاقها وفقدت الكثير من وظائفها وخاصة الوظائف الاقتصادية ولم تعد هى الأخرى قادرة على هذه التربية الأخلاقية للأفراد. وعلى ذلك فإنه لا الدولة ولا الأسرة بل حتى ولا الكنيسة أو المؤسسات الدينية أصبحت قادرة على أن تسيطر على الأفراد وتحقق التماسك أو التضامن الاجتماعى، ولكن التى تستطيع أن تحقق ذلك هى المجموعات المهنية أو بعبارة أخرى المؤسسات أو الشركات الكبيرة التى يجب أن تصبح وسيطاً بين الأفراد من جهة وبين الدولة من جهة أخرى، والتى يجب أن تزود بالسلطات الاجتماعية والأخلاقية اللازمة لإعادة النظام الذى بدونه يتفكك المجتمع ويصبح الناس جميعاً ضحايا لرغباتهم الأنانية غير المحدودة، وهنا يأتى دور علم الاجتماع لكى يقدم حلاً علمياً للمشكلة الاجتماعية، ذلك أن علم الاجتماع سيصبح هنا الموجه والمرشد للسياسة الاجتماعية القادر على تحقيق الاستقرار الاجتماعى، والتماسك الاجتماعى، المطلوبين لاستمرار المجتمع.

هذه هى أيديولوجية اميل دوركايم كما عبر عنها فى أفكاره عن الاشتراكية وعن التعليم ولكن هذه الأفكار الأساسية والرئيسية هى ذاتها التى صاغ حولها كل نظريته الاجتماعية. بعبارة أخرى نستطيع أن نقول أن أميل دوركايم شأنه شأن أوجست كونت وغيره من علماء الاجتماع الوضعيين قد بدأ فى الواقع بالتسليم بمشروعية النظام الاجتماعى الاقتصادى القائم فى مجتمعه ورأى أنه هو الأنسب والأصلح للبشرية جمعاء، ولكى تكتسب هذه الفكرة قوة

فى الإقناع فإنه قد صاغ حولها نظريات بالغة التعقيد استخدم فيها كثيراً من المفهومات وأضفى عليها صفة العلمية، ليس هذا فحسب بل أنه أقام حولها علماً بأسره كما سيتضح لنا من تحليلنا فيما بعد.

ثانياً : علم اجتماع دوركايم :

لقد ألف اميل دوركايم أربع مؤلفات رئيسية أولها كتابه "تقسيم العمل الاجتماعى" الذى نشر عام ١٨٩٣ وثانيها "الانتحار" عام ١٩٠١ وثالثها قواعد المنهج فى علم الاجتماع ورابعها "الصورة الأولية للحياة الدينية" الذى نشر عام ١٩١٢. وفى هذه الكتب الأربعة يثبت اميل دوركايم وجهة نظره البسيطة فى أن أساس الحياة الاجتماعية ليس فى الاقتصاد كما يقول ماركس ولكن فى القيم الروحية، وأن هدف المجتمع الذى يجب أن يتحقق هو الوصول إلى حالة الإجماع Consensus وأن كل مظاهر الاضطراب أو التفكك أو المشكلات الاجتماعية مرجعها ليس العوامل أو الظروف الاقتصادية أو الاجتماعية ولكن انعدام الإجماع، أى أن حل كل أزمات النظام الرأسمالى إنما يتمثل فى تحقيق الإجماع على القيم بين جميع المواطنين.

وسوف نرى كيف تناول أميل دوركايم فى كتبه الأربعة هذا الموضوع الرئيسي بطرق مختلفة. ولكنها جميعها تصب فى نفس المصب فى نهاية الأمر.

لقد سلم اميل دوركايم مثل كونت بالوضعية كأساس للمعرفة السوسيولوجية ورأى أنه لابد أن يصبح علم الاجتماع علماً طبيعياً ورأى أنه على الرغم من إسهام علم الاجتماع فى الفكر الفلسفى إلا أنه فى الوقت ذاته لا يمكن أن يعتمد على الفلسفة أو يستمد منهجه منها. فالوضعية هى أساس العلم وهى الفلسفة التى وضعت حداً للتأملات العقيمة (من وجهة نظره) ويجب أن يهتم علم الاجتماع بالوقائع القابلة للملاحظات وأن يستخلص قضاياه العامة منها، وقد كانت هذه الأفكار هى الأساس الذى ارتكزت عليه أعماله الأولى والتى عبر عنها فى كتابه "قواعد المنهج فى علم الاجتماع"[1].

الوقائع الاجتماعية :

وقد كانت وحدة التحليل الاجتماعى عند دوركايم هى الوقائع الاجتماعية والواقعة الاجتماعية هى كما يقول :

كل وسيلة أو كل أسلوب للتصرف Acting تمارس فرضاً أو إجباراً خارجياً على الفرد أو كل وسيلة للتصرف تتصف بالعمومية فى مجتمع ما ولكنها توجد فى نفس الوقت مستقلة بذاتها.

ورأى دوركايم أن الوقائع الاجتماعية غير قابلة للملاحظة المباشرة، وبالتالى لابد من دراستها بشكل غير مباشر عن طريق ملاحظة آثارها، ومن هنا فإن الوقائع الاجتماعية تتصف بصفتين أساسيتين :

أنها خارجة عن الفرد وأنها ملزمة له أو ذات تأثير محدد لسلوكه.

وقد شرح دوركايم الصفة الأولى للوقائع الاجتماعية أى أنها خارجة عن الفرد بقوله.

"حين أقوم بالتزاماتى كأخ أو أب أو حين أوفى بتعاقداتى فإننى أقوم بواجبات لم أحددها أنا بنفسى أو لم تحددها أفعالى ولكنها محددة لى سلفاً فى القانون وفى العرف وفى العادات الجمعية".

وفضلاً عن ذلك :

"فإنها حتى إذا ما اتفقت مع عواطفى وشعرت بها ذاتياً فإن واقعها يظل موضوعياً، ذلك إننى لم أخلقها ولكنى ورثتها من خلال عملية التربية"(٥).

وترجع الطبيعة الإلزامية للوقائع الاجتماعية إلى حقيقة أنها تفرض على الفرد بغض النظر عن رغباته.

والوقائع الاجتماعية فى نظر دوركايم هى انعكاسات أو تعبيرات عن أخلاقيات الجماعة، والأخلاقيات بالنسبة لدوركايم تشمل كل المدى المعيارى

ابتداء من القواعد البسيطة للسلوك الاجتماعى (الاتيكيت) حتى أكثر العادات الاجتماعية صرامة وشدة.

التضامن الآلى والتضامن العضوى :

لقد كان اهتمام دوركايم فى كل مؤلفاته منصباً على دراسة العلاقة بين الأخلاقيات من حيث مصادرها وأشكالها وبين طبيعة الروابط الاجتماعية. ورأى دوركايم فى كتابه "تقسيم العمل الاجتماعى"(٦) أن التنظيم الاجتماعى قد تطور من حالة التماسك (أو التضامن) الآلى إلى حالة التماسك العضوى ولا يمكن ملاحظة أى من النوعين من التماسك ملاحظة مباشرة ولكن يمكن التعرف عليها عن طريق مؤشرات معينة تتمثل فى نوع الجزاءات التى توقع على مخالفى القواعد الأخلاقية.

والجزاءات فى نظر دوركايم تنبعث من العقل أو الضمير الجمعى Group Mind أو من المعتقدات والمشاعر المشتركة بين المواطنين فى نفس المجتمع، فأى فعل يعتبر إجرامياً حين يتعارض مع مبادئ الضمير الجمعى.

والتماسك الآلى Mechanical Solidarity يوجد فى المجتمع الذى يتصف بإحساس قوى وعام بالضمير الجمعى فأى فعل ضد شخص ما يعتبر فعلاً مضاداً لكل الناس فى المجتمع وفى مثل هذا المجتمع البدائى توقع الجزاءات بطريقة آلية أى دون تفكير ويسود مثل هذا المجتمع ما أسماه دوركايم "بالقانون القمعى". وفى هذا المجتمع البدائى نجد أن الناس متشابهون فى أفكارهم وفى وجهات نظرهم لما لديهم من قيم وخبرات مشتركة فإنهم يصبحون جميعاً كرجل واحد ولهم عقل واحد وبذلك يتحقق التماسك الاجتماعى بينهم ولكن هذا التماسك تماسك آلى أو طبيعى(٧).

أما فى المجتمعات الحديثة (أى المجتمع الصناعى الرأسمالى) فإن الأمر يختلف عن ذلك تماماً؛ فأفراد المجتمع يختلفون فى كثير من النواحى مثل الخبرات التى يمرون بها وتنشئتهم الاجتماعية وتدريبهم أو بعبارة أخرى

يختلفون نظراً لتقسيم العمل فيما بينهم، ويسود فى هذا المجتمع ما يسمى بالتماسك العضوى Organic solidarity وهذا التماسك العضوى يصاحب التقسيم المعقد فى العمل الذى تتصف به المجتمعات الصناعية، فالتماسك فى هذه المجتمعات لا ينشأ عن التشابه بين الناس ولكنه على العكس من ذلك ينشأ نتيجة الاعتماد المتبادل بينهم فالشخص لا يصبح متخصصاً فى شئ ما إلا إذا كان هناك آخرون متخصصون فى إنتاج السلع وتقديم الخدمات التى يحتاجها ليتفرغ لتخصصه.

ويجب أن نلاحظ هنا أن إميل دوركايم نظر إلى المجتمع بأسره على أنه مجرد أساليب للتصرف أو بعبارة أخرى على أنه مجموعة من المعايير والقواعد الأخلاقية والقيم. وذلك ما لاحظناه فى تعريفه للوقائع الاجتماعية فالواقع الاجتماعى بالنسبة له ليس واقعاً مادياً على الإطلاق ولكنه واقع فكرى وهذا الفكر هو المحدد لكل ما عداه من صور الحياة الاجتماعية كما أن دوركايم قد صور هذا الفكر على أنه شئ مستقل بذاته يمارس قهرا على أفراد المجتمع وليس عليهم إلا أن يتبنوه وإلا فإن المجتمع سوف يصاب بالتفكك والانهيار.

ولكن ما الذى يؤدى إلى تحول المجتمع من حالة التمسك الآلى إلى حالة التمسك العضوى؟

يجيب دوركايم على هذا السؤال بأن التماسك العضوى إنما هو نتاج لتقسيم العمل الأكثر تقدما ولكن تقسيم العمل فى حد ذاته ليس كما كان يرى علماء الاقتصاد نتيجة لعوامل اقتصادية ولا نتيجة رغبة الأفراد فى أن يزيدوا من طاقاتهم الإنتاجية وفى أن يحسنوا الإنتاج أو يحسنوا من أساليب حياتهم ولكن تقسيم العمل يرجع فى رأى دوركايم إلى ما اسماه بالكثافة الدينامية أو الكثافة الأخلاقية Dynamic or moral density ويعنى دوركايم الكثافة الدينامية أو الكثافة الأخلاقية تلك الحالة من التفاعل المكثف بين الناس الناتج

عن زيادة عدد الأفراد الذين تهيأ لهم فرص الاتصال بعضهم ببعض بدرجة تجعلهم قادرين على التفاعل مع بعضهم، وبالتالى يمكننا القول حسب دوركايم أن التقدم فى عملية تقسيم العمل إنما يتناسب تناسباً طردياً مع الكثافة الدينامية أو الكثافة الأخلاقية.

ولكن الكثافة السكانية لا تؤدى بالضرورة إلى كثافة دينامية أو أخلاقية أو إلى تقسيم معقد للعمل ذلك أنها تؤدى إلى هذه النتيجة فى حالة واحدة وهذه الحالة هى زيادة الصراع من أجل البقاء.

ويرى دوركايم أن مصدر تقسيم العمل المتقدم إنما يكمن فى القيم الثقافية التى يتضمنها الضمير الجمعى لأعضاء مجتمع ما قائم بالفعل. ويمكن التعرف على نوع التماسك الاجتماعى السائد فى مجتمع ما من خلال ملاحظة بعض الآثار التى تترتب عليه وبخاصة نوع الجزاءات السلبية أو القوانين التى تفرض على من يخالف أخلاقيات أو معايير الجماعة. ففى المجتمع الذى يسود فيه التماسك الآلى نجد أن القانون السائد فيه هو ما أسماه دوركايم بالقانون القمعى Repressive أو الانتقامى حيث توقع الجزاءات الشديدة على الشخص المخالف للأخلاقيات السائدة فى المجتمع.

أما فى المجتمع الذى يسود فيه التماسك العضوى فإننا نجد مؤشرات هذا التماسك تتمثل فيما أسماه بالقانون الإصلاحى restittutive أى أن الجزاءات التى توقع على المخالف لا تهدف إلى الانتقام منه ولكنها تهدف إلى إعادة الحالة إلى ما كانت عليه من قبل، فمثلاً يفرض عليه غرامة ما أو يطلب منه إصلاح ما أفسده أو إزالة الضرر الذى وقع منه على الأفراد الآخرين أو المجتمع.

وقد كان اهتمام اميل دوركايم منصباً على موضوع أساسى هو طبيعة التماسك الاجتماعى أو بعبارة أخرى حول سؤال مؤداه ما الذى يبقى الناس سوياً فى المجتمع فى شكل منظم.

يتضح لنا من ذلك أن الوقائع الاجتماعية بالنسبة لاميل دوركايم كانت ببساطة هى التماسك الاجتماعى من جهة والجزاءات السلبية من جهة أخرى (ويجب أن نلاحظ هنا أن هذه الوقائع المادية هى الأخلاقيات أساسا وليست الوقائع المادية الملموسة). وقد رأى دوركايم أنه يجب أن ننظر إلى الوقائع الاجتماعية بوصفها أشياء.

ويعرف دوركايم الأشياء بأنها ما هو معطى وكل ما هو خاضع للملاحظة، ويرى أن معالجة الظاهرات الاجتماعية بوصفها أشياء يضفى على هذه المعالجة صفة العلم.

وقد شرح اميل دوركايم تأثير الوقائع الاجتماعية على السلوك الإنسانى فى دراسته عن "الانتحار"(٨). وهذه الدراسة تمثل نموذجا للتحليل الاجتماعى طبقا لمنهجه الذى شرحه فى كتابه "قواعد المنهج فى علم الاجتماع". ولقد حاول دوركايم فى دراسته عن الانتحار أن يطبق مبدأه المنهجى الذى مؤداه أن عالم الاجتماع يجب أن يبحث عن أسباب أى ظاهرة اجتماعية يدرسها فيما سبقها من وقائع اجتماعية وليس فى الحالات الشعورية للأفراد، بعبارة أخرى يقول دوركايم أن الواقعة الاجتماعية يجب أن تفسر بغيرها من الوقائع الاجتماعية وليس بأى حالات سيكولوجية.

إن هذا المبدأ فى حد ذاته لا اعتراض لنا عليه فالتفسير الاجتماعى يختلف عن غيره من التفسيرات فى أنه لابد أن يقدم أسبابا ذات أصل اجتماعى للظاهرة الاجتماعية التى ندرسها.

ولكن النقد الأساسى الذى يمكن أن يوجه هنا لاميل دوركايم هو ما يعنيه بالواقعة الاجتماعية. وقد سبق أن رأينا أن تعريفه للواقعة الاجتماعية إنما هو تعريف فكرى تماما. وما يريد دوركايم أن يقوله هو اننا يجب أن نفسر حالات السلوك بحالات الأخلاق أو بمعنى آخر أنه يجب أن نفسر الحالات لأخلاقية بحالات أخلاقية أخرى. فى هذه الحالة نجد أن تفسير اميل دوركايم

ليس كما يدعى تفسيراً اجتماعياً ولكنه فى واقع الأمر تفسيراً أخلاقياً فالمجتمع بالنسبة له ليس مجموعات حية من الأفراد يعيشون فى واقع مادى ويقومون بنشاط مشترك ولكن المجتمع عبارة عن مجموعة من المعايير ومن القيم ومن الأخلاقيات العامة المختلفة.

وهذا ما عبر عنه فى كتابه "قواعد المنهج فى علم الاجتماع" حيث يقول :

"المجتمع ليس مجرد مجموع أفراد، ولكنه نسق ينتج عن التفاعل بينهم وهذا النسق يمثل واقعاً معيناً له خصائصه الخاصة".

وقد ركز دوركايم فى دراسته عن الانتحار على معدلات الانتحار - وليس على الحالات الفردية للانتحار. ورأى أن ما يجب علينا عمله بوصفنا علماء اجتماع ليس هو أن نقدم تفسيراً لانتحار فرد ما فى وقت معين وفى زمان معين ولكن يجب أن نهتم بأن نجيب على هذا السؤال.

لماذا يقوم عدد معين من الأفراد فى فترة زمنية معينة فى مجتمع معين بقتل أنفسهم أو بارتكاب فعل الانتحار ؟

إن وضع دوركايم لمشكلة الدراسة بهذه الكيفية يمثل فى الواقع اتجاهاً سوسيولوجيا حقيقيا يأخذنا بعيداً عن الاتجاهات السيكولوجية فى علم الاجتماع. ولكن مشكلة أميل دوركايم أنه حاول أن يفتش عن إجابات لهذا السؤال فى المجال الأخلاقى فقط منفصلا تماما عن الواقع الاجتماعى الذى تنشأ او تظهر فيه هذه الأخلاقيات. أن المتغيرات التفسيرية التى تبناها دوركايم فى دراسته الاجتماعية بما فى ذلك الانتحار إنما هى متغيرات مثالية أو متغيرات فكرية على حد تعبير جدعون جورج "وقد توصل اميل دوركايم إلى تنميط للانتحار "فقد وجد أن هناك ثلاثة أنماط للانتحار "ما أسماه بالانتحار الأنانى egoistic suicide والانتحار الغيرى Altruistic suicide والانتحار الناجم عن اللامعيارية أو الانتحار اللامعيارى Anomic suicide.

أما النوع الأول من الانتحار أى الانتحار الأنانى فإنه يتناسب تناسباً عكسياً مع درجة التكامل فى المجموعة الاجتماعية التى ينتمى إليها الفرد. يعنى أميل دوركايم أن القابلية للانتحار الأنانى عند الفرد تزداد حين تضعف التزاماته نحو الآخرين أو حين لا تكون للآخرين التزامات نحوه.

وأما النوع الثانى من الانتحار وهو الانتحار الغيرى فإنه ينجم عن روابط اجتماعية قوية تؤدى بالفرد إلى أن يضحى بحياته فى سبيل المجموعة.

وأما النوع الثالث من الانتحار أى الانتحار اللامعيارى فإنه يحدث فى الحالات التى ينتهك فيها النسيج الاجتماعى على حد تعبيره، وبالتالى تنشأ حالة من اللامعيارية أو انعدام المعايير فى المجتمع. وحالة انعدام المعايير فى المجتمع أو حالة الاضطراب المعيارى ينجم عن أى خلل فى التوازن equilibrium سواء كان هذا الخلل فى التوازن مؤدياً إلى نتائج إيجابية أو نتائج سلبية فأى تغيرات مفاجئة فى النظام الاجتماعى تؤدى إلى حالة من اللامعيارية أو التفكك الاجتماعى فمثلاً الكساد الاقتصادى أو الرخاء الاقتصادى حالتان تمثلان تغيراً مفاجئاً فى النظام الاجتماعى يترتب عليها درجة من اللامعيارية تؤدى إلى زيادة معدل الانتحار فى المجتمع[1].

وحين يقول أميل دوركايم أن الكساد الاقتصادى يؤدى إلى اللامعيارية فإنه لا يعنى بذلك حالة الفقر التى تسود الكساد الاقتصادى ولكنه يعنى التغير فى مواقف الناس. فهو يرى فى الواقع أن الفقر فى ذاته إنما يمثل حماية للأفراد من الانتحار ولكن التغير المفاجئ الذى يحدث فى المجتمع هو الذى يؤدى إلى زيادة الانتحار.

ويتضح من ذلك بالطبع تأكيد دوركايم على فكرة النظام الاجتماعى وعلى فكرة التوازن الاجتماعى وهاتين الفكرتين هما من الأفكار الرئيسية المحورية فى النظريات الوضعية بل وحتى النظريات الغربية عموماً.

أهم معالم فكر دوركايم :

بعد هذا العرض الموجز للأفكار الأساسية التي قدمها اميل دوركايم في مؤلفاته المختلفة ننتقل إلى تحديد أهم معالم فكره وخاصة المسلمات الأساسية التي استند عليها في هذه النظرية وما تشير إليه النظرية من إجراءات عملية تطبيقية والمضمون الايديولوجي لها.

إن دوركايم قد بدأ بالتسليم بأن المجتمع عبارة عن نسق من الاخلاقيات لا يمكن ملاحظته مباشرة ولكن يمكننا أن نستدل عليه من بعض الآثار التي يمكن ملاحظتها، بعبارة أخرى رأى أن أساس المجتمع هو أساس فكرى أو أخلاقى لا نستطيع أن ندرسه مباشرة ولكن من خلال ما يفصح عنه من سلوك وأشياء قابلة للملاحظة. وقد ادعى دوركايم كما رأينا أنه يجب النظر إلى الوقائع الاجتماعية بوصفها أشياء قابلة للملاحظة ولا يعنى ذلك إطلاقا كما رأينا من شرحنا لأفكاره أنه يركز على دراسة أشياء مادية ولكنه يريد أن يرقى بالأفكار إلى مستوى الأشياء القائمة بذاتها. كما سلم اميل دوركايم بأن أفراد المجتمع عليهم أن يخضعوا تماماً للضمير الجمعى وما يحتويه من مبادئ وقواعد أخلاقية وقد اتضح ذلك كما رأينا في وصفه للوقائع الاجتماعية بأنها ذات طبيعة إلزامية وإجبارية للأفراد.

ومن الواضح أيضاً أن دوركايم قد سلم بأن الإنسان جشع بطبعه وأنه دائماً يسعى إلى الحصول على المزيد ولا يقنع إطلاقاً وبالتالى فإنه لابد من أن تكون هناك سلطة ما تمارس القهر والإجبار عليه بحيث يقنع بما قسم له. أما فيما يتعلق بالمتغيرات التى يفسر بها اميل دوركايم الظاهرات الاجتماعية المختلفة فقد رأينا أن هذه المتغيرات هى أساساً متغيرات فكرية وأخلاقية وأنه قد استبعد تماماً المتغيرات التاريخية والمتغيرات المادية.

ولابد أن نذكر هنا أيضاً الإجراءات العملية التى يمكن أن تترتب على نظرية اميل دوركايم. إن اميل دوركايم قد حاول أن يكون عالماً موضوعياً

محايداً ولكنه قد قرر بالفعل بأن علم الاجتماع لابد وأن يلعب دوراً فى تحسين أحوال المجتمع، وقد كان دوركايم يأمل فى أن يقدم برامج سياسية واجتماعية تعتمد على الدراسة الاجتماعية الموضوعية للمجتمع، وقد سبق أن ذكرنا أن أهداف اميل دوركايم الأساسية من تقديمه لهذه النظرية هو أن يجعل علم الاجتماع بديلاً للاشتراكية أى أن يجعل علم الاجتماع هو المرشد للساسة ورجال الصناعة فى توجيه المجتمع لتحقيق الاستقرار الاجتماعى وللحيلولة دون حدوث أى اضطرابات فى النظام الاجتماعى القائم أى النظام الرأسمالى.

ويتضح من ذلك المضمون الايديولوجى لنظرية اميل دوركايم فمن استعراضنا لأفكاره جميعاً يتضح أن نظريته ذات طابع محافظ تماماً لا يمكن أن يخطئه الإنسان فيرى زايتلن مثلاً أن هدف اميل دوركايم فى الواقع كان الحفاظ على النظام الاجتماعى بأى ثمن وبأى طريقة وبأن دوركايم قد بذل قصارى جهده من أجل أن يسخر علم الأجتماع فى تحقيق هذا الهدف. ونستشهد هنا بعبارة لدوركايم يقول فيها[١٠] :

"إن ما نحتاج إليه لكى نحقق الاستقرار فى النظام الاجتماعى هو أن نجعل جماهير الناس قانعة بما قسم لهم. ولكن ما يجب عمله لكى نجعلهم قانعين بنصيبهم فى الحياة هو أن تقنعهم بأن ليس لهم الحق فى أن يحصلوا على أكثر مما لديهم. ولكى نحقق ذلك فإنه من الضرورى تماماً أن تكون هناك سلطة عليا يعترفون بها ترشدهم دائماً إلى الصواب".

ويجدر بنا أن نذكر هنا فى ختام حديثنا عن اميل دوركايم أن الأفكار الأساسية التى عبر عنها لم تنته بوفاته ولكنها قد راجت كثيراً فى أوربا وفى الولايات المتحدة الأمريكية وصيغت وحولها نظريات أخرى جديدة سواء كانت نظريات وضعية أو نظريات وظيفية. ومما هو جدير بالذكر أن واحداً من أشهر العلماء الأمريكيين وهو روبرت ميرتون قد صاغ نظريته اعتماداً على الأفكار الأساسية عند اميل دوركايم وكذلك الحال بالنسبة للكثيرين من علماء الاجتماع الأمريكيين[١١].

ويذكر كالفن لارسون[12] أن فكر اميل دوركايم قد لقى رواجاً كبيراً فى الولايات المتحدة الأمريكية خاصة بعد فترة الكساد الاقتصادى التى سادت أمريكيا فى الثلاثينات والتى فتش علماء الاجتماع الأمريكيون بعدها عن تفسيرات اميل دوركايم لهذه الأزمة التى يمر بها المجتمع الأمريكى وحاولوا أن يستعينوا بما قدمه من حلول لكى يرضى الناس بأوضاعهم الاجتماعية المتدهورة فى تلك الفترة. بعبارة أخرى أعاد علماء الاجتماع الأمريكيون اكتشاف اميل دوركايم بعد فترة الكساد الاقتصادى فى الثلاثينات واهتموا به اهتماماً كبيراً بعد ذلك وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية وفى ذلك يقول أحد العلماء الأمريكيين وهو هينكل :

"إن الاهتمام بدوركايم فى الأربعينات والخمسينات قد اتسع نطاقه وبخاصة منذ عام ١٩٤٥ . وأصبح دوركايم شخصية محورية فى الكثير من المجالات العلمية المتخصصة".

"ويمكننا أ، نلاحظ تأثير اميل دوركايم فى تخصصات معينة مثل علم اجتماع القيم وعلم اجتماع المعرفة وعلى الاجتماع الدينى وعلم الاجتماع الصناعى وعلم الاجتماع القانونى وعلم الاجتماع الجنائى وعلم اجتماع المجموعات الصغيرة والتنظيمات الاجتماعية والتغير الاجتماعى وأيضاً السلوك الجمعى".

" كما أن الكثيرين من علماء الاجتماع الغربيين المعاصرين يتبنون أفكار دوركايم ويقول عالم الاجتماع الأمريكى نسبت عن اميل دوركايم "أنه هو عالم الاجتماع الحقيقي والكامل"".

هوامش الفصل الخامس :

-١ Herman and Julia Sewendinger. The sociogist of the Chair, Basic Books. New York, 1974, p.255.

-٢ Raymond Aron, Main Currents in Sociological Thought Penguin Books, England, 1965, p.90.

-٣ Ibid., pp.90-91.

-٤ Emil Durkheim, Rules of Sociological Theory, Glencoe, III, Press, 1938.

-٥ Emil Durkheim. The Rules of Sociological Method. (New York, Free Press, 1964), p.2.

-٦ Durkheim. The Division of labor in Society, Glencoe, Free, Press, 1933/

-٧ يعنى دوركايم بالتضامن أو التماسك الاجتماعى مجموع المعتقدات والمشاعر العامة والمشتركة بين الأعضاء العاديين فى أى مجتمع، وهذه المعتقدات تشكل نسقاً مستقلاً له حياة خاصة به.

-٨ Durkheim, Suicide, Free Press, New York, 1951.

- Lewis Coser. Masters of Sociological Thought, Harcourt Brace Jovanavich, Inc. New York, 1977, pp.154-155.

Irving Zeitlin. Ideology and the Development of Sociological Theory (New Jersey, Prenticehall, 1958), p.235.

-١ Schwendinger, op.cit., p.234

-١ Calvien Larson, Major Themes in Sociological Theory, New York, David Mc-Kay Company, 1973), p.50.

الفصل السادس

ماكس فيبر والفعل الاجتماعى

الموقف الايديولوجى لماكس فيبر :

تتسق نظريات ماكس فيبر (١٨٦٤ - ١٩٢٠) عن المجتمع بشكل واضح مع التزاماته السياسية والأيديولوجية. فقد أعلن ماكس فيبر سواء فى مؤلفاته أو محاضراته العامة أو فى النصائح التى كان يقدمها للسلطة فى ألمانيا فى وقته أنه من أشد المدافعين عن النظام الرأسمالى البرجوازى، وأنه من ألد أعداء الماركسية. وقد وصف ماكس فيبر بأنه ماركس البرجوازي أى أنه مثلما كان يدافع ماركس عن البروليتاريا أو الطبقة العاملة فإن ماكس فيبر هو المدافع المخلص عن البرجوازية الألمانية بالطبع والبرجوازية العالمية[١].

وقد وصف ألبرت سالمون علم اجتماع ماكس فيبر بأنه بأسره كان حواراً طويلاً مكثفاً مع شبح كارل ماركس[٢].

والواقع أن ماكس فيبر ينتمى إلى تلك المدرسة من علماء الاجتماع الذين ينبع اهتمامهم بالمجتمع من اهتمامهم بالمسائل العامة وبالسياسة. وفى ذلك يتشابه ماكس فيبر مع ميكيافيللي مثلاً. وكان ماكس فيبر يود أن يكون من رجال السياسة وأن يمارس السلطة، وكان يحلم أن يكون رئيس دولة وليس مجرد زعيم حزب، ولكن ماكس فيبر لم يكن سياسياً ولا رئيس دولة بل أن كل ما استطاع أن يحققه هو أن يكون مستشاراً أو ناصحاً للأمير.

أن آراء ماكس فيبر السياسية التى ترجمها إلى نظرية اجتماعية تدور جميعاً حول أن النظام الرأسمالى وأن الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج والتنافس بين المنتجين على السوق إنما هى أنسب شئ للإنسان وأن هذا النظام إنما يرتبط بالعقلانية ويمثل قمة التطور الإنسانى[٣].

والرأسمالية بما ترتبط به من عقلانية هى مصير الإنسان ولا جدوى بأى حال من الأحوال من الثورة على هذا النظام. وكان ماكس فيبر من ألد أعداء الاشتراكية على الرغم من إعجابه بمؤلفات كارل ماركس. وكان يرى أن ما يتهدد الكرامة الإنسانية إنما هو فى الحقيقة النظام الاشتراكى بما سيرتبط به من استعباد للأفراد بواسطة الدولة الاشتراكية والمؤسسات البيروقراطية التى ترتبط بها. وعبر مرارا وتكرارا عن رأيه فى أن الاشتراكية سوف تؤدى إلى ازدياد سيطرة الإنسان على أخيه الإنسان أو إلى سيطرة المنظمات على الأفراد وإلى حرمان الفرد من حريته ويجب أن نلاحظ التطابق بين آراء ماكس فيبر التى عبر عنها فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وبين الدعاية التى مازالت توجهها الدولة الرأسمالية ضد الاشتراكية.

ولم يكن ماكس فيبر مدافعاً فقط عن النظام الرأسمالى ولكنه كان أيضا من أشد المدافعين عن الامبيريالية أو الاستعمار. فقد انتقد فيبر مثلما فعل نيتشه الشعب الألمانى لما يتصف به من ميل للطاعة السلبية وتقبل الحكومات التقليدية وقال أن هذه الصفات جميعها لا تليق بشعب لابد وأن يلعب دورا عالميا كبيرا وعبر بوضوح عن ضرورة أن يكون لألمانيا دور استعمارى فى العالم وكذلك أوربا الغربية[٤].

لقد كان ماكس فيبر يتخذ كما قلنا موقف المدافع عن النظام الرأسمالى ويجد كل الأدلة لإثبات أنه أفضل النظم التى عرفتها البشرية. ولكى يتحقق هذا الهدف كان عليه أن يهاجم كلاً من الفكر المحافظ السائد فى ألمانيا وأوربا المرتبط بالإقطاع وأن يهاجم أيضاً الفكر الاشتراكى الراديكالى الذى انتشر بفعل الحركات الاشتراكية فى أوربا. وقد عبر ماكس فيبر ربما أكثر من غيره من علماء الاجتماع الأوائل عن مواقفه الأيديولوجية والسياسة بوضوح كامل. فقد قرر مثلاً فى أحد محاضراته التى كان يلقيها فى "فراى بورج" فى عام ١٩٠٥ عن هذه الآراء بقوله.

"إننى عضو فى الطبقة البرجوازيــة وأنـا أفخر بذلك وقد نشأت فى أحضان هذه الطبقة وتبنيت آراءها ومثلها العليا"[٥].

وعلى الرغم من أن ماكس فيبر قد هاجم بشدة المفكرين المحافظين فى ألمانيا إلا أنه كان يشعر بالرعب من الأفكـار الاشتراكية بصفـة عامـة ومن التحول الاشتراكى وكان يتخذ موقف العداء من الحزب الديمقراطى الاشتراكى فى ألمانيا. ولماكس فيبر عبارات واضحة تماماً تبين موقفه بما لا يدع مجالاً للشكل. فقد قال : "إذا ألغيت الملكية الخاصة فإن بيروقراطية الدولة هى التى سيكون لها الحكم فى المجتمـع". وبينمـا نجـد فـى النظـام الرأسمالى أن بيروقراطية الدولة وبيروقراطية الصناعة يمكنهما أن يقللا من الآثـار السيئة لكل منهما فإنهما سوف يصبحـان جسداً واحداً فى الدولـة الاشتراكية بحيث تستعبد البيروقراطية الإنسان، ولن يكون للعامل أية حرية على الإطلاق. وقد حاول ماكس فيبر أن يؤيد فكرته هذه بالاستشهاد ببعض الأدلة التاريخيـة فقال مثالاً أنه حينما سادت البيروقراطية الدولة فى مصر وفـى رومـا فـإن ذلك قد أدى إلى انهيار هاتين الحضارتين. ورأى ماكس فيبر أن تجنب انـهيار الدولـة الألمانية إنما يتمثل فى تشجيع البرجوازية على تحقيق مصالحها.

ودعا ماكس فيبر إلى أن تقوم ألمانيا بأنشطة استعمارية خارج حدودها وإلى تأكيد فكرة القومية الألمانية وقدم لذلك ثلاثة مبررات:

أولها أن تأكيد قومية ألمانيا وقيامها بالاستعمار خارج حدودهـا سوف يسهل نمو الرأسمالية بها كما حدث فى إنجلتـرا، وذلك أنـه سوف يـؤدى إلى تحرير الدول الأصغر فى أوربا وثانيها تحقيق بعض الأمانى لـها عن طريق تحقيق نوع من التوازن فى التوتر بين القوى الكـبرى، وثالثـاً لأن ذلك سوف يؤدى إلى تدعيم الثقافة الألمانية، وتحقيق تكاملها وحيويتها[٦].

وقد رأى ماكس فيبر أن المجتمع الصناعى لابد أن يكون بـه صراع طبقى وأن تكون به إدارة بيروقراطية، ولكنـه هاجم بشدة فكرة أن تقوم أى

طبقة أخرى غير الطبقة البرجوازية بالسيطرة على المجتمع ونصح هذه الطبقة بأن تدافع عن مصالحها وبأن تحتفظ بسيطرتها على المجتمع.

وسوف نلاحظ عند عرضنا لأفكار ماكس فيبر ذلك التطابق بين آرائه السياسية وأيديولوجيته وبين مسلماته الأساسية التى بنى عليها هذه الأفكار. وقد كان ماكس فيبر من أوائل المهاجمين للنظام الجديد فى روسيا حتى أنه اتهم زعماء الثورة الروسية بأنهم دكتاتوريون عسكريون وبأنهم يهدفون إلى السيطرة على الدولة جميعها(٧). ويجب أن نذكر هنا أن ماكس فيبر قد زار الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٠٤ وقد استقبل هناك استقبالاً حافلاً وأن آراءه وأفكاره قد لقيت رواجاً كبيراً فى الولايات المتحدة الأمريكية واتخذت أساساً اعتمد عليها الكثير من علماء الاجتماع الأمريكيين والفلاسفة ورجال السياسة لمهاجمة الأفكار الاشتراكية والمدافعة عن النظام الرأسمالى والاستعمارى ولكن كيف ترجم ماكس فيبر معتقداته السياسية والأيديولوجية إلى نظرية عن المجتمع؟ لقد حاول ماكس فيبر أن يقيم نظرية مخالفة تماماً لنظرية كارل ماركس أى أن يقلب نظرية كارل ماركس رأساً على عقب. فبدلاً من المسلمة الأساسية التى تنهض عليه النظرية الماركسية والتى مؤداها أن الواقع المادى الاقتصادى هو الذى يحدد الواقع الفكرى والسيكولوجى، أراد ماكس فيبر أن يثبت أن الواقع السيكولوجى هو الذى يحدد الواقع الاقتصادى. فقد رأى أن نشأة الرأسمالية كنظام اقتصادى اجتماعى إنما هى نتاج لنشأة الروح الرأسمالية والتى هى بدورها نتيجة للديانة أو الأخلاق البروتستنطية(٨).
وقد قدم ماكس فيبر نظريته كنقيض للمادية الماركسية حيث قرر أن العنصر الأساسى فى الحياة الاجتماعية (العامل المستقل) هو الأخلاق والدين بينما غيرهما من جوانب العملية التاريخية بما فى ذلك النظام الاقتصادى ليست سوى وظيفة للعامل المستقل.

علم الاجتماع والفعل الاجتماعى :

لقد عرف فيبر علم الاجتماع بأنه :

"ذلك العلم الذى يحاول الوصول إلى فهم تفسيري للفعل الاجتماعى(*) من أجل التوصل إلى تفسير علمى لمجرد هذا الفعل وآثاره"(٩).

والفعل الاجتماعى حسب تعريف ماكس فيبر والذى يجب أن يكون موضوع دراسة علم الاجتماع هو أى سلوك إنسانى يضفى عليه الفاعل معنى ذاتياً، والفاعل حين يقوم بهذا الفعل الاجتماعى، فإنه يضع سلوك الآخرين دائماً فى اعتباره، ويكون فعله بالتالى موجها نحو الآخرين.

وقد اعتبر ماكس فيبر أن وحدة التحليل الأساسية للمجتمع هى "الشخص الفاعل" Acting person ويقول فى ذلك :

"إن علم الاجتماع التفسيرى يعتبر الفرد وفعله هو الوحدة الأساسية أو "الذرة" فالفرد هو الشئ الوحيد الذى لديه سلوك له معنى .. أما المفهومات الأخرى مثل الدولة أو الرابطة أو الإقطاع فإنها تشير إلى فئات معينة من التفاعل الإنسانى. وعلى هذا فإن مهمة علم الاجتماع هى اختزال مثل هذه المفهومات إلى "فعل يمكن فهمه، أى إلى أفعال الأفراد المشتركين فى النشاط"(١)".

وقد أقام فيبر نظريته على اساس التمييز بين أربعة أنماط أساسية من الفعل الاجتماعى هى :

١- الفعل العقلانى الذى يرتبط بهدف ما :

Puposeful or goal oriented rational action.

٢- الفعل العقلانى الذى يرتبط بقيمة ما :

Value oriented rational action.

٣- الفعل الوجدانى أو العاطفى Emotional or affective action

٤- الفعل التقليدى Traditional action.

والفعل العقلانى الذى يرتبط بهدف ما يتصف بأن الفاعل فيه يدرك بوضوح هدفاً معينا يريد تحقيقه وتكون لديه أساليب مناسبة لتحقيق هذا الهدف. ومثال هذا النوع من الأفعال ما يقوم بـه المهندس الذي يصمم بناء معيناً أو الشخص المضارب فى سوق الأوراق المالية الذى يـهدف إلى تحقيق مكسب مالى أو القائد الحربى الذى يريد أن يحقق نصراً ما. أفعال هؤلاء جميعا أمثلة على الأفعال العقلانية التى ترتبط بتحقيق هدف معين.

أما الفعل العقلانى الذى يرتبط بقيمة ما فهو ذلك الفعل الذى لا يـهدف إلى تحقيق هدف خارجي معين بالنسبة للفرد بقدر ما يهدف إلى التمسك بقيمة معينة لها أهمية عظمى عند الفرد. ومثال ذلك الفعل ما يقرره قبطان السفينة من ألا يدعها تغرق وحدها بل يغرق معها أو حين يشترك فرد ما فـى مبارزة يعلم أنه سيقتل فيها أما ما يسميه ماكس فيبر الفعل الوجدانـى أو العـاطفى فـهو ذلك الفعل الذى ينجم عن حالة عاطفية أو نفسية مباشرة للفرد مثال ذلك حين تصفع الأم طفلها لأنه أتى سلوكاً سيئاً أو حين يضرب أحد لاعبى الكرة زميلاً له فى المباراة. هذه الأفعال أفعالا وجدانية وليست أفعالاً عقلانيـة لأنـها ليست موجهة إلـى هدف ولا مرتبطـة بقيمـة معينـة ولكنـها عبارة عن ردود أفعال عاطفية للفاعل الذى يجد نفسه فى ظروف معينة.

أما الفعل التقليدى فإنه ذلك الفعل الذى تمليه التقاليد، والعادات الجمعية والمعتقدات. والفاعل فى هذه الحالة لا يأتى فعله من أجل تحقيق هـدف مـا أو من أجل تمسكه بقيمة معينة أو لأنه مثار انفعالياً ولكن فعله يكون مجرد إطاعة لأفكار تم له اكتسابها من خلال عملية التطبيع الاجتماعى[11].

الأنماط المثالية Ideal Types :

تعتمـد كل نظريـة مـاكس فيبر كمـا قلنـا علـى هذا التصنيـف للفعـل الاجتماعى أو على ذلك التنميـط Typology. والتنميـط لـه أهميـة خاصـة فـى نظرية ماكس فيبر فقد رأى فيبر أنه لكى نستطيع تحليل الظاهرات الاجتماعية،

وهى موضوع علم الاجتماع لابد أن تكون لدينا أداة تقوم بالتحليل على أساسها تسهل لنا عملية المقارنة بين هذه الظاهرات وبعضها البعض. وهذه الأداة هى ما أسماه فيبر بالنماذج أو الأنماط المثالية الخاصة Pure-ideal types[١٢].

فالأربعة أنواع من الأفعال الاجتماعية السابق الحديث عنها تمثل نماذج مثالية أو خالصة للفعل الاجتماعى بمعنى أنها لا توجد فى الواقع بهذه الكيفية ولكنها مجرد تصورات عقلية مستمدة من الواقع فعلاً ولكنها لا توجد فيه بهذه الكيفية. وقد انطلق فيبر بعد تصنيفه للفعل الاجتماعى إلى تصنيف كافة الظاهرات فى المجال الاجتماعي. فقد صنف بناء على ذلك مثلاً أنماط السلطة أو السيطرة فرأى أن هناك سيطرة أو سلطة عقلانية وسلطة تقليدية وسلطة كاريزماتية.

كما أن تصنيف المجتمعات، وكذلك تصوره لمراحل التطور التاريخى للمجتمعات الغربية قد اعتمد أيضاً على تصنيفه للفعل الاجتماعى، فالصفة الرئيسية للعالم الذى عاش فيه ماكس فيبر كما يقول هى صفة العقلانية أو الأفعال العقلانية التى ترتبط بتحقيق الأهداف، والمشروعات الاقتصادية، فى النظام الرأسمالى هى مشروعات عقلانية كما أن سيطرة الدولة على المجتمع تكون أيضاً سيطرة عقلانية عن طريق البيروقراطية.

والواقع أن اهتمام ماكس فيبر قد انصب على أول نمط من أنماط الفعل الاجتماعى الأربعة أى الفعل الاجتماعى العقلانى الموجه نحو تحقيق أهداف محدودة لأن هذا النمط من الفعل الاجتماعى هو الذى يرتبط بذلك النموذج المثالى أو الخالص من نماذج المجتمع ويعنى به نموذج الرأسمالية الغربية المعاصرة[١٣].

وقد أثار فيبر سؤالين هامين بالنسبة للرأسمالية :

أولهما : ما هى الخصائص المميزة لتلك الظاهرة الاقتصادية الاجتماعية المساه بالرأسمالية والتى توجد فى الغرب؟

ثانيهما : كيف ظهر هذا النموذج أو هذا النمط من المجتمعات؟

وقد رأى فيبر أن الرأسمالية قد ظهرت فى أزمان مختلفة فى تاريخ العالم وفى مناطق مختلفة منه ولكن أشكالها قد اختلفت عن الشكل الحديث للرأسمالية التى توجد فى العالم الغربى.

ولكى يصل ماكس فيبر إلى تحديد الخصائص الأساسية للنمط الرأسمالى المعاصر فإنه قد أجرى دراسات متعددة عن القانون وتاريخه وعن نظم الإدارة ونظم الزعامة والحكم والنظم الدينية واستطاع من ذلك كله أن يستخلص إجابات عن السؤالين الذين أثارهما كما سبق أن ذكرنا.

- إن أهم خاصية للرأسمالية الحديثة هى طابعها العقلانى ويتضح ذلك الطابع العقلانى حين نقارن نمط التنظيم الإدارى الذى يرتبط بها بغيره من التنظيمات الإدارية التى كانت سائدة فى إنجلترا وفى فرنسا خلال عصر الإقطاع. وقد قام فيبر بتحليل أنماط القانون والإدارة المختلفة. وقرر فيبر أن المجتمعات الإنسانية قد عرفت جميعها نمطاً ما من السلطة. ذلك أنه فى أى مجموعة من المجموعات لابد أن يكون هناك فرد أو أفراد يصدرون الأوامر ولابد أن يكون هناك آخرون يطيعون هذه الأوامر والذين يصدرون الأوامر يتوقعون أن تطاع أوامرهم.

والسبب فى ذلك أن الذين يصدرون الأوامر والذين يطيعونها يشتركون سوياً فى معتقدات معينة أو بعبارة أخرى يعتقدون بأنه السلطة لها طابع شرعى ولكن أساس هذه الشرعية قد يختلف من حالة لأخرى فهناك كما قال فيبر ثلاثة نماذج مثالية أو أنماط خالصة من السلطة يمكننا أن نميزها تبعاً لشرعيتها هى:

١- الشرعية العقلانية وهى تلك التى تعبر عن الاعتقاد فى مشروعية أنماط القواعد المعيارية وحق أولئك الذين تحددهم هذه القواعد فى ممارسة السلطة وإصدار الأوامر.

٢- المشروعية التقليدية وهى التى تعتمد على الاعتقاد فى قدسية التقاليد الراسخة وفى حق أولئك الذين يتولون السلطة فى ممارستها.

٣- المشروعية الكارزماتية (وقد سميت بذلك الاسم الذى اشتق من الكلمة اليونانية التى تعنى العظمة والموهبة) وتعتمد هذه المشروعية الكارزماتية على ولاء الناس أو الاتباع لفرد معين يتمتع بامتياز وقدرات نادرة وخصائص شخصية كالبطولة أو العظمة يندر أن تتوافر لغيره. مثل هذا القائد أو الزعيم يلقى الطاعة من الأتباع لأنهم يعتقدون أن أى أنماط معيارية أو أى أوامر يصدرها إنما هى أشياء مقدسة.

وقد أشار فيبر إلى أن الطاعة فى الحالة الأولى (أى فى حالة المشروعية العقلانية) ترجع إلى النظام القانونى القائم والذى يتصف بالصفة اللاشخصية. بينما يرجع فى الحالتين الثانية والثالثة إلى صفات شخصية.

والمشروعية العقلانية هى نمط فريد من السلطة ظهر فى الحضارة الغربية وحدها وقد أشار فيبر إلى أن أيا من النماذج المثالية أو الخالصة لا توجد فى شكل خالص فى أى فترة تاريخية ولكن ما وجد فى أى حالة من الحالات أو فى أى فترة من الفترات التاريخية لم يكن سوى شئ قريب من هذه النماذج العقلانية الخالصة.

البيروقراطية (١٤):

درس ماكس فيبر بالتفصيل العلاقة بين الأنساق الاجتماعية والاقتصادية وبين أن هذه الأنساق كانت تتجه باستمرار إلى العقلانية. وقد قرر فيبر أن ذلك النمط من القانون العقلانى إنما هو ظاهرة حديثة نوعاً فى التاريخ الإنسانى وأنه قد ارتبط أساساً بظهور الرأسمالية الحديثة. والقانون العقلانى مثل الرأسمالية الحديثة نتاج للحضارة الغربية الحديثة. وتساءل فيبر عن

الرابطة بين الاثنين وقد حاول أن يجيب على هذا السؤال عن طريق دراسته لتطور ما أسماه بالإدارة البيروقراطية.

وهنا نجد مرة ثانية أهتمام ماكس ڤيبر بعملية التنميط أو تصنيف الظاهرات إلى أنماط معينة. وقد تحدث فيبر كثيراً عن نمط معين من الإدارة هو البيروقراطية ورأى أن البيروقراطية كنمط مثالى للإدارة يرتكز أساساً على السلطة القانونية العقلية التى تمثل أساس المشروعة، ورأى أن البيروقراطية عباره عن عملية مستمرة من أداء الوظائف الرسمية طبقاً لقواعد ومعايير. فالأشخاص الذين يؤدون هذه الوظائف لهم مجالات محددة ويتمتعون بالسلطة الضرورية التى تساعدهم على أداء مهامهم وهذه السلطة موزعة بطريقة معينة بحيث تضمن نوعاً من التدرج فى الوظائف الرسمية وبحيث أجد فى نهاية الأمر أن هناك مجموعة من الأشخاص الرسميين لهم مهام إشرافه على غيرهم من الأشخاص. ولكى يستطيع هؤلاء الأشخاص ممارسة السلطة فلابد أن تتوافر لديهم بعض المؤهلات والخصائص. وليس من الضرورى أن يمتلك أولئك الذين يمارسون السلطة الإدارية أى وسائل للإنتاج كما ليس من الضرورى أن يستخدموا وظائفهم الإدارية لتحقيق أى أغراض شخصية. والأفعال ذات الطبيعة الإدارية مسجلة كتابة فى شكل لوائح أو قوانين مما يضمن صفة الاستمرارية للعملية الإدارية.

والخصائص المميزة لحياة الأشخاص الرسميين فى النمط البيروقراطى من الإدارة هى:

أنهم يتصرفون بطريقة لا شخصية تبعاً للقواعد التى تحدد مجال عملهم وأنهم يشغلون هذه المناصب بالتعين وليس بالانتخاب ويعتمد تعيينهم على توافر مواصفات معينة فيهم، وعادة ما يحصلون على مناصبهم بعد اجتيازهم لاختبارات معينة. ويحصل هؤلاء البيروقراطيون على مرتبات بناء على جدول مرتبات معين ويحصلون على معاشات بعد عدد من السنوات التى يقضونها فى الخدمة. وعادة مالا يكون لهؤلاء الأشخاص أعمال أخرى.

وقد قارن ماكس فيبر هذا النمط من التنظيم الإدارى (أى البيروقراطية) بالتنظيم الإدارى الذى يرتبط بشكل السلطة التقليدية. ففى التنظيم الإدارى الذى يرتبط بالسلطة التقليدية لا تعتمد إطاعة الأفراد لبعضهم البعض على قواعد أو لوائح محددة وإنما يعتمد ذلك على نوعية الشخص الذى يشغل مركز السلطة التقليدية. وتحدد التقاليد أساليب تصرف المسئول الإدارى التقليدى فى بعض الأحيان أو تترك له حرية التصرف الكاملة فى أحيان أخرى وبعكس ما هو موجود فى النمط البيروقراطى من الإدارة نجد أن النمط التقليدى من الإدارة يعتمد على اختيار الأشخاص لممارسة هذه المهنة ليس بناء على خصائص محددة من قبل واختبارات معينة ولكن على أساس صلتهم بالرئيس أو القائد وولائهم الشخصى له.

وهكذا ترى أن فيبر رأى أن الخاصية الرئيسية للرأسمالية الغربية الحديثة هى العقلانية فى كل من القانون والإدارة. كما رأى أن هذه العقلانية تعتمد على افتراضات أساسية معينة وعلى معتقدات أساسية يشترك فيها الأفراد فى المجتمع الغربى وتلك المعتقدات هى ما أسماها المشروعية القانونية العقلانية. ولكن هناك خصائص أخرى فى الرأسمالية كما عرفها الغرب تحدث عنها ماكس فيبر التفصيل.

الأخلاق البروتستنطية والروح الرأسمالية :

أن أهم خصائص النمط الرأسمالى الحديث الذى يوجد فى الغرب هو ما أسماه فيبر بروح الرأسمالية Spirit of Capitalism. والروح الرأسمالية هى عبارة عن نسق الأخلاقيات أو الاتجاهات نحو الحياة وما يجب أن يفعله الإنسان فيها. وقد شرح ماكس فيبر فكرته عن روح الرأسمالية بالتفصيل فى مقاله الشهير "الأخلاق البروتستنطية وروح الرأسمالية"(١٥).

وقد حاول فى هذا المقال أن يشرح أصول الرأسمالية. ومن أهم خصائص الروح الرأسمالية أو الاتجاهات الأخلاقية التى ترتبط بالروح

الر أسمالية الاعتقاد بأنه من الأشياء المفيدة أن ينفق الإنسان طاقته من أجل الحصول على دخل أو من أجل جمع المال وأن يفعل ذلك حتى بعد أن تتوفر له احتياجاته الأساسية بمعنى آخر أن يصبح جمع المال هدفاً في حد ذاته أو أن يكون من أهم أهداف الإنسان في الحياة زيادة ثروته بغض النظر عن الأساليب المتبعة في ذلك طالما كانت الأساليب تتصف بالكفاءة. وتتصف هذه الروح أيضاً بالمرونة والابتكار. وبالطبع كان لدى الناس في أزمنة وأماكن مختلفة مثل هذه القيم ولكنها لم تكن سائدة بينهم كما حدث في القرنين الأخيرين في أوربا وأمريكا بحيث أصبحت هذه القيم، أي قيم الربح وزيادة الثروة، ذات اثر عظيم على الناس. وادعى ماكس فيبر أن هذه القيم أو هذه الروح تتصف بصفة العمومية في العالم الحديث. ولكن هذه الروح أصبحت قوية جداً في الغرب وذلك يستدعي تفسيراً علمياً. وأثار فيبر سؤالاً مؤداه كيف نشأت هذه الروح الرأسمالية أصلاً.

قرر فيبر أنه لابد أن يكون هناك عامل ما ارتبط بظهور الروح الرأسمالية أو شجع على ظهورها، وقرر أن هذا العامل كان هو قيام الحركة البروتستنطية ورأى أنه كانت هناك عناصر في الأخلاق البروتستنطية شجعت على ظهور الروح الرأسمالية، أولها وأهمها روح التقشف التي تتصف بها البروتستنطية والتي تشكل جانباً ضرورياً من الروح الرأسمالية. وأيضاً ذلك الاتجاه الدنيوي المستمد من تعاليم مارتن لوثر[1]. ومن عناصر هذه الأخلاق البروتستنطية أيضاً ذلك التأكيد على تنظيم الحياة الشخصية للأشخاص المسيحيين وعلاقاتهم الاجتماعية. ومجموع هذه العناصر أدت إلى خلق اتجاه عام في الأخلاق البروتستانطية يؤكد على ضرورة أن يحيا الإنسان حياته بطريقة منظمة ومرتبة ونشطة وتتسم هذه الحياة بالسمات اللاشخصية. وأهم شئ في ذلك الاتجاه هو تأكيد الأخلاق البروتستانطية على الروح الفردية وعلى الاتجاهات الدنيوية. وقد حاول فيبر أن يدرس العلاقة بين الدين وبين غيره من جوانب الحياة الإنسانية وخاصة الاقتصادية. ورأى أن هناك بعض

الاتجاهات الدينية يمكن أن تساعد على النشاط الاقتصادى بينما هناك اتجاهات دينية أخرى تشمل عقبة فى طريق التقدم الاقتصادى[١].

ويرى عالم الاجتماع الشهير ميتشل أن أهم إسهامات فيبر فى علم الاجتماع هى محاولته تفسير ذلك النسق الاجتماعى الاقتصادى المعروف باسم الرأسمالية على أسس تاريخية واجتماعية عن طريق استخدام الدراسات المقارنة. وقد استخدم لتحقيق هذا الهدف عدة أساليب للتحليل أهمها مفهوم النموذج المثالى أو النموذج الخالص ويرى ميتشل أيضاً أن فيبر كان يتمتع بالجرأة العقلية وبالالتزام السياسى وبالخصائص المهنية فى عاداته وأسلوب تحليله[١٨].

أهم معالم فكر ماكس فيبر :

يتضح لنا من عرضنا السابق أن فكر ماكس فيبر يتصف بالصفات الأساسية التالية :

أولاً : الالتزام الايديولوجى الواضح بالنظام الرأسمالى وتمجيده واعتباره النظام الأمثل للبشرية الذى يجب الحفاظ عليه وإدخال التحسينات والتعديلات به، ويرتبط بذلك نزعة عنصرية واضحة تتمثل فى الدعوة إلى سيطرة ألمانيا على غيرها من البلدان.

ثانياً : أصبح ماكس فيبر عالم اجتماع عن طريق اشتباكه فى جدل طويل وعنيف مع شبح كارل ماركس كان هدفه إثبات خطأ أفكار ماركس الثورةي وتحدى إدعاء ماركس بأن الاشتراكية أرقى من الرأسمالية من الناحية الإنسانية والأخلاقية.

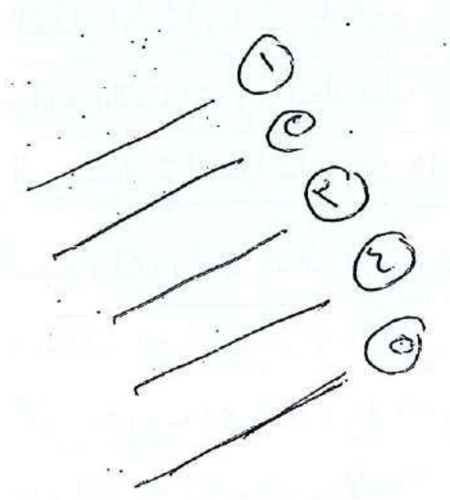
ثالثاً : افترض ماكس فيبر أن أساس الواقع الاجتماعى سيكولوجى فكرى وبالتالى فإن موضوع علم الاجتماع يصبح دراسة أشكال هذا الواقع السيكولوجى.

رابعاً : وحدة التحليل الأساسية عند فيبر هى الشخص الفاعل ولابد من اختزال كل المفهومات الأخرى مثل الدولة أو الرابطة أو النظام الاجتماعى إلى فعل يمكن فهمه، أى إلى أفعال الأفراد المشتركين فى النشاط.

خامساً : على الرغم من أن فيبر لم ينكر أهمية العوامل المادية فى المجتمع إلا أنه رأى أنها تابعة للعوامل الفكرية وليست أصلاً لها.

سادساً : صور فيبر الإنسان على أنه أسير واقعه الاجتماعى وأنه ليس قادراً على تغييره وحذر من الثورة فالعمال قد يكسرون أغلالهم بالثورة ولكنهم لن يكسبوا شيئاً من ورائها.

سابعاً : أن أنماط ماكس فيبر الخالصة أو المثالية عن السلطة وعن الفعل الاجتماعى أنماط تصورية لا تستند على أدلة واقعية كما أن افتراضاته عن الطبيعة المثالية للواقع الاجتماعى وبخاصة مقولته التى مؤداها أن الرأسمالية نشأت عن الروح البروتستانطية لا تستند على أدلة تاريخية امبريقية.



هوامش الفصل السادس :

١- Raymond Aron Main Curents in Sociological Thought, Penguin Books, England. 1967, p.253.

٢- See Albert Salmon's article, "German Sociology" in George Gurvithc and Wilbert E. Moore: Twentieth-Ccentury Sociology (New York: The philosophical library, 1941), p.566.

٣- Michael Harrington. The Wilight of Capitalism (The Macinillan Press, New York, 1977), pp.15-16.

٤- Aron: op.cit., pp.254-255.

٥- Geoffrey Hawthoron, Enlghtenment and Despari, A History of Sociology (Cambridge University Press, London, 1976), p.149.

٦- Ibid. p.153.

٧- Ibid, p.155.

٨- Max Weber. The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism, Scribner, New York, 1958.

* الفهم التفسيرى (Vestehen) عند فيبر هو الخطوة الأساسية نحو التوصل إلى علاقات سببية بين الأشياء، وفهم المعنى الذاتى للنشاط الذى يأتيه الفرد يصبح سهلا إذا تعاطف معه الباحث أو وضع نفسه مكان (Einfuehlung).

٩- Max Weber, Basic Concepts in Sociology (New York, The Citadel Press, 1946), p.29.

١٠- Hans Girth and C. Wright Mills (eds.) From Max Weber: Essays in Sociology (New York, Oxford University Press, 1964, p.55.

١١- Raymond Aron, op.cit., pp.185-192

١٢- Edward Shils and Henry Finch, (eds.), Max Weber. On the Methodology of the Social Sciences (New York, The Free Press 1949), p.90.

١٣- Aron, op.cit., p.186.

١٤- Hans Girth and C. Wright Mills, From Max Weber: Essays in Sociology (New York, Oxford University Press, 1946).

١٥- Max Weber. The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism.

١٦- مارتن لوثر (١٧٤٢-١٥٤٦)، زعيم حركة الإصلاح الدينى البروتستانتى في ألمانيا.

١٧- يجب أن نلاحظ أن الكثير من الكتابات الحديثة عن الدول النامية أو المتخلفة تتبنى هذه الفكرة وترجع التخلف الاقتصادى والتكنولوجى لدول العالم الثالث بشكل عام والدول العربية بشكل خاص إلى أسباب دينية. ويمكن للقارئ الاطلاع على نموذج لمثل هذه الإدعاءات الكاذبة فى كتاب رافائيل بتاى - العقل العربى والذى يؤكد فيه أن سبب تخلف الدول العربية هو تمسكها بالدين الإسلامى الذى يحث على التمسك بالمعتقدات والتقاليد القديمة ويحول دون تبنى الأفكار الحديثة أو يقف حائلاً دون تحديث العالم العربى.

١٨- Duncnan-Cithcall, A Hundred Years of Sociology, (Aladine Publishing Company, Chicageo, 1971), pp.48-101.

الفصل السابع

فلفريدو باريتو ونظرية الصفوة

الموقف الأيديولوجي لباريتو :

إذا كان ماكس فيبر قد لقب بكارل ماركس البورجوازية فإن فلفريدو باريتو (١٨٤٨ - ١٩٢٣) قد لقب بكارل ماركس الفاشية[1]. وقد اشترك كل من فيبر وباريتو في محاول هدم الأفكار الاشتراكية الماركسية وتقديم بديل عنها وتصدى كل منهما للدفاع عن النظام الرأسمالي وعن الطبقة الرأسمالية الحاكمة. ومثلما كان الالتزام الأيديولوجي لفيبر وغيره من رواد علم الاجتماع الغربي واضحا منذ البداية محددا لنظرياتهم الاجتماعية فإن التزام باريتو الأيديولوجي كان أيضا واضحا حتى قبل أن يكتب كلمة في علم الاجتماع وعندما كان يعمل مديرا لشركة للسكك الحديدية بإيطالية ومهندسا بمناجم استخراج الحديد. فقد كان المركيز باريتو عضوا بارزا في المنتديات البورجوازية ومخالطا دائما للطبقة الأرستقراطية العالية. ورفض بشدة الأفكار الديمقراطية والجمهورية وعارض أي تقييد للتجارة أو الاقتصاد وأي تدخل من جانب الحكومة في الأعمال الخاصة. وتشكل كتابات باريتو محاولة طموحة ولكنها فاشلة لهدم وإدانة مبادئ فلسفة التنوير في القرن الثامن عشر والتاسع عشر. وتعتبر كتاباته المستفيضة هجوما سافرا على النظريات الليبرالية - الديمقراطية والاشتراكية والماركسية بصفة خاصة[2]. وعبر باريتو خلال حياته مرارا وتكرارا عن احتقاره لمفهومات التقدم الإنسانية والديمقراطية وأطلق عليها تسمية "الديانات العلمية" التي رأى أنها عديمة القيمة مثلها مثل الديانات الأخرى[3]. فالاشتراكية والديمقراطية والإنسانية والمسيحية كلها أفكار غيبية وغير منطقية ويستخدمها البعض فقط من أجل خداع الآخرين لتحقيق أغراضهم الخاصة. ومفهومات الوطنية الشرف

والفضيلة لا أساس لها من الناحية الموضوعية ولا وجود لها وهى مجرد تعبيرات عن عواطف ذاتية.

وعداء باريتو للديمقراطية وللإنسانية والاشتراكية واتجاهه نحو الفاشية جاء بعد فترة اعتناقه للمبادئ الإصلاحية وفى ذلك يقول زايتلين :

"عندما كان باريتو شاباً يعيش فى فلورنسا كان يعارض العنف ويدعو إلى السلم Pacifist وإلى المبادئ الإنسانية وكان ليبراليا من ناحية النظرية الاقتصادية، ففى عام ١٨٩١ كتب يقول : إن الحرب والسلم المسلح من أكثر ألوان الرفاهية تكلفة والتى تلجأ إليها الطبقة الحاكمة على حساب الأمة" وكان أيضاً يعارض الاستعمار فكان يرى أن تونكين تكلف فرنسا كثيراً كما أن تونس لا تفيد إيطاليا إلا من حيث أن الاحتفاظ بها يتيح بعض الوظائف الإدارية لأبناء الطبقة البرجوازية. ولكن باريتو، لسبب غير معروف، اتخذ موقفاً معاكساً تماماً لذلك فيما بعد بحيث أصبح لا هم له سوى احتقار وكراهية الدعاوى الإنسانية وتصوير الطبقة المحكومة على أنها ضعيفة والصفوة الحاكمة على أنها رمز القوة.

ويرى بوسكيه أنه على الرغم من هذا التغير فإن باريتو ظل عند رأيه عن شرور الحرب. ولكن هذا الرأى غير سليم لأن باريتو أخذ يمتدح استخدام الصفوة للقوة فى الصراع الطبقى وكذلك فى الصراع بين الدول .. وعند نهاية القرن التاسع عشر أصبح باريتو من ألد أعداء الديمقراطية الإنسانية[٤].

ويرى كوزر أن كراهية باريتو للأفكار اليسارية التى تصل إلى حد المرض قد صبغت كل كتاباته وأن فقدانه للثقة فى الإنسانية، وهو استعداد شخصى لديه، قد تزايد بشكل ملحوظ عندما عاد من رحلة إلى باريس ليجد أن زوجته قد فرت مع الطباخ الذى كان يعمل لديهما وحملت معها ثلاثين حقيبة بها ما كان يملك من أشياء ثمينة، ومع ذلك لم يستطع أن يحصل على الطلاق منها لأن القانون الإيطالى لم يكن يبيح الطلاق[٥].

وقد كانت هناك علاقة وثيقة بين باريتو وبين الفاشية فى إيطاليا، بل بينه وبين موسولينى شخصياً. فبمجرد تولى الديكتاتور الإيطالى موسولينى للسلطة منحه باريتو كل تأييده، كما أن موسولينى كافأه على هذه التأييد للديكتاتورية وللفاشية بأن منحه مقعداً فى مجلس الشيوخ الإيطالى وكرمه فى كثير من المناسبات كما دعاه للكتابة فى المجلة الفاشية Gerachia التىكان يشرف عليها شخصياً. وقد طبق موسولينى البرنامج الذى دعا إليه باريتو فقضى على الليبرالية وعلى الحركة العمالية وفى نفس الوقت اتبع سياسة اقتصادية تقوم على منح كل الحريات للمشروعات الرأسمالية وتقييد تدخل الحكومة فى الاقتصاد وكان موسولينى شديد الإعجاب بباريتو لدرجة أنه عندما كان فى منفاه فى سويسرا سجل اسمه لحضور مقررين من المقررات التى كان يدرسها باريتو فى لوزان.

وقد أعلن كثيرون من المتحدثين باسم الفاشية أن كتابات باريتو كانت من المصادر الأساسية لأيديولوجيتهم. وقد وصف موسولينى نظرية باريتو عن الصفوة بأنها "أعظم النظريات السوسيولوجية فى العصر الحديث"(١).

وقد ظلت آراء باريتو مصدراً رئيسياً يلجأ إليه الفلاسفة ورجال السياسة وعلماء الاجتماع ليبرروا به آراءهم المحافظة وليواجهوا به الأفكار الاشتراكية. ويقرر ألفن جولدنر عالم الاجتماع الشهير أن أساتذة الجامعات الأمريكية عندما شعروا بخطر تغلغل الفكر الماركسى فى الجامعات الأمريكية فى الثلاثينات من هذا القرن لجأوا إلى علم الاجتماع الأوربى التقليدى ليستعينوا به فى مهاجمة الأفكار الاشتراكية وكان من أهم مصادرهم كتابات باريتو، فتكونت مجموعة من أساتذة جامعة هارفارد لهذا الغرض وأطلقت على نفسها مجموعة باريتو The Pareto Circle وقد ضمت هذه المجموعة تولكوت بارسونز وجورج هومانز وكرين ينتون وهندرسون، ونظمت حلقات دراسية Seminar عن باريتو بدأت فى خريف ١٩٣٢ وظلت تنعقد بانتظام

حتى ١٩٣٤ وانضم إليها أيضاً روبرت مرتون وهنرى موراى وكلايد كلاكهون. وقد اتخذت مجموعة باريتو هذه موقفاً سياسياً يمينيا محافظاً متطرفا لا يعارض الشيوعية فحسب ولكن يعارض أيضاً الاتجاهات الليبرالية الأمريكية المعتدلة. وكان من الواضح أن هذه المجموعة قد تكونت لأغراض سياسية وكانت تبحث عن تبرير نظرى لهجومها على الماركسية(٧).

هذا هو موقف باريتو الأيديولوجى فكيف عبر عنه فى نظريته الاجتماعية؟

علم الاجتماع عند باريتو :

لم يكتب باريتو فى علم الاجتماع بصفة خاصة سوى مؤلف واحد هو "مقدمة عامة فى علم الاجتماع" وهو مؤلف ضخم من مليون كلمة نشر عام ١٩١٦ (أى عندما كان باريتو فى الثامنة والستين من عمره باللغتين الفرنسية والإيطالية ولم يترجم إلى الإنجليزية إلا فى عام ١٩٣٥ حيث صدر بعنوان "العقل والمجتمع" أما قبل ذلك فقد نشر مجموعة من المقالات فى السياسة والاقتصاد. ونشر كتاباً بعنوان النظم الاشتراكية Les Systemes Socialistes عام ١٩٠٢ وكان عبارة عن تحليل نقدى للفكر الاشتراكى ولتدخل الحكومة فى الاقتصاد.

وقد أقام باريتو نظريته الاجتماعية على أسس وضعية أكثر تطرفا من تلك التى أقام عيها كونت نظريته (الواقع أنه تأثر بكونت كثيراً على الرغم من عدم اعترافه بذلك). ورأى أن علم الاجتماع لابد أن يصبح علماً تجريبياً منطقياً يعتمد على الملاحظة والتجربة إلى أقصى درجة بحيث يتجنب تماماً أى استنتاجات أو تأملات تخرج عن نطاق الوقائع التى يلاحظها، ولا يجب أن يحتوى علم الاجتماع على أى شئ سوى وصف الوقائع التى يلاحظها، وكيفية

انتظامها ولا يجب أن يسعى إلى البحث عن علاقات سببية أو إلى دراسة ظاهرات كيفية(٩).

وهنا تبرز أولى المسلمات التى يرتكز عليها فكر باريتو بأسره والتى تحمل ايديولوجيته فى نفس الوقت "فهو يسلم أن موضوع العلم هو الوقائع القائمة التى يجب أن يتخذ منها العالم موقفاً إيجابياً لا موقفاً نقدياً أو سالباً وهو يلغى بذلك تماماً الذات المفكرة عند العالم مثلما فعل كونت ويستبدل بها الذات المدركة. والوقائع التى يدرسها علم الاجتماع هى بالطبع وقائع النظام الاجتماعى القائم. كما أن باريتو بذلك إنما ينفى تماماً أهمية البعد التاريخى فى فهم الظاهرات الإجتماعية ويرى أن تفسير الماضى يجب أن يكون من خلال الحاضر، لا العكس، أى تفسير الحاضر على ضوء الماضى(١).

ولكن أى وقائع تلك التى يجب أن يركز علم الاجتماع على دراستها والتى يعتبرها باريتو أساس الحياة الاجتماعية؟ أنها بالطبع ليست الوقائع المتعلقة بالعلاقات الاجتماعية - الاقتصادية كما يرى غريمة ماركس ولكنها الوقائع السيكولوجية. فالقوة الأساسية فى المجتمع والتى تحدد كل السلوك الإنسانى فى رأى باريتو هى العاطفة Sentiment وهى بمثابة غرائز أو ميول إنسانية فطرية ذات طبيعة ثابتة لا تتغير. ولذلك أطلق عليها تسمية الثوابت Constants. ولكن هذه العواطف لا يمكن ملاحظتها بشكل مباشر ويمكن فقط الاستدلال عليها من خلال الأفعال التى يأتيها الأفراد Actions ومن خلال التبريرات التى يقدمونها لهذه الأفعال فى صورة أفكار أو نظريات أو عقائد ويحاولون بها إضفاء الطابع المنطقى على أفعالهم غير المنطقية. وإذا كانت العواطف ثابتة لا تتغير فإن الأفعال والتبريرات التى يقدمها الناس لها تتخذ صوراً مختلفة. وعلى هذا فإن المعتقدات والأيديولوجيا ليست سبباً فى السلوك الإنسانى ولكنها مجرد تبرير له أو محاولة لجعله يبدو منطقياً" وكل العقائد والأيديولوجيات والنظريات (مثل الدين والاشتراكية والإنسانية

والديمقراطية..الخ) ليست سوى أساطير يبتدعها الناس لتبرير أفعالهم غير المنطقية وتختلف هذه الأساطير من آن لآخر وبين قوم وقوم آخرين ولكنها جميعها تشترك فى أنها تبرير لفعل واحد يعبر عن عاطفة واحدة. فالصينى والمسلم والكاثوليكى والكانتى والهيجلى والمادى جميعاً يمتنعون عن السرقة (فعل واحد) ولكن كلاً منهم يبرر سلوكه تبريراً مختلفاً، وهذا التبرير ليس السبب الحقيقى فى امتناعهم عن السرقة ولكن السبب الرئيسي يكمن لديهم جميعاً فى عاطفة إنسانية واحدة مشتركة هى عاطفة احترام الذات.

والعواطف أو الغرائز الإنسانية ذات الطابع الفطرى والبيولوجى ليست موضوع علم الاجتماع ولكنها موضوع دراسة علم النفس، ويجب على علم الاجتماع أن يبدأ بالتسليم بها كحقائق ثابتة. ويرتبط بهذه العواطف ثلاثة عناصر أساسية هى التى تشكل موضوع اهتمام علم الاجتماع هى:

(أ) الرواسب.

(ب) والأفعال.

(جـ) والمشتقات(*).

(أ) الرواسب Residues:

وهى عبارة عن اتجاهات نفسية ثابتة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالعواطف والغرائز وتقع فى مركز وسط بين العواطف والفعل الإنسانى وأسماها بالرواسب لأنها ثابتة وغير متغيرة. ودراسة هذه الرواسب تمكننا من التعمق فى أسباب الأفعال الإنسانية. ورأى باريتو أنه على مر تاريخ الغرب وجدت دائماً ست فئات من الرواسب التى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بغرائز إنسانية أساسية معينة هى:

١- غريزة الترابط Instinct for Combination وهى عبارة عن الميل إلى إقامة علاقات بين الأفكار والأشياء واستخلاص استنتاجات من

مبادئ معينة والميل إلى التفسير. وهذه الغريزة هى التى جعلت الإنسان إنساناً وجعلت لديه أفعالاً وتعبيرات ونظريات وتبريرات. وهذه الغريزة هى السبب فى تقدم الفكرى للإنسان وفى تطور الذكاء والحضارة وحين تكثر هذه الفئة من الرواسب فى مجتمع ما فإنه يكون مجتمعاً متقدماً.

٢- استمرارية الترابطات Persistence of aggregates ويعنى بذلك الميل الإنسانى إلى الحفاظ على الارتباطات التى أقامها الإنسان بين الأشياء والأفكار ورفض التغير، وهذا الميل الفطرى عكس غريزة الترابط السابق الحديث عنها. فبعد أن تتكون ارتباطات معينة بين الأشياء والأفكار تبدأ غريزة الاستمرارية عملها بدرجات مختلفة من القوة لكى تحول دون الفصل بين الأشياء التى تم الربط بينها. أى أنه إذا كانت الفئة الأولى من الرواسب (الترابط) تؤدى مهمة التغيير فإن هذه الفئة تؤدى مهمة الثبات فى المجتمع.

٣- الحاجة إلى التعبير عن العواطف بأفعال خارجية (التعبير عن الذات) The need of expressing sentiments by external acts. مثال ذلك اللجوء إلى طقوس معينة مثل التصفيق أو صيحات المرح أو الغضب ..الخ.

٤- الرواسب التى ترتبط بغريزة تكوين مجتمعات والانتماء إليها Sociability وترتبط هذه الفئة من الرواسب بالفئة الثانية الخاصة باستمرارية التجمعات. وتتصل اتصالاً وثيقاً بالنظام Discipline فى المجتمع. فجميع الناس لديهم ميل فطرى لتكوين روابط أو تجمعات وخاصة الروابط الاختيارية. وهذه الروابط (مثل فريق قومى لكرة القدم أو حزب سياسى) تستثير عواطف تحافظ على استمرار بقائها.

كما أن جميع الناس لديهم ميل إلى الوحدة فى الشعور والتفكير need for uniformity يجعلهم يعاقبون من يخرج على هذه الوحدة. وهذا

الميل إلى الوحدة فى الشعور والتفكير يوجد حتى لدى من يدعون إلى حرية العقيدة. ويعبر هذا الراسب عن نفسه فى أسلوب اللبس والتصرفات المختلفة الموحدة وترتبط به عواطف مثل الشفقة pity والقسوة cruelty والخوف المرضى من الجديد Neophobia.

٥- راسب تكامل الشخصية Integrity of personality ويشير إلى الدافع نحو المحافظة على الذات وحمايتها من أى شئ يمكن أن يصيبها بالإضرار وهذا الراسب هو الذى يجعلنا نقاوم أى هجوم على ذاتنا أو على المجموعة التى تنتمى إليها أو على المركز الاجتماعى الذى نحتله أو على المجتمع الذى نعيش فيه.

٦- راسب الجنس The sex residue وهو غريزة أساسية عند الإنسان وتهم عالم الاجتماع فقط من حيث ارتباطها بالفلسفات أو الديانات التى تدعو إلى الفضيلة الجنسية Virtuist religions.

(ب) الأفعال Actions

- هى تلك التصرفات الظاهرة والملموسة concrete التى يمكننا ملاحظتها. وهذه الأفعال أما منطقية Logical أو غير منطقية Non logical وقد سلم باريتو منذ البداية أن غالبية أفعال الإنسان غير منطقية. وقد عرف باريتو الأفعال المنطقية بأنها "تلك التى تستخدم أساليب مناسبة لأهدافها والتى تربط بين الأساليب والأهداف ربطاً منطقياً". وهذا النوع من الأفعال لا يتوفر إلا فى المجال العلمى والاقتصادى أما ما عدا ذلك من المجالات فالغلبة للأفعال غير المنطقية، فالإنسان بطبعه لا عقلانى وتحركه قوى غير منطقية والأفعال غير المنطقية تنجم أساساً عن حالات سيكولوجية وعواطف ومشاعر لا شعورية، ووظيفة علم النفس هى بحث هذه الحالات ووظيفة علم الاجتماع هى وصف الأفعال غير المنطقية وتصنيفها وربطها بالعواطف أو بالرواسب الثابتة المؤدية إليها وبالتبريرات الفكرية التى يقدمها الإنسان لأفعاله غير

المنطقية هذه. وليس من وظيفة علم الاجتماع دراسة الأفعال المنطقية. وعلى ذلك فحين يقرر باريتو أن هدف علم الاجتماع هو دراسة المجتمع الإنسانى بوجه عام وتقديم نظرية عامة عن المجتمع فإنه يعنى دراسة السلوك أو الفعل غير المنطقى ودوافعه وتبريراته وما يترتب على ذلك من تنظيمات اجتماعية

(جـ) المشتقات **Derivations :**

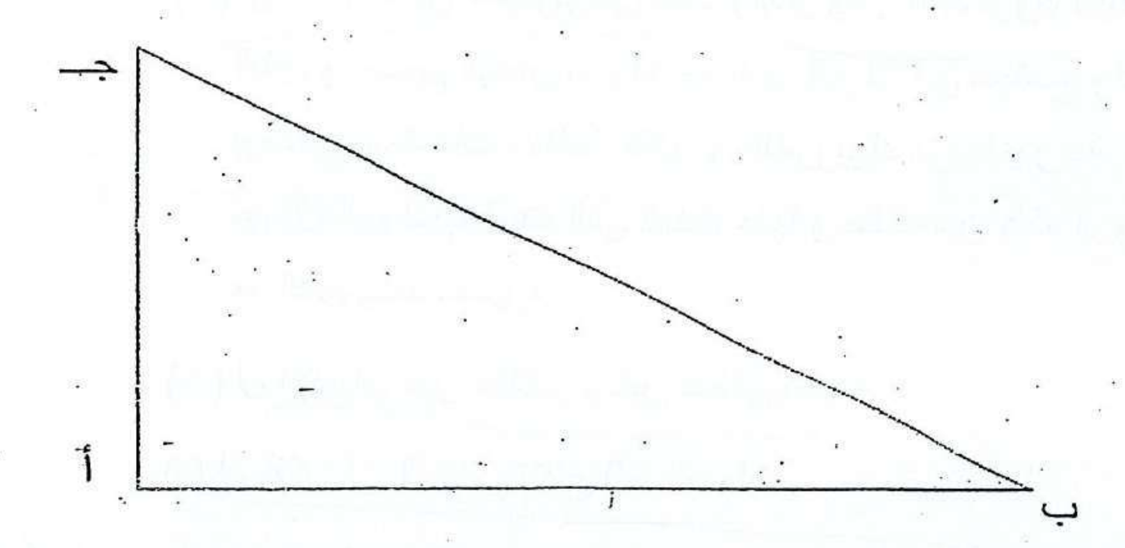
إذا كان السلوك الإنسانى فى معظمه سلوكاً غير منطقى وغير عقلانى وتحركه قوى ثابتة ذات طابع بيولوجى وفطرى هى الغرائز أو العواطف التى ترتبط بها الرواسب الست التى ذكرها باريتو فإن هناك تبريرات فكرية غير ثابتة ومتغيرة يلجأ إليها الإنسان ليكسب أفعاله غير المنطقية الصفة المنطقية وهذه التبريرات تتمثل فى الأديان والعقائد والأيديولوجيات والنظريات غير العلمية والقيم والمثل العليا. ويرى باريتو أنه من الخطأ أن نعتبر هذه الأشياء الأسطورية سبباً فى السلوك الإنسانى لأن الأسباب الحقيقية للسلوك تكمن فى العواطف والرواسب. مثال ذلك أن لدى الإنسان رعباً حقيقياً من القتل وتلك عاطفة أو غريزة ثابتة لديه ولذلك فإنه لا يقتل، ومع هذا فإنه يبرر عدم ارتكابه للقتل بأن يقول لنفسه "أن الآلهة تعاقب القتلة" ويتصور أن هذا هو السبب الذى يجعله يمتنع عن القتل. ومثل هذا القول ليس إلا تبريراً لفعله غير المنطقى الذى تدفعه إليه غريزة أو عاطفة ثابتة لديه. ويختلف هذا التبرير من آن لآخر ومن مجتمع لآخر بينما العاطفة التى تجعل الإنسان عاجزاً عن القتل ثابتة. ولذلك أسمى باريتو مثل هذه التبريرات بالمشتقات لأنها متغيرة وغير ثابتة. فالآلهة التى يتوهم الإنسان أنها تحرم القتل مختلفة؛ فقد تكون فى المسيحية أوفى الأيديولوجية الإنسانية أو فى الماركسية ..الخ. وعلى ذلك لا يجب علينا أن نصدق أو نثق فى أى نظريات أو أيديولوجيات أو عقائد لأنها ليست سوى تبريرات لأفعال غير منطقية الدافع إليها عواطف وغرائز إنسانية، ويضرب باريتو المثال التالى فى مؤلفه الضخم "مقدمة عامة فى علم الاجتماع".

"إن السياسى الذى يروج لنظرية التماسك الاجتماعي إنما يفعل ذلك فى الحقيقة لتحقيق رغبة أساسية لديه للحصول على المال أو القوة والامتيازات .. ولكنه إذا قال للناس: آمنوا بالتماسك لأنكم إذا فعلتم فإن ذلك يعنى حصولى على المال" فإنه سوف يكون مثارا لضحك الناس ولن يحصل على أصوات تذكر. ولهذا فإنه لابد أن يغلف أطماعه بمبادئ يقبلها الناخبون .. وعادة ما يلجأ الشخص الذى يريد استمالة الآخرين إلى استمالة نفسه أولا، وحتى إذا كان الذي يحركه فى البداية أفكار متعلقة بمصالح شخصية فإنه يصل فى نهاية الأمر إلى الاعتقاد بأن اهتمامه الحقيقي إنما هو بمصالح الآخرين ورفاهيتهم".

ويصنف باريتو المشتقات (أى الأساليب التى يلجأ إليها الناس ليخفوا بها حقيقة أفعالهم ويبرروها) إلى عدة فئات هى: (١) مجرد التأكيد Simple affirmation أى ذكر حقائق واقعية أو متخيلة، (٢) اللجوء للسلطة Authority أى للتفسير الكاذب للأحداث عن طريق الاستعانة بقوة وسحر الماضى والتقاليد والعادات أو الإرادة الإلهية. (٣) الاتفاق مع العواطف أو المبادئ accord with sentiments or principles وهى المشتقات التى تحاول تبرير الأفعال غير المنطقية على أساس الحقيقة المفترضة بأنها من أجل صالح الآخرين، (٤) البراهين اللفظية Verbal proofs والتى تعنى استخدام ألفاظ لا تتفق مع الحقائق واستخدام التشبيه والبلاغة.

وقد رأى باريتو أن هذه المشتقات ليست سوى أسباب كاذبة يقدمها الناس لسلوكهم. فالحقيقة فى رأيه أن الناس لا يقومون فى البداية بصياغة أفكار ونظريات ثم يتصرفون تبعا لما تمليه عليهم أفكارهم ونظرياتهم ولكن العكس هو الصحيح فالناس يتصرفون أولا ثم يبحثون عن أفكار ونظريات تبرر تصرفاتهم.ولست هناك علاقة سببية بين الفكر التبريرى (المشتقات) والفعل action فكلاهما نتاج لغرائز أو عواطف أساسية ثابتة هى الرواسب

residues. ويرمز باريتو للعاطفة الإنسانية، وهى المصدر الأساسى للفعل غير المنطقى بالرمز (أ) وللنظريات التى يفسر الناس بها سلوكهم (المشتقات) بالرمز (ب) والفعل بالرمز (جـ) ويقدم الرسم التالى لتوضيح العلاقة بين هذه العناصر الأساسية الثلاثة :



ويقصد باريتو القول بأنه على الرغم من أن هناك علاقة اعتمادية مبادلة بين أ، ب ، جـ (أى بين العواطف أو الرواسب والفعل والمشتقات) إلا أن أ تؤثر بشكل مستقل على كل من ب ، جـ (أى أن العواطف هى السبب المباشر لكل من الفعل والمشتقات) أكثر من تأثير ب (أى المشتقات) على جـ (أى الفعل).

وقد أفرد باريتو جزءاً كبيراً من مجلده (مقدمة فى علم الاجتماع) لتحليل ما أسماه بالديانات العملية أى كل فلسفة عصر التنوير وخاصة النظريات الاشتراكية بوصفها أساطير لتبرير أفعال غير منطقية أى بوصفها مشتقات.

هذه هى عناصر التحليل الأساسية فى نظرية باريتو : الرواسب والمشتقات والفعل. وقد استخدام بايتو هذه العناصر فى تحليل المجتمع الإنسانى ونظمه المختلفة.

ويتضح من عرضنا لهذه العناصر أن باريتو قد استند إلى المسلمات الآتية:

(أ) أن أساس الواقع الاجتماعى سيكولوجى وفطرى وبيولوجى (الغرائز والعواطف والرواسب).

(ب) أن هذا الأساس السيكولوجى ثابت وأبدى وأن هناك فروقاً ثابتة بين الناس وبعضهم البعض سواء بوصفهم أفراداً فى مجتمع واحد أو بوصفهم مجتمعات مختلفة. فكل من الناس يولد مزوداً بدرجة معينة من كل الرواسب الست التى تحدث عنها وحظه من هذه الرواسب هو الذى يحدد مصيره.

(جـ) أن الإنسان غير عقلانى وغير منطقى بطبعه.

(د) أن الفكر فى المجتمع نتائج للغرائز وليس سوى تبرير لها.

وهذه المسلمات التى يقيم عليها باريتو نظريته لا تنهض عليها أى أدلة امبيريقية، بل أن الأدلة تنفيها فى الحقيقة. وما حاول باريتو أن يقدمه كأدلة على صدقها ليس سوى، على حد تعبير زايتلين، أمثلة انتقاها بطريقة عمدية من التاريخ ولا تزيد عن محاولة من جانبه لإيضاح فكرته Illustration وهذه المسلمات ذات طبيعة ميتافيزيقية وتتنافى تماماً مع ما ادعاه باريتو من صفة العلمية[١١].

ويؤكد كوزر أن هذه المسلمات التى استند عليها باريتو قد ساعدته فى تبرير أيديولوجيته وموقفه السياسى الذى طغى على كل كتاباته. وقد استخدم باريتو هذه المسلمات فى تفسير الحركات الاجتماعية التى يعارضها وفى تفسير التغير الاجتماعى وديناميات التاريخ[١٢].

النسق الاجتماعى عند باريتو Social system :

بعد أن قدم باريتو تصوره عن الإنسان، ذلك المخلوق الغريب والقوى الخفية الفطرية التى تحركه (الغرائز) وما يرتبط بها من رواسب والتبريرات

التى يخترعها ليبرر بها سلوكه غير المنطقى (المشتقات) انطلق ليشرح لنا كيف يسير المجتمع ويؤدى وظائفه بناء على تصوره ذلك على أساس الحياة الاجتماعية.

رأى باريتو أن المجتمع يمثل نسقا System مثل النسق الفيزيقى - الكيميائى، أى أنه عبارة عن كل يتكون من أجزاء أو عناصر يعتمد كل منها على الآخر بحيث أن أى تغير فى أحد الأجزاء يؤدى إلى تغيرات تكيفية فى بقية الأجزاء. وعناصر النسق الاجتماعى فى رأى باريتو هى الأفراد ومصالحهم ودوافعهم وعواطفهم والذى يحدد شكل النسق الاجتماعى فى أى وقت عناصره الداخلية أى الرواسب والمشتقات التى ترتبط بالغرائز أو العواطف. ولكن هناك ظروف أخرى تؤثر على النسق الاجتماعى وتخرج عن نطاق المجتمع مثل البيئة الطبيعية والمجتمعات الأخرى، ولكن تأثير هذه الظروف ليس بمثل قوة وتأثير العناصر للمجتمع الداخلية.

إن ثبات المجتمع أو تغيره أو فناءه يعتمد بصفة أساسية على نوعية الرواسب التى تسود فيه. هذه الرواسب ثابتة ولكن الأهمية النسبية لكل منها بالنسبة لمجتمع ما تتغير تغيرا طفيفا على مر الزمن. وأهم شئ مسئول عن التغير التاريخى هو التغير فى القوة النسبية لكل من الرواسب من الفئة الأولى (أى غريزة التكامل) ومن الفئة الثانية (أى رواسب استمرارية التجمعات) والتغير فى هاتين الفئتين من الرواسب قد يحدث بفعل تغيرات فى البيئة الطبيعية تؤدى إلى نوع من التكيف فى الغرائز الأساسية وبعض التعديل فيها والرواسب هى التى تحدد مصير الناس والدول. وهذه الرواسب ليست موزعة بالتساوى بين الأفراد أو بين الطبقات الاجتماعية أو بين المجتمعات: فهناك أفراد يتمتعون برواسب قوية من الفئة الأولى (غريزة التكامل) وآخرون يتمتعون برواسب قوية من الفئة الثانية (استمرارية التجمعات)، كما أن هناك مجتمعات بأسرها يسود فيها هذا النوع أو ذلك من الرواسب.

ويرتبط التفوق لدى الأفراد والجماعات فى المجتمع الواحد أو فى المجتمع بصفة عامة بقوة الرواسب من الفئتين الأولى والثانية ويرتبط التخلف والتبعية بضعف هذه الرواسب.

التمايز الاجتماعي والصفوة:

لابد أن يكون بالمجتمع تمايز اجتماعى نظرا للتمايز بين الأفراد والمجموعات فيما لديهم من غرائز فطرية بيولوجية يترتب عليها تمايز فى القوى العقلية والأخلاقية والفيزيقية والشخصية والذكاء والمهارة والقدرات. وعلى هذا فإن المجتمع ينقسم إلى فئتين أو طبقتين من الأفراد. المتفوقون وغير المتفوقين (وهم الغالبية العظمى) وقد أطلق على الفئة الأولى اسم الصفوة elite وتضم هذه الفئة من لديهم الاستعدادات الفطرية للتفوق أى من تكون لديهم الرواسب من الفئة الأولى والثانية قوية إلى حد كبير. وهذه الصفوة تتفوق فى جميع المجالات: فى مجال الدعارة أو السرقة أو القانون أو الطب، وهى الفئة المؤهلة لحكم بقية الناس فى المجتمع. وتنقسم الصفوة إلى قسمين: الصفوة الحاكمة governing elite أى أولئك الذين يلعبون دورا هاما فى الحكم والصفوة غير الحاكمة Non-governing elite. هذان القسمان يشكلان سويا الطبقة العليا فى المجتمع. أما الطبقة الدنيا أو اللاصفوة Non-elite فليست موضوع اهتمام باريتو لأن تأثيرهم السياسى فى المجتمع يكون منعدما تماما لأن الرواسب من الفئتين الأولى والثانية لديهم ضعيفة ولا يمكن أن يصلوا أبدا إلى الحكم ولابد أن يظلوا محكومين وخاضعين للصفوة بقسميها.

وهكذا نرى أن التنظيم السياسى للمجتمع فى رأى باريتو يعتمد على كيفية توزيع الرواسب التى ترتبط بالغرائز أو العواطف الفطرية بين الناس فى المجتمع ليس هذا فحسب ولكن هذه الغرائز تحدد أيضا الحياة الفكرية فى المجتمع وأنساق المعتقدات والأهم من ذلك الحالة الاقتصادية للمجتمع. ويرتبط كل ذلك بالطبع بمسلمة باريتو عن طبيعة الحياة الاجتماعية وأساسها، ونلاحظ

هنا أن المتغير الرئيسى الذى يحدد كل ما عداه من متغيرات المجتمع هو المتغير البيولوجى الوراثى الثابت. وقد لاحظ كثر من علماء الاجتماع الصلة الوثيقة بين باريتو وبين النازية والعنصرية والفاشية من حيث اعتمادهم جميعا على نفس هذه المسلمة التى تهدمها كل الأدلة العلمية ومن حيث محاولتهم جميعا إضفاء صفة العلمية على ادعاءاتهم الكاذبة ذات الأغراض الاستغلالية والسياسية الصارخة.

دورة الصفوة والتغير الاجتماعى :

ميز باريتو داخل الصفوة نوعين فقرر أن هناك نمطا أسماه المضارب[١٣] Speculator وهو الذى تغلب لديه رواسب الفئة الأولى (غريزة التكامل) (ويشبه الثعلب كما يسميه ميكيافيللى) ونمطا آخر أسماه المحافظ rentier (ويشبه الأسد كما يسميه ميكيافيلى) وتغلب لديه رواسب الفئة الثانية (استمرارية التجمعات) والنمط الأول (المضارب) لديه استعداد فطرى للحركة على المستوى الاقتصادى، فهو يستطيع الدخول فى مشروعات مالية كبيرة وأن ينشئ ويدمج الشركات ويعيد الدمج بينها، وكذلك على المستوى السياسى حيث يستطيع أن يعقد الاتفاقيات السياسية وأن يكون قوى سياسية ويمزج بينهما وأن يشيد إمبراطوريات سياسية. والأشخاص الذين ينتمون إلى هذا النمط قادرون على الابتكار وعلى تجربة الجديد وعلى الخروج على المألوف، ولكنهم لا يدينون بالولاء لأى مبادئ أو فضائل.

وأما النمط الثانى، أى المحافظ فإنه يمثل القوى المحافظة اجتماعيا، والأشخاص الذين ينتمون إليه لديهم مشاعر قوية بالولاء للأسرة والقبلية والمدينة والأمة وتظهر لديهم النزعات الوطنية والدينية ولا يهاجمون ويلجأون استخدام القوة والعنف عندما يجدون ضرورة لذلك.

وحين يسود النمط الأول (الثعلب - والمغامر) فى الصفوة الحاكمة فإن المجتمع يمر بتغير سريع نسبيا، بينما يكون التغير بطيئا حين يسود النمط

الثانى (الأسد - المحافظ) فى الصفوة الحاكمة. ورأى باريتو أن هناك دورة للصفوة على مر التاريخ حيث يسود النمط الأول ويتولى الحكم فى فترة ما فيحدثون تغيرا فى المجتمع حتى يأتى الوقت الذى تصبح سيطرتهم على الحكم مهددة لتوازن المجتمع ويصابون أيضا بالضعف فيهجم عليهم الأسود المحافظون ويستولون على الحكم ويحققون الثبات والاستقرار مرة أخرى، ولكن بعد فترة من الزمن يبدأ الثعالب المغامرون فى التغلغل فى الحكومة نظرا لما يتمتعون به من مهارات وكفاءات ثم يستولون على الحكم. وبذلك فإن التاريخ يكرر نفسه دائما بحيث يشهد المجتمع نفس الدورة التى يحل فيها نمط المغامرين محل نمط المحافظين وهكذا..

وهذا التحول الدورى المستمر يرتبط دائما بالتوازن فى النسق الاجتماعى. وليس هناك جديد فى التاريخ وكل اعتقاد فى التقدم أو التطور ليس إلا خزعبلات.

وقد حاول باريتو أن يقدم أمثلة من التاريخ القديم لإثبات صحة وجهة نظره، ولكن أمثلته كانت مليئة بالمغالطات ولا تشكل دليلا منطقيا يمكن الاعتماد عليه.

وقد أفصح باريتو عن الإجراءات العملية لنظريته فى مجلده الضخم عن علم الاجتماع حيث قدم نصائح صريحة للطبقة الحاكمة تمكنها من السيطرة على الناس فى المجتمع. فهو يقول مثلا فى المجلد الثالث من الكتاب: من صالح المجتمع أن يقبل كل الأفراد الذين لا ينتمون للطبقة الحاكمة بتلقائية الأوضاع القائمة فى المجتمع وأن يحترموها ويحبوها وإلا يخرجوا عليها. ونصح الصفوة بأن تستغل مشاعر الجماهير الجاهلة التى تعجز دائما عن أن تتعلم، ويجب على هذه الصفوة أن تستغل إلى أقصى درجة الخرافات التى تسود بين الجماهير الجاهلة ولكن يجب عليها فى نفس الوقت إلا تصدق هذه الخرافات وأن تجعل منها هدفا تسعى إلى تحقيقه (مثل الدين أو العدالة أو

الحرية ..الخ) لأنها أن فعلت ذلك فسوف يكون فى ذلك دمارها ، بل يجب أن تستخدمها فقط فى استمالة الناس أى أن تجعلها وسيلة لا غاية (يلاحظ هنا تطابق آراء باريتو مع آراء ميكيافيللى).

ولكن على الصفوة الحاكمة أن تحول دون إدراك الجماهير لذلك، وهنا يكشف باريتو بنفسه زيف إدعائه بأن تفوق الصفوة وغباء الجماهير شئ أبدى. فهو قد حذر من إمكانية إدراك الجماهير لتضليل الصفوة الحاكمة لهم، وذلك يعنى أن هذه الجماهير قادرة على التعلم وعلى التفوق ولكن يجب على الصفوة الحاكمة أن تحافظ بكل الوسائل على جهل الجماهير وتخلفهم حتى تضمن دوام الحكم لها. يجب على الصفوة الاستمرار فى جهل الجماهير

كذلك دعا باريتو الصفوة الحاكمة إلى استخدام القوة والعنف كلما لزم الأمر وقرر أن عدم القدرة على استخدام العنف ليس فضيلة ولكنه من قبيل الضعف. وقد جاءت الفاشية ترجمة عملية لآراء باريتو النظرية التى أثبت العلم زيفها كما أثبتت الشعوب أن مسلماته ليست سوى خرافات أريد بها تضليل الناس وقدمت هزيمة الفاشية دليلا ملموسا على فساد نصائح باريتو وما ألحقته بالبشرية من دمار.

ومع ذلك فإن آراء باريتو مازالت مصدرا تلجأ إليه الرجعية المعاصرة لتستمد منه مبررات لفكرها، وسوف نلاحظ أن كتابات بعض علماء الاجتماع المعاصرين تحتوى على مسلمات باريتو عن الإنسان والمجتمع والتوازن الاجتماعى والصفوة.

هوامش الفصل السابع :

١- أطلق عليه هذا اللقب العالم الأمريكى ويليام ماكدوجال. انظر فى ذلك:

Lewis Coser. Masters, of Sociological Thought, (Harcourt Brace Jovanovich. Inc. New York, 1977), p.123.

٢- Irving M. Zeitlin, Ideology and the Development of Sociological Theory (Prentice Hali, Inc. New Jersey, 1968), p.159.

٣- نيقولا تيماشيف: النظرية فى علم الاجتماع، مرجع سبق ذكره، ص٣٦١.

٤- Irving M. Zeitlin, op.cit., pp.161-162.

٥- Lewis Coser, op.cit., p.405.

٦- Lewis A. Coser op.cit., pp.400-407.

٧- Qouted form: Barbara S, Heyl, "The Harvard Pareto Circle", Journal of the History of Behavioral Science, IV No.41. 1968, pp.316-334, by Alvin Gouldner. The Coming Crisis of Western Sociology, p.149.

٨- Arthur Levingston (ed.), Mind and Society 4 vols. (New York: Harcourt Brace 1935).

٩- Don Martindal Nature and Type of Sociological Theory Routledge and Kegan Paul, London, 1967, pp.101-120

١٠- نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع، ص ٢٦٠

* اعتمدنا فى عرضنا لأفراد باريتو على المراجع الأساسية التالية :

- Don Martindal, Nature and Types of Sociological Theory.

- Raymond Aron, Main Currents in Sociological Thought.

Irving Zeitlin: Ideology and Sociological theory.

Lewis Coser: Masters of Sociological Thought.

Talcot Parsons, Vilfredo Pareto, in the International Encyciopedia of the Social Stiences.

وجميع هذه المراجع اعتمدت بصفة أساسية على مؤلف باريتو:

Treatise on General Sociology.

١١- Zeitlin, op.cit., p.160

١٢- Coser, op.cit., p.393.

١٣- ظهرت فى بعض الترجمات العربية ترجمة الكلمة Speculator بالمفكر هذه الترجمة لا تدل على المعنى الذى يقصده باريتو ولا تتفق مع السياق، فالذي يعنيه باريتو الشخص المغامر الذى يشترك فى المضاربات التجارية ويستثمر أمواله فى أى مشاريع جديدة دون خوف أو الذى يضارب فى المجال السياسى وهو على طرف النقيض من النمط الآخر أسماء باريتو Rentier ويعنى به الشخص غير المغامر الذى يتبع التقاليد ويختار الأسلوب الأكثر أمانا سواء فى المجال الاقتصادي أو المجال السياسى وهو شخص محافظ.

الفصل الثامن

كارل ماركس والمادية التاريخية

موقف ماركس الإيديولوجي :

أعلن كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣) تحيزه الإيديولوجي بوضوح منذ البداية، كما أنه بدلاً من أن يحاول إخفاء الصلة بين موقفه الإيديولوجي وبين اتجاهه الفلسفي النظري عمل على أن يؤكد هذه الصلة ويبرزها بشكل صريح. ولم تنفصل مجهودات ماركس السياسية عن مجهوداته العلمية النظرية بل أنه كان هناك دائماً تلاحم بين الاثنين لدرجة أن "تاريخه الشخصي الذي يمكن اعتباره حتى عام ١٨٤٥ (أي حين كان في السابعة والعشرين من عمره) سلسلة من الحلقات في تاريخ فرد أصبح منذ هذا الوقت لا ينفصل عن التاريخ العام للاشتراكية في أوروبا"(١).

فقد أصبح ماركس ثورياً محترفاً، يكتب ويحاضر ويتآمر من أجل تحقيق الثورة على النظام الرأسمالي التي كان يعتقد أنها آتية لا ريب في ذلك.

وقد عبر ماركس عن اتجاهه الإيديولوجي منذ أن كان صبياً في مرحلة المراهقة. فقد كتب مقالاً قصيراً عندما كان في السنة النهائية بالمدرسة الثانوية عنوانه "تأملات شاب عن اختيار مهنته" عبر فيه عن مبدأ ظل يسترشد به طوال حياته السياسية والفكرية، حيث قال :

"أن المبدأ الذي يجب أن نسترشد به في اختيارنا لمهنتنا يجب أن يكون رفاهية الإنسانية، وكمال أنفسنا، ولا يجب أن يتطرق إلى أذهاننا أن هاتين المصلحتين تتعارضان مع بعضهما البعض أو أن أحدهما يمكن أن تقضي على الأخرى. فالواقع أن طبيعة الإنسان تمكنه من تحقيق كمال ذاته من خلال العمل على تحقيق كمال ورفاهية مجتمعه. والتاريخ يسمى أولئك الأشخاص

الذين يعملون من أجل الإنسانية أعظم الرجال الذين اكتسبوا صفات النبل من خلال جهودهم فى سبيل الإنسانية"(٢).

وفى عام ١٨٤٣ كتب ماركس سلسلة من المقالات السياسية فى مجلة Rheinische Zeitung الإلمانية عن الظروف الاجتماعية وتناول فى هذه المقالات وصف بؤس الفلاحين الذين يزرعون الكروم فى (Moselle) والمعاملة القاسية التى كان يلقاها الفقراء لسرقة بعض الأخشاب من الغابات التى كانوا يعتقدون أنها ملكية عامة لهم فيها بعض الحقوق(٣). كما هاجم ماركس الحكومة الروسية الرجعية فى مقالاته مما أدى بإمبراطور روسيا فى ذلك الوقت إلى الاتصال بالسفير الروسى شاكياً ماركس وكان من جراء ذلك إغلاق المجلة التى يكتب فيها ماركس فهاجر إلى باريس حيث طردته الحكومة الفرنسية من فرنسا عام ١٨٥٤ بناء على شكوى الحكومة الروسية لمهاجمته لها فى سلسلة من مقالاته فهاجر إلى بروكسل حيث اتصل بالمنظمات الاشتراكية وبخاصة الرابطة التربوية للعمال الألمان Educational Association German Workers والمنظمة الشيوعية The Communist League وفى عام ١٨٤٧ كتب ماركس بناء على تكليف من هذه المنظمة وثيقة تشرح أهدافها ومعتقداتها وهى التى عرفت باسم البيان الشيوعى The Communist Manifesto وكانت أول جملة فى هذا البيان "أن تاريخ كل المجتمعات هو تاريخ الصراع الطبقي"، تمثل أهم الجوانب التى ميزت فكر كارل ماركس، وفى عام ١٨٤٨ اتجه ماركس إلى ألمانيا بعد قيام الثورة فيها حيث رأس تحرير مجلة راديكالية جديدة تهاجم الرجعية والرأسمالية وتدافع عن حقوق الطبقة العاملة وبعد فشل الثورة عاد إلى باريس ثم استقر به المقام في لندن منذ عام ١٨٤٩ حتى نهاية حياته حيث أصبح رئيساً للجمعية العمومية الدولية The International التى تكونت عام ١٨٦٣ وهى اتحاد دولى للعمال كان يهدف إلى وضع نهاية النظام الاقتصادى الرأسمالى واستبداله بنظام آخر

يقوم على الملكية العامة. وخلال هذا النشاط السياسى كان ماركس يعمل فى مؤلفاته التى تعكس هذا النشاط وتدعمه فى نفس الوقت.

وهكذا نرى أنه فى مقابل انحياز كونت ودوركايم وفيبر وباريتو للطبقة العليا (البورجوازية) وتسخيرهم نظرياتهم لتبرير النظام الرأسمالى والدفاع عن البورجوازية انحاز كارل ماركس للطبقة العاملة وسخر نفسه ونظريته كما سنرى للدفاع عن هذه الطبقة ونقد ومهاجمة النظام الرأسمالى من أجل الإطاحة به وإحلال النظام الاشتراكى محله. ومثلما كانت نقطة انطلاق كونت لتحقيق هدفه هى رفض فلسفة التنوير النقدية والسلبية على اعتبار أنها حققت هدفها بقيام الثورة البورجوازية والنظام الرأسمالى الصناعى وتبنى بدلاً منها الفلسفة الوضعية الإيجابية التى كانت نقطة انطلاق ماركس من فلسفة التنوير النقدية السلبية ولكنه قام بتطويرها على أسس مادية أو لا مثالية.

ويرى بعض علماء الاجتماع أن علم الاجتماع الأكاديمى الغربى بأسره قد نشأ تحت تأثير ماركس وانه ليس سوى سلاح أيديولوجى للبورجوازية لمواجهة الماركسية كسلاح أيديولوجى للاشتراكية، ويذهب عالم الاجتماع الأمريكى زايتلين إلى حد اعتبار أن أعمال فيبر وباريتو وموسكا وميشيلز ودوركايم ومانهايم حواراً مع شبح ماركس(٤).

من أجل ذلك سنعرض النظرية الاجتماعية عند ماركس بتفصيل أكثر مما سيجعل نظريته تشغل حيزاً كبيراً نسبياً إذا قورن بكل من العلماء الكلاسيكيين الآخرين على حدة ولكنه شغل حيزاً أقل منهم مجتمعين.

المادية التاريخية

Historical Materialism

تتكون الماركسية من شقين متكاملين المادية الجدلية Dialectical Materialism والمادية التاريخية Historical Materialism والموضوع الأساسى للمادية الجدلية هو القضية الفلسفية الأساسية التى تدور حول علاقة الوعى بالوجود. وموقف الفلسفة الماركسية من هذه القضية محدد بوضوح فهى تسلم بأن المادة والوجود أساس الوعى أو الفكر. فالوجود هو الأولى والوعى هو الثانوى. وهى تسلم بالأساس المادى للعالم وبإمكانية فهمه ومعرفته - كما أنها تدرس هذا العالم المادى بوصفه فى حالة حركة وتطور مستمرين على أساس جدلى أو ديالكتيكى. وتكشف المادية الجدلية عن أكثر القوانين التى تحكم تطور العالم المادى عمومية أى تلك القوانين التى تحكم كافة مجالات الواقع. فكل الموضوعات الحية وكذلك ظاهرة الحياة الاجتماعية والوعى تتطور على أساس قوانين الجدل الأساسية: وقانون وحدة وصراع الأضداد، وقانون التحول الكمى إلى تغير كيفى وقانون النفى، كما تدرس المادية الجدلية أيضاً القوانين التى تحكم المعرفة Cognition بوصفها عملية والتى تعكس قوانين العالم الموضوعى(٥).

أما المادية التاريخية فهى علم القوانين العامة التى تحكم تطور المجتمع وتكشف الطبيعة المادية الجدلية لتطور الحياة الاجتماعية. وهى عبارة عن تطبيق القوانين العامة للمادية الجدلية على نوع معين من ظاهرات الكون وهو الحياة الاجتماعية.

الأسس المنهجية للمادية التاريخية :

تسلم المادية التاريخية بأن القوانين العامة التى تحكم تطور المجتمع قوانين موضوعية، أى أنها مستقلة عن وعى الإنسان تماماً مثل قوانين الطبيعة وهى أيضاً قابلة للمعرفة ويمكن للإنسان أن يستفيد منها فى نشاطه العلمى، إلا

أن هناك مع ذلك فروقاً جوهرية بين الحياة الاجتماعية وقوانين الطبيعة، فقوانين الطبيعة تصور عمل قوى تلقائية غير واعية، بينما تصور قوانين التطور الاجتماعى أفعال كائنات إنسانية ذكية تحدد لنفسها أهدافاً محددة وتعمل من أجل تحقيقها.

وقد رفض كارل ماركس النظر إلى المجتمع على أنه مجرد تجمع آلى للأفراد وعلى أنه يظهر ويتغير بطريقة عرضية ورأى أن التطور الاجتماعى إنما هو عملية تحكمها قوانين معينة وأن مهمة العلم الاجتماعى الكشف عن القوانين الأساسية للتاريخ الاجتماعى وانتقد ماركس الفلاسفة والمفكرين الذين كانوا يتحدثون عن المجتمع بطريقة عامة ومجردة لفشلهم فى تقديم تعريف علمى له وفى تحليلهم لمراحل تطوره. وأرجع هذا الفشل لعدم قدرتهم على إدراك أساس الحياة الاجتماعية بشكل سليم وعدم قدرتهم على التمييز بين ما هو أساسى وما هو ثانوى فى المجتمع والمادية التاريخية (أو علم الاجتماع الماركسى) تهدف إلى تحقيق فهم علمى للمجتمع على الأسس المنهجية التالية[1]:

١- عدم الاقتصار على وصف الظاهرات الاجتماعية وتجاوز ذلك إلى تقديم تحليل علمى لها.

٢- استخلاص الخصائص المشتركة فى مختلف المجتمعات التى تنتمى إلى نفس المرحلة من التطور التاريخى.

٣- التمييز بين القوانين العامة General Sociological Laws التى تحكم عدداً من التكوينات الاجتماعية - الاقتصادية وبين القوانين النوعية Specific Laws التى تحكم كل تكوين اقتصادى اجتماعى على حدة، والتى تحكم ظاهرات اجتماعية معينة (مثل اللغة).

مفهوم كارل ماركس عن الإنسان وطبيعة الحياة الاجتماعية:

رأى ماركس، على عكس كونت، أن الإنسان متطور دائماً وأن قدراته الكامنة والممكنة غير محدودة من حيث إمكانية تطورها، وإذا كان الإنسان

الآن لا يزيد عن كونه وحشا عاملاً فإن ذلك ليس أمراً حتمياً ذلك أنه يمكن أن يحقق أعلى صورة من الكمال فى الخلق والإبداع والفكر والفعل والإنسان خالق ظروفه وهو نتائج لها فى نفس الوقت[٧]. ورأى ماركس ضرورة التفرقة بين الحالة الراهنة للإنسان وبين ما يمكن أن يكون عليه إذا تغيرت الظروف التى يعيش فيها.

ورأى ماركس أن تطور المجتمع إنما هو نتائج للتفاعل المستمر بين الإنسان والطبيعة من خلال العملية الإنتاجية، فالإنسان حسب قوله :

"قد بدأ فى تمييز نفسه عن الحيوان بمجرد أن بدأ ينتج أساليب الحفاظ على حياته[٨] فإنتاج وسائل الحفاظ على الحياة (أى الطعام والمسكن والملبس..الخ) إنما هو ضرورة تمليها الاحتياجات البيولوجية للكائنات الإنسانية، وعلاوة على ذلك فإن هذه العملية الإنتاجية هى المصدر المبدع لظهور حاجات وقدرات جديدة لدى الإنسان. وعلى ذلك فإن النشاط المبدع يؤدى لظهور حاجات وقدرات جديدة لدى الإنسان. وعلى ذلك فإن النشاط الإنتاجى هو أساس المجتمع على المستويين التاريخى والتحليلى. والإنتاج هو أول فعل تاريخى، وإنتاج الحياة المادية شرط أساسى لكل التاريخ الإنسانى ولابد للناس أن يقوموا بهذه العملية الإنتاجية يومياً بل كل ساعة لكى يحافظوا على حياتهم وكل فرد فى حياته اليومية يعيد فى الواقع إنتاج وخلق المجتمع الذى يعيش فيه فى كل لحظة وهذه العملية أى عملية الخلق والإبداع هى مصدر للثبات فى التنظيم الاجتماعى وأساس التغير المستمر فيه فى آن واحد.

وكل نوع من أشكال الإنتاج يستلزم بالضرورة شكلاً معيناً من العلاقات الاجتماعية بين الأفراد الذين يشتركون فى العملية الإنتاجية وهذه الفكرة هى التى يرتكز عليها نقد ماركس للاقتصاد السياسى والفلسفة النفعية بصفة عامة فقد قرر ماركس أن مفهوم الفرد المنعزل إنما هو تصور خيالى من جانب الفلاسفة البورجوازيين الفرديين.

وهذا المفهوم، أى مفهوم الفرد المنعزل إنما يستخدم لكى يخفى الطابع الاجتماعى الذى يفصح عنه الإنتاج دائماً، ويرى ماركس أن علماء الاقتصاد السياسى وخاصة آدم سميث قد أغفلوا أو شوهوا فى الواقع عملية خلق الإنسان لنفسه من خلال العملية الإنتاجية وشوهوا التطور الاجتماعى الناجم عن ذلك.

ورأى ماركس أن أفراد الإنسان لا ينتجون فقد بوصفهم أفراداً ولكن بوصفهم أعضاء فى شكل محدد من المجتمع، وعلى ذلك فأنه لا يوجد أى نوع من المجتمعات لا يقوم أساسا على شكل محدد من العلاقات الإنتاجية.

ويقول كارل ماركس: "أن الناس خلال العملية الإنتاجية لا يغيرون من الطبيعة فحسب بل يغيرون من بعضهم البعض. فهم يستطيعون الإنتاج فقط نظراً لتعاونهم بشكل معين واعتماد نشاط كل منهم على الأخر". فلكى ينتج الناس لابد أن يدخلوا فى علاقات محددة مع بعضهم البعض وعن طريق هذه العلاقات يمكن أن يؤدى نشاطهم إلى الإنتاج وتغير الطبيعة.

ولكن لابد أن لكى يستطيع الإنسان أن ينتج ولكى تنشأ حياة اجتماعية من توفر ظروف طبيعية معينة - هذه الظروف شروط ضرورية للحياة الاجتماعية ولكنها ليست ظروفاً كافية لقيامها.

الظروف الطبيعية لحياة المجتمع : البيئة الجغرافية[٩] :

أن المجتمع الإنسانى جزء متمايز من الطبيعة، ولا يمكن بأى حال فصله عن بقية الطبيعة وهو دائماً فى حالة تفاعل معها، وهذا الجزء من الطبيعة الذى يتفاعل معه المجتمع بصفة دائمة ومباشرة ويتأثر بالمجتمع ويؤثر فيه فى آن واحد يسمى البيئة الجغرافية وتشمل الطقس والتربة والأنهار والبحار والنبات والحيوان وتضاريس الأرض والمعادن. الخ والبيئة الجغرافية شرط ضرورى لنشاط الإنسان الإنتاجى وبدون التفاعل مع الطبيعة لا يمكن أن يكون هناك عمل ولا نشاط إنتاجى.

والبيئة الجغرافية يمكن أن تمارس تأثيرا مزدوجا على تطور المجتمع. فالظروف الطبيعية الملائمة (مثل توفر المعادن والغابات والأشجار والطقس المناسب) تساعد على تطور المجتمع. ومن جهة أخرى تؤثر الظروف الطبيعية المعاكسة تأثيراً ضاراً على التطور الاجتماعي، فعدم توفر المعادن مثلاً يعوق النمو الصناعى، كما أن الطقس القاسى فى جفافه يعوق تطور الزراعة وهكذا. إلا أنه لا يجب المغالاة فى دور البيئة الجغرافية إلى حد افتراض أنها هى التى تحدد التطور الاجتماعى فهناك بلاد تتطور اقتصاديا وسياسياً بنفس المعدل على الرغم من أن بيئاتها الجغرافية مختلفة - كما أن هناك بلاداً تشترك فى نفس الظروف الجغرافية ومع هذا فإنها تختلف فى حالتها الاقتصادية والسياسية. كما أن المجتمع قادر على تغيير هذه الظروف الجغرافية والتأثير فيها، وتعتمد درجة تأثير المجتمع على البيئة الجغرافية على طبيعة النظام الاجتماعى ومستوى الإنتاج والتكنولوجيا والعلم فيه. وعلى هذا فإن البيئة الجغرافية ليست هى المحدد للتطور الاجتماعى على الرغم من أنها شرط ضرورى للحياة الاجتماعية وكل ما تفعله هو أنها تساعد على تطور المجتمع أو تعوق من هذا التطور.

الظروف الطبيعية - السكان :

أن وجود السكان شرط ضرورى آخر لحياة المجتمع. فالإنتاج مستحيل بدون ناس. وعلى هذا فإن الظروف السكانية مثل كبر عدد السكان أو قلته وارتفاع معدلات نموهم أو انخفاضه قد يؤثر على تطور المجتمع بالزيادة أو النقصان. إلا أن طبيعة السكان لا تلعب الدور الحاسم فى التطور الاجتماعى ذلك أن أمامنا أمثلة كثيرة لبلاد ذات كثافة سكانية عالية ومعدل نمو سكانى سريع، ولكنها أكثر تخلفا من بلاد أخرى ذات كثافة سكانية منخفضة ومعدل نمو بطئ والعكس صحيح.

كما أن هناك بلاداً تتشابه فى نفس الكثافة السكانية ومعدل النمو السكانى إلا أنها تختلف فى درجة تطورها الاقتصادى والسياسى والثقافى. ويعنى ذلك أيضاً أن الكثافة السكانية ومعدلات النمو السكانى لا يحددان حياة المجتمع ولكن العكس هو الصحيح، فالكثافة السكانية ومعدلات النمو تعتمدان على طبيعة النظام الاجتماعى.

البيئة الجغرافية والسكان إذن شرطان ضروريان للحياة الاجتماعية ولكنهما ليسا العالم الحاسم فى التطور الاجتماعى، فهذا العامل هو أسلوب إنتاج الثروة المادية.

نمط الإنتاج Mode of Production :

رأى ماركس أن العمل هو أساس الحياة الاجتماعية وأن إنتاج الثروة المادية هو العامل الأساسى المحدد للتطور الاجتماعى. وإنتاج وسائل الحفاظ على الحياة البشرية ثم عملية توزيع تلك المنتجات هما أساس البناء الاجتماعى بأسره ففى جميع المجتمعات التى ظهرت فى التاريخ كانت الكيفية التى توزع بها الثروة وينقسم بها المجتمع إلى طبقات أو أنظمة تعتمد على ما ينتج والكيفية التى يتم بها التوزيع.

ويتطلب هذا الإنتاج موضوعات للعمل، كما يتطلب أدوات يستخدمها فى معالجة هذه الموضوعات. فبالنسبة للمزارع مثلاً لابد من الأرض والبذور بوصفها موضوعات للعمل، ولابد كذلك من الفأس أو المحراث بوصفهما أدوات يعالج بها موضوعات، هناك إذن الموضوعات والأدوات، وهناك كذلك الإنسان العامل الذى يستخدم هذه الأدوات فى معالجته لهذه الموضوعات فأدوات العمل وحدها لا يمكن أن تنتج ثروة مادية، ومن الضرورى أن لا تصنع فحسب ولكن أن تستخدم أيضاً، والإنسان هو صانعها ومستخدمها وعلى هذا فإن الإنسان العامل عنصر جوهرى فى الإنتاج. ويطلق على الموضوعات والأدوات والإنسان العامل اصطلاح "قوى الإنتاج Forces of production".

وتحدد قوى الإنتاج علاقات الإنسان بالطبيعة وسيطرتها عليها والإنسان العامل هو العنصر الرئيسى فى القوة الإنتاجية.

إلا أن القوى الإنتاجية ليست هى العوامل الوحيدة فى الإنتاج المادى فالناس لا يمكنهم الإنتاج إلا إذا انتظموا فى علاقات اجتماعية، ذلك أن العمل بطبيعته نشاط اجتماعى. وهذه العلاقات والروابط الاجتماعية يقتضيها الإنتاج ويستحيل دونها.

ويطلق على علاقات الناس فى عملية الإنتاج اصطلاح "علاقات الإنتاج Relations of Production" وهناك وحدة لا تقبل الانفصال بين قوى الإنتاج وما يقابلها من علاقات إنتاج. وقد كان العمل دائماً منذ فجر التاريخ هو الرابطة بين الناس.

وتعتمد علاقات الإنتاج اعتماداً جوهرياً على ملكية وسائل الإنتاج Means of production (الموضوعات والأدوات) فالذي يملك موضوعات الإنتاج (الأرض أو المناجم أو الغابات أو المواد الخام مثلاً) وأدوات الإنتاج (الفئوس والمحاريث والآلات) يتحكم فى عملية الإنتاج وفى توزيع عائدها، ويتوقف على ملكية وسائل الإنتاج وضع المجموعات الاجتماعية المختلفة فى المجتمع، فالذين يملكونها يتمتعون بوضع السيطرة والنفوذ ويحصلون على أكبر جزء من عائدها والذين لا يملكون يكونون خاضعين ويكون نصيبهم من الإنتاج أقل وإذا كانت ملكية وسائل الإنتاج عامة أى ملك فئات الشعب فإن علاقات الإنتاج تكون علاقات تعاونية وتبادلية خالية من الاستغلال كما هو الحال فى البلدان الاشتراكية. أما إذا كانت ملكية وسائل الإنتاج فردية أى ملك أقلية ضئيلة من المجتمع فإن علاقات الإنتاج تكون علاقات سيطرة وخضوع.

ويعتمد شكل التوزيع على ملكية وسائل الإنتاج، ففى المجتمع الرأسمالى وفى ظل الملكية الفردية لوسائل الإنتاج يحصل المالك على أكبر نصيب من الثروة المنتجة على الرغم من أنه لا يشارك بطريقة مباشرة فى

الإنتاج أما فى المجتمع الاشتراكى وفى ظل الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج فإن توزيع عائد الإنتاج يتم تبعاً للعمل.

وهكذا نرى أن علاقات الإنتاج تضم شكل ملكية وسائل الإنتاج وما ينجم عنها من وضع المجموعات الاجتماعية فى الإنتاج وأشكال توزيع الثروة.

وهناك وحدة لا تقبل الانفصال بين قوى الإنتاج من جانب وعلاقات الإنتاج من جانب آخر ويطلق على هذين الجانبين معاً نمط الإنتاج Mode of Production.

إلا أن الإنتاج لا يتوقف عند حد معين ولكنه ينمو ويتطور دائماً، ذلك أن الناس لابد أن ينتجوا الثروة المادية من أجل الحفاظ على حياتهم ولابد أن تتزايد هذا الإنتاج ويتحسن دائماً فعدد السكان فى تزايد مستمر كما أن متطلباتهم تتزايد باستمرار. فالإنسان البدائى لم يكن يحتاج سوى القليل جداً: طعام بسيط وجلد حيوان وسقف يستظل به ونار إلى جوار كوخه. ولكن الإنسان الحديث أصبحت له متطلبات مادية وثقافية هائلة وهى تتزايد باستمرار. والوسيلة الوحيدة لإشباع الحاجات المتزايدة للأعداد المتزايدة من الناس هى زيادة الإنتاج وتحسينه. وقوى الإنتاج (الموضوعات والأدوات والإنسان) هى المحرك الرئيسى للتغيير والتطور.

وقرر ماركس أن الإنسان من خلال عمله الاجتماعى يطور ويغير ويعدل من أدواته وليس أدل على ذلك من التقدم التكنولوجى المستمر فى عصرنا هذا والذى يتيح للإنسان مزيداً من الطاقة والتحكم فى عالمه المادى. فتطور أدوات الإنتاج إذن هو نقطة البدء فى التغيير الاجتماعى. إلا أن هذا التطور من شأنه أن يحدث خللا فى التوازن القائم بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج بحيث لا تعد علاقات الإنتاج على انسجام مع قوى الإنتاج. فمع تحسن أدوات الإنتاج وتطورها يتطور الناس أيضا فتنمو قدراتهم ومهاراتهم وتظهر قدرات جديدة لم تكن موجودة من قبل. ويتطلب ذلك بالضرورة تغيرا فى

علاقات الإنتاج. ونظرا لأن هذا التغير لا يساير التغير في قوى الإنتاج فإن التناقض بين قوى الإنتاج المتطورة وعلاقات الإنتاج المتخلفة والتي أصبحت عقبة أمام قوى الإنتاج يؤدي بالضرورة إلى ظهور ظروف موضوعية للثورة من أجل حل هذا التناقض ومن أجل إحلال علاقات إنتاج جديدة تتوافق مع قوى الإنتاج التي تطورت وتحولت. ويتضح لنا من ذلك أن هناك وحدة ديالكتيكية بين قوى الإنتاج من جانب وعلاقات الإنتاج من جانب آخر وهذا التناقض بين هذين الوجهين هو القوى المحركة للمجتمع.

إلا أن هذا التناقض ليس شيئا عرضيا فهو ينبع من طبيعة عملية الإنتاج الاجتماعي، فالقوى الإنتاجية هي أكثر عناصر الإنتاج تغيرا وحركة أما علاقات الإنتاج فعلى الرغم من أنها تتعرض لتغيرات معينة فإنها تظل في أساسها دون تغير داخل إطار أسلوب إنتاج معين، ففي أسلوب الإنتاج الرأسمالي تعرضت قوى الإنتاج لتغيرات عميقة ولكن علاقات الإنتاج مازالت قائمة على الملكية الرأسمالية الخاصة.

الأساس الاقتصادي والبناء الفوقي للمجتمع :

Basic Structure and Super Structure

إن عملية الإنتاج الاجتماعي هي حجر الأساس الذي يقوم عليه المجتمع الإنساني ومجموع علاقات الإنتاج يشكل البناء الاقتصادي للمجتمع أو ما يسمى بالأساس، الذي نعنيه بمجموع علاقات الإنتاج هو أشكال الملكية وما يترتب عليه عن علاقات بين الناس في عملية وأشكال توزيع السلع المادية.

ولكل مجتمع أساسه، ويعتمد نوع هذا الأساس على حالة قوى الإنتاج ولا يمكن ظهور الأساس إلا عندما تتكون الظروف المادية اللازمة لظهور قوى الإنتاج الخاصة به في ثنايا المجتمع القديم.

وبمجرد ظهور هذا الأساس إلى الوجود فإنه يلعب دورا خطيرا في حياة المجتمع فهو يمكن الناس من تنظيم الإنتاج وتوزيع الثروة المادية، فبدون

أن يدخل الناس مع بعضهم البعض فى علاقات اقتصادية فإنهم لا يستطيعون الإنتاج وبالتالي لا يمكنهم توزيع وسائل الحفاظ على الحياة.

وهذا الأساس (الاقتصادى) شرط لابد منه لظهور ما يسمى بالبناء الفوقى أى البناء السياسى والتشريعى والفلسفي والأخلاقى والجمالى والدينى للجميع، وما يترتب على ذلك من علاقات ومؤسسات ومنظمات وعلى هذا فإن الأساس هو الذى يحدد طبيعة المجتمع بطريقة مباشرة ويحدد أفكاره ومؤسساته.

على أن البناء الفوقى لا يلبث ما أن يتكون فى القيام بدور كبير من التطور والنمو الاجتماعى. فالبناء الفوقى الذى ينبنى على أساس اقتصادى محدد يعبر فى نهاية الأمر عن موقف الناس من هذا الأساس أن أفكار الناس (البناء الفوقى) تصبح بمثابة تبرير أو دفاع أو استنكار وهجوم على هذا الأساس(١٠).

فالمؤسسات الحكومية فى الدولة الرأسمالية أو الإقطاعية وأجهزة الإعلام والصحف الحزبية فيها تعمل على تدعيم وتبرير الأساس كما أن الأفكار العمالية والثورية تعبر عن موقف الطبقات المقهورة من هذا الأساس.

البناء الفوقى إذن انعكاس للأساس الاقتصادى، إلا أنه لا يلبث أن يتمتع بقدر من الاستقلال النسبى عن هذا الأساس، بل قد يصبح سندا يدعم هذا الأساس ويساعد على بقائه، كما أن ثمة جوانب من البناء الفوقى تتسم بقدرة على البقاء برغم تغير الأساس الذى تعتمد عليه، مثل ذلك بقاء الأفكار ذات الطابع الرأسمالى فى المجتمعات الاشتراكية.

على أن البناء الفوقى ليس بأسره انعكاسا للأساس الاقتصادى فثمة سمات ثابتة تعكس حاجة إنسانية خاصة كاللغة وبعض سمات الأسرة أو الحياة الجنسية.

مما سبق نتبين أن حجر الزاوية في الفهم الماركسي للمجتمع هو الأساس الاقتصادي وما يترتب عليه من علاقات إنتاج، فلا حياة للإنسان ولا للمجتمع دون العمل الاجتماعي المنتج الذي يقتضي تنظيما له ولما يترتب عليه من عائد.

كذلك لا يمكننا فهم المجتمع فهما مطلقا بمعزل عن الظروف الكلية له، وبمعزل عن حركته التاريخية التي يقتضيها تطور قوى الإنتاج فيه.

إن المجتمع وحدة كلية اجتماعية اقتصادية مترابطة في حركة مستمرة وتحول دائم يحتل فيه نشاط الإنسان في علاقته بالإنسان المقام الأول.

ولا يمكن بأي حال الفصل بين البناء الفوقي وبين الأساس. فالبناء الفوقي يعتمد على أساس. فلو أخذنا المجتمع البدائي على سبيل المثال لوجدنا أن انعدام الملكية الخاصة والطبقات فيه، وبالتالي المتناقضات الطبقية كان هو السبب في أنه لم يكن في هذا المجتمع دولة أو مؤسسات سياسية أو تشريعية، ومع ظهور الملكية الخاصة إلى الوجود وظهور الطبقات (السادة والعبيد) ظهر بناء فوقي من نوع مخالف. فظهرت أفكار تبرر حكم صاحب العبيد للعبيد، وظهرت مؤسسات (مثل الدولة) لتحمي هذا الحكم. ولما كان أساس المجتمع الطبقي ملئ بالمتناقضات التي تنبع من التناقض الرئيسي بين المغبونين والقائمين بالغبن، ولما كان البناء الفوقي في مثل هذا المجتمع يعكس الأساس فإنه من المنطقي أن يكون هذا البناء الفوقي نفسه ملئ بالمتناقضات هو الآخر. فهو يضم أفكارا ومؤسسات الطبقات المختلفة - إلا أن أفكار ومؤسسات الطبقة المسيطرة هي التي تسود. فالطبقة التي تمثل القوى المادية الحاكمة في المجتمع تصبح أيضا هي الطبقة الفكرية الحاكمة، وفي ظل الرأسمالية يكون للبورجوازية السيطرة الاقتصادية وعلى هذا فإنه تكون لأفكارها ومؤسساتها السيادة في المجتمع وتستخدم هذه الأفكار والمؤسسات أساسا بواسطة البورجوازية لحماية حكمهم ومحاربة الطبقات الكادحة. إلا أن هذه الطبقة

الكادحة تكون بدورها أفكارها ومؤسساتها التى تتصارع مع البورجوازية (مثل النقابات العمالية والأحزاب السياسية).

والتغيرات التى تطرأ على الأساس تؤثر على البناء العلوى بالضرورة، فخلال الانتقال من الرأسمالية قبل الاحتكارية إلى الإمبريالية مر الاقتصاد الرأسمالى بتغير هام وحل الاحتكار محل التنافس الحر. وتغير تبعاً لذلك البناء الفوقى فتحولت الطبقة البورجوازية من تبنى شكل الحكم الديمقراطى البورجوازى إلى تبنى الأشكال الرجعية والفاشية من الحكومة.

التكوين الاقتصادى الاجتماعى Socio-Economie Formation

يمثل أسلوب إنتاج الثروة المادية الأساس المادى الاقتصادى للتكوين الاقتصادى الاجتماعى، وهذا الأساس الاقتصادى يمثل فى الواقع هيكل التكوين بينما يمثل البناء الفوقى الجانب السياسى - الأجتماعى والروحى فيه، وعلى هذا فإن الأساس والبناء الفوقى يمثلان المكونات الأولية لأى تكوين اقتصادى اجتماعى وبالإضافة إلى الأساس والبناء الفوقى يتضمن التكوين الاقتصادى الاجتماعى ظاهرات اجتماعية أخرى مثل أشكال المجموعات (العشيرة - والقبلية - والأمة) وأسلوب الحياة والأسرة والزواج واللغة والعلوم وبعض التنظيمات الاجتماعية: المنظمات الرياضية مثلاً، وهى جميعاً سمات إنسانية عامة وهى لا تنتمى بشكل مباشر للأساس أو البناء العلوى ولكنها عناصر ضرورية فى أى تكوين اقتصادى اجتماعى ذلك أن الناس لا يمكنهم بأى حال أن يفكروا أو يعملوا دون لغة أو وسيلة للاتصال ولتبادل الآراء كما أنهم لا يمكنهم التناسل والاستمرار دون حياة جنسية ودون أسرة وزواج.

وهذه الظاهرات تتغير بتغير المكونيات الاقتصادية والاجتماعية فأشكال التجمعات الإنسانية تختلف باختلاف التكوينات. ففى المجتمع البدائى نجد العشيرة والقبلية وفى المجتمع الإقطاعى نجد القومية وفى المجتمع الرأسمالى نجد الأمة ويتغير أسلوب الحياة والأسرة والزواج بتغير التكوينات

الاقتصادية والاجتماعية. أما اللغة فعلى الرغم مما قد تتعرض له من تغيرات فإنها تنتقل من تكوين لآخر وكذلك الحال بالنسبة للعلوم التى يتمثلها الناس ويطبقونها فى حياتهم وعملهم فى مختلف التكوينات.

والظاهرات الاجتماعية التى يتكون منها التكوين الاقتصادى الاجتماعى ترتبط ببعضها ارتباطا عضويا، وتؤثر فى بعضها البعض بطريقة مباشرة أو غير مباشرة وهى جميعا تمثل سويا كائنا اجتماعيا متشابكا معقدا دائم التطور هو التكوين الاقتصادى والاجتماعى.

هناك إذن وحدة وتفاعل بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج وبين الأساس والبناء الفوقى. والبناء الفوقى يرتبط أيضا بالقوى الإنتاجية، لا بطريقة مباشرة ولكن بطريقة غير مباشرة من خلال الأساس الاقتصادى. كما أن عناصر البناء الفوقى أيضا تفاعل مع بعضها، فالسياسة مثلا تؤثر على الفن والأخلاق والفلسفة وغيرها من صور الحياة الروحية للناس. ويؤثر الإنتاج والأساس والبناء الفوقى على العلاقات الأسرية وأسلوب الحياة.. الخ. وهكذا نرى أن التكوين الاقتصادى والاجتماعى يمثل تفاعلا متداخلا بين مختلف الظاهرات الاجتماعية وأكثرها تباينا بينما يظل الإنتاج المادى هو السبب الأول أو الأساس الأول فى تفاعلها.

وتتمثل أهمية مفهوم التكوين الاقتصادى - الاجتماعى فى أنه يوضح الوحدة العضوية بين مختلف الظاهرات الاجتماعية والترابط المتبادل بينها كما أنه يبين لنا أنه لا يمكن الحديث بشكل مجرد عن المجتمع بوجه عام ولكن يجب دائما الحديث عن مجتمع ذى طابع خاص مميز. فلكل تكوين اقتصادى اجتماعى قواه الإنتاجية الخاصة به ونمط محدد من علاقات الإنتاج وحياة روحية تميزه وهكذا فإن كل تكوين يخضع لقوانين تاريخية عامة ولكنه يخضع أيضا لقوانين خاصة به. فالمجتمع الاشتراكى مثلا يخضع لقوانين التطور المخطط والمتناظر والتزايد المستمر لدور الجماهير فيه.

وهكذا يرى ماركس أنه لا يمكن فهم العلاقات الاجتماعية بدون إرجاعها إلى علاقات الإنتاج وربط علاقات إنتاج بالقوى الإنتاجية.

وعلى أساس مفهوم التكوين الاقتصادى - الاجتماعى أمكن لماركس تقسيم تطور المجتمعات إلى المراحل الست التالية:

١- المرحلة الجماعية البدائية. Primitive Communal

٢- مرحلة العبودية. Slavery

٣- مرحلة الإقطاع. Feudalism

٤- المرحلة الرأسمالية. Capitalism

٥- المرحلة الاشتراكية. Socialism

٦- المرحلة الشيوعية. Comunism

وتمثل كل مرحلة من هذه المراحل تكوينات اقتصادية - اجتماعية متمايزة. والتطور أو التغير الكيفى من تكوين اجتماعى اقتصادى إلى آخر لا يتم فجأة ولكنه يحدث نتيجة تغيرات كمية تدريجية داخل كل تكوين تتراكم حتى يحدث التغير الكيفى. فالرأسمالية مثلا تمر قبل تحولها إلى الاشتراكية بتغيرات تدريجية من الرأسمالية قبل الاحتكارية إلى الرأسمالية الاحتكارية ثم الاستعمارية. ومن المعروف تاريخيا أن الانتقال من تكوين إلى آخر لا يقضى كلية ومرة واحدة على كل آثار التكوين القديم، أى أنه لا يوجد بالفعل تكوين "خاص" أو "نقى" فأى تكوين اقتصادى - اجتماعى يتضمن بقايا من التكوين السابق، فالتكوين الاشتراكى مثلا يظل يحتوى على بقايا من الرأسمالية فى عقول وسلوك أعضاء المجتمع الاشتراكى.

نخلص من ذلك إذن إلى أن ماركس قد رأى أن المجتمع فى حالة تطور مستمر وهذا التطور تحكمه قوانين محددة ووظيفة عالم الاجتماع

الأساسية هى الكشف عن هذه القوانين وفهمها ثم استخدامها من أجل المساعدة على تطوير المجتمع.

وهكذا نرى أن المادية التاريخية (أو النظرية الاجتماعية الماركسية) ترى أن المجتمع وحدة كلية اجتماعية اقتصادية مترابطة فى حركة مستمرة وتحول دائم ويعتمد أداؤه لوظائفه الحيوية على تطوير أسلوب الإنتاج فيه ويحدد أسلوب الإنتاج هذا فى نهاية الأمر التغيرات التى تحدث فى نظامه السياسى والمعنوى أو ما يسمى بالبناء الفوقى. ويكون لهاذ البناء الفوقى استقلال نسبى حيث يؤثر داخل حدود معينة على الأساس الاقتصادى ويتأثر به.

التقسيم الطبقى والصراع الطبقى :

قرر ماركس أن الطبقات قد ظهرت إلى الوجود عندما تطور تقسيم العمل وتطور الإنتاج بحيث أصبح من الممكن لبعض الناس أن يتملكوا فائض عمل غيرهم وبالتالى استطاعوا أن يحققوا تراكما من هذا الفائض مكنهم من أن يدخلوا فى علاقات استغلالية مع جماهير المنتجين. وهكذا أصبح من الممكن أن تسيطر طبقة من الناس على طبقة أخرى.

وقد عرف لينين الطبقات بقولة :

"الطبقات عبارة عن مجموعات كبيرة من الناس تختلف كل مجموعة منها عن الأخرى حسب الموقع الذى تحتله من نظام الإنتاج الاجتماعى المحدد تاريخيا وحسب علاقتها بوسائل الإنتاج وحسب الدور الذى تلعبه فى التنظيم الاجتماعى للعمل ويترتب على ذلك كل اختلاف جوهرى فى كيفية حصولها على نصيبها من الثروة الاجتماعية. والطبقات مجموعات من الناس يمكن لإحداها أن تمتلك ناتج عمل الأخرى نظرا للمواقع المختلفة التى تحتلها كل منها فى نظام محدد من العلاقات الاقتصادية الاجتماعية"(١).

ويرى ماركس أن علاقة الطبقة بوسائل الإنتاج هـى العامل الأساسـى المحدد لموقعها ودورها فى الإنتاج الاجتماعى وأيضا المحدد لكيفية حصولـها على الدخل وحجم ذلك الدخل. والطبقات لم توجد منذ بداية المجتمع البدائى فلم تكن هناك طبقات ذلك أن الإنتاج كان ضعيفا للغاية بحيث لم يكن يكفى إلا كى يقيم أود الناس أو يبقيهم على قيد الحياة، وبالتالى فإنه لم تكن هناك إمكانية ما لأن تتراكم أى ثورة فى أيدى أى مجموعة من الناس، بعبارة أخرى لم تكن هناك أى إمكانية للملكية الخاصة التى ما أن ظهرت حتى ظهرت الطبقات وتمايز الناس إلى مجموعات تملك وأخرى لا تملك أى شئ، ولكن مع تطور قوى الإنتاج ومع زيادة إنتاجية العمل بدأ الناس ينتجون أكثر مما يستهلكون وهكذا أصبح من الممكن أن تتجمع ثورة مادية لدى بعض الناس وأن يمتلك بعضهم وسائل الإنتاج، وهكذا ظهرت الملكية الخاصة التى ساعد على زيادتها التزايد المستمر فى تقسيم العمل والتبادل التجارى.

وقد أدى ظهور وتطور الملكية الخاصة وحلولها محل الملكية العامة إلى تزايد اللامساواة الاقتصادية. فبعض الناس وبخاصة زعماء القبائل أصبحوا أغنياء واستولوا على وسائل الإنتاج الجماعى، أما البعض الآخر الذين حرموا من ملكية وسائل الإنتاج فلم يكن أمامهم من مفر إلا أن يعملوا لدى أولئك الذين أصبحوا مالكين لوسائل الإنتاج.

وقد ظهرت الطبقات الاجتماعية حين تداعى النظام الجماعى البدائى وبدأ نظام الرق فى الظهور. وقد كان هذا الوضع المتناقض للطبقات فى المجتمع هو مصدر الصراع الطبقى وأصبح الصراع الطبقى هو العلامة المميزة لتطور البشرية خلال قرون طويلة.

وقد رفض ماركس تماما تعريف الطبقة على أساس المحكات التى كان يستخدمها المفكرون المثاليون فى ذلك الوقت (والتى مازالت تستخدم حتى الآن فى علم الاجتماع الغربى) فقد قرر ماركس عند حديثة عن الطبقات فى كتابه

رأس المال أنه لا يمكن التعرف على الطبقة على أساس مصدر الدخل، أو على أساس الوضع الوظيفى للأفراد فى عملية تقسيم العمل فهذه المحكات سوف تؤدى بنا إلى تقسيم الناس إلى عدد هائل من الطبقات: الأطباء الذين يحصلون على دخلهم من معالجة مرضاهم سوف يصبحون طبقة منفصلة عن طبقة الفلاحين الذين يحصلون على دخلهم من زراعتهم للأرض .. الخ).

وفضلا عن ذلك فإن استخدام مثل هذه المحكات سوف يؤدى إلى تداخل وضع تجمعات الأفراد فى العملية الإنتاجية فمثلا قد نجد شخصين يشتغلان بنفس العمل ولكن أحدهما قد يكون مستخدما لدى شركة، بينما يمتلك الآخر محلا أو ورشة صغيرة يعمل بها.

كما رفض ماركس استخدام محك الدخل للتميز بين الطبقات الاجتماعية، ذلك أن الدخل ليس منفصلا بأى شكل من الأشكال عن العملية الإنتاجية ولكنه يتحدد بأسلوب الإنتاج وبالتالى فإن ماركس قد رفض دعاوى المفكرين المثاليين أمثال "جون ستيورت - ميل" بأن الطبقات ليست إلا نتاجا للامساواة فى توزيع الدخل وبالتالى فإنه يمكن تخفيف حدة الصراع الطبقى أو حتى إزالته عن طريق تقليل الفوارق بين الدخول التى يحصل عليها الناس.

رأى ماركس إذن أن أساس تقسيم المجتمعات إلى طبقات هو ملكية أو لا ملكية وسائل الإنتاج، وأن الموقع من وسائل الإنتاج هو الذى يحدد كل العوالم الأخرى التى يتحدث عنها المفكرون المثاليون مثل المهنة والدخل وأسلوب الحياة ومحل السكن إلى آخره. ورأى ماركس أن كل المجتمعات الطبقية يوجد بها صراع طبقى بين الطبقة المسيطرة، أى تلك التى تمتلك وسائل الإنتاج المادية وبالتالى تكون لها السيطرة السياسية والقانونية والعسكرية والفكرية والطبقات الخاضعة أو المستغلة. وطالما توجد ملكية خاصة فى وسائل الإنتاج وطالما ينقسم الناس فى المجتمع إلى من يملكون هذه الوسائل ومن لا يملكون سوى جهدهم يبيعونه لملاك وسائل الإنتاج الذين

يستغلونهم فسيظل هناك دائما عداءا بين هذه الطبقات وسيظل هناك صراع بينهم، وقد شهدت المجتمعات البشرية لقورن عديدة هذا الاستغلال للطبقات العاملة سواء كانت هذه الطبقات من العبيد أو الفلاحين أو العمال الصناعيين من جانب الطبقات الحاكمة، وبالتالى فإنه من الطبيعى أن تقوم هذه الطبقات المستغلة بالثورة على القمع وعلى الظلم الواقع عليها وأن تسعى للحصول على حقوقها.

ويتكون المجتمع الطبقي من طبقات أساسية وطبقات غير أساسية أو ما يمكن تسميته بالفئات الاجتماعية. أما الطبقات الأساسية فهى تلك الطبقات اللتى ترتبط بنمط الإنتاج فى مجتمع معين من المجتمعات الطبقية حيث نجد طبقة ملاك وسائل الإنتاج وطبقة المعدمين المقهورين التى تقف فى مواجهة الطبقة الأولى، ففى المجتمع العبودى نجد طبقتين أساسيتين هما طبقة أصحاب العبيد والعبيد. وفى المجتمع الإقطاعى نجد طبقتين أساسيتين هما طبقة الإقطاعيين وطبقة الفلاحين وفي المجتمع الرأسمالى نجد طبقتى البرجوازية والبروليتاريا.

ولكن هذه المجتمعات الطبقية تضم أيضا مجموعات أو فئات اجتماعية لا يمكن اعتبارها طبقات بالمعنى السابق ذكره ولكن يمكن النظر إليها بوصفها طبقات غير أساسية لأنها لا ترتبط بشكل مباشر مثل النوع الأول (أى الطبقات الأساسية) بنمط الإنتاج السائد فى المجتمع الرأسمالى كما يضم المجتمع أيضا مجموعات اجتماعية مختلفة لا يمكن اعتبارها طبقات أساسية مثل المثقفين ورجال الدين وغيرهم. والصراع الطبقى فى المجتمعات الطبقية يدور بشكل أساسى بين الطبقات الاجتماعية الأساسية أما الطبقات الغير الأساسية أو المجموعات الاجتماعية فإنها لا تكون ذات اتجاه محدد فى ذلك الصراع وتتحالف مع طرف أو آخر من أطراف الصراع، المثقفون قد يتحالفون مع البروليتاريا فى صراعها ضد البورجوازية أو قد يتحالفون مع البرجوازية ضد البروليتاريا.

وهناك بعض التجمعات المتنافرة من الأفراد الذين لا يشكلون طبقة بمعنى الكلمة والذين يعتبرون على هامش النظام الطبقي في المجتمع لأنهم لا يلعبون دورا هاما في عملية تقسيم العمل. وهذه المجموعات تتكون من اللصوص والمجرمين والذين يعيشون عالة على المجتمع وقد بين ماركس أن درجة التشابه أو التجانس في كل طبقة من الطبقات تختلف باختلاف الأزمنة التاريخية. ففي كل طبقة من الطبقات يوجد نوع من التدرج في السيطرة والخضوع داخل ذاتها. مثال ذلك الطبقة الرأسمالية في فرنسا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، هذه الطبقة كانت تتكون من جناحين أساسيين هما جناح البورجوازية المالية والبورجوازية الصناعية، وكان هناك صراع بين هذين الجناحين، بعبارة أخرى تنقسم الطبقة داخليا إلى طبقات فرعية أو إلى مجموعات لكل منها مصالح متعارضة مع مصالح المجموعة الأخرى ولذلك ينشأ صراع بين المجموعات المكونة للطبقة نفسها ولكن هذا الصراع أو ذلك التناقض بين المجموعات المكونة للطبقة الكبيرة إنما هو حسب تعبير ماركس تناقض ثانوي وليس تناقضا أساسيا، بمعنى أنه إذا شعرت الطبقة ككل بخطر ما من طبقة أخرى فإنها في هذه الحالة سوف تتحدد جميعها من أجل الدفاع عن المصالح المشتركة بينها. بعبارة أخرى يظل هناك التناقض والصراع بين مكونات الطبقة الواحدة طالما أنها متماسكة كطبقة أو مسيطرة ويتلاشى أو يختفي في الظل ذلك الصراع إذا شعرت الطبقة ككل بتهديد مصالحها.

وقد قرر ماركس أن طبيعة الصراع الطبقي تختلف من شكل اجتماعي إلى آخر. ورأى ماركس أن الصراع الطبقي هو القوى الدافعة ومصدر التطور في المجتمع الطبقي الذي يسود فيه العداء أو العلاقات العدائية بين الطبقات، وهذا الصراع هو الذي يحدد التطور الاجتماعي في المجتمع الطبقي سواء في فترات السلم أو في فترات الثورة. فالرأسماليون يلجئون إلى تطوير الآلات والتكنولوجيا وابتداع أساليب جديدة لكي يواجهوا ضغوط العمال وأصحاب

الأعمال فقد لوحظ أنه بعد كل إضراب كبير قام به العمال ظهرت آلة جديدة(١١).

ورأى ماركس أنه كلما ازدادت حدة الصراع الطبقي وكلما أصبحت الطبقات المستغلة أكثر تنظيما وشدة فى صراعها ضد مستغليها كلما كان تطور المجتمع أسرع.

وتمثل الثورة الاجتماعية قمة الصراع الطبقي وتلعب دورا هائلا فى التقدم الاجتماعى وينجم عنها بالضرورة تحطيم نظام اجتماعى قديم لكى يحل محله نظام حيث أكثر تقدما وتاريخ المجتمعات الطبقية بأسره ملئ بكفاح الطبقات المستغلة ضد الطبقات المستغلة، فقد كان هناك صراع مرير بين العبيد وبين أصحاب العبيد فى المجتمع العبودى اتخذ أشكالا متعددة ابتداء من تحطيم الأدوات التى يعمل بها العبيد حتى الثورات الجماهيرية مثل الثورة التى قادها سبارتاكوز فى القرن الأول قبل الميلاد والتى اشترك فيها ما يزيد على المائة ألف من العبيد. وفى المجتمع الإقطاعى اتخذ الصراع الطبقى شكلا حادا وظهر على شكل هبات الفلاحين ضد الإقطاعيين واشتراك غيرهم من الكادحين معهم، مثل الخرفيين فى هذه الثورة. وقد شهد تاريخ أوربا ثورات فلاحية اشترك فيها مئات الألوف من الفلاحين ضد الإقطاعيين وامتدت لتشمل مناطق شاسعة واستمرت لسنوات طويلة. ومن أمثلة ذلك ثورة الفلاحين فى إنجلترا فى القرن الرابع عشر وثورة الفلاحين فى فرنسا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر وحرب الفلاحين فى ألمانيا فى القرن السادس عشر وثورات الفلاحين المتعددة فى القرن السابع عشر والثامن عشر فى روسيا وتمرد الفلاحين فى الصين فى القرن التاسع عشر، ولكن ثورة المظلومين فى المجتمعات الإقطاعية والعبودية لم تضع حدا للإستغلال لأن الظروف لم تكن مواتية لذلك فمستوى الإنتاج لم يكن يسمح بتغير النظام الاجتماعى إلى نظام آخر يخلو من الاستغلال والقمع. وكانت هذه الهبات أو الثورات غير منظمة

ولم يكن لدى الثوار أفكار واضحة عن أهداف صراعهم أو أساليب خوض هذا الصراع ولم تكن لدى هذه الجماهير نظرية تقدمية ترشدهم فى صراعهم ضد الظلم ولم يظهر ذلك إلا فى عهد الرأسمالية. ومع هذا فإن هبات العبيد والفلاحين لعبت دورا كبيرا وتقدميا فى الإنسانية. فقد قام العبيد بالقضاء على مجتمع العبودية وقام الإجراء من الفلاحين بدور كبير فى القضاء على النظام العبودى وانتقاله إلى نظام أكثر تقدمية هو نظام الرأسمالية. والطبقات الأساسية التى توجد فى المجتمع الرأسمالى هى طبقة الرأسماليين وطبقة البروليتارية وهاتان الطبقتان فى صراع دائم. وتهدف طبقة البروليتارية إلى التحرر من تلك السيطرة والحصول على نصيبها العادل من الثورة الاجتماعية. وهكذا فإن الطبقة البروليتارية هى التى يعتبرها كارل ماركس الطبقة الثورية الأساسية فى المجتمع الرأسمالى.

أما غيرها من المجموعات الاجتماعية مثل الفلاحين والحرفيين وهم يشكلون عددا كبيرا فى المجتمع الرأسمالى فإنهم ليسوا ثوريين حتى النهاية ذلك أنهم لا يحتلون مكانة مستقلة فى المجتمع، ومع تطور الرأسمالية فإنهم يدخلون نسق التدرج الاجتماعى فغالبية الفلاحين والحرفيين ينضمون إلى البروليتاريا، ذلك أن التطور الرأسمالى يفرض عليهم ذلك نظرا لتزايد الميكنة والتصنيع ونسبة قليلة جدا منهم لا تذكر يمكن أن تنضم إلى الطبقة الرأسمالية. أما بالنسبة للمثقفين أو الانتلجنسيا "مثل المهندسين والفنيين والأطباء والمدرسين والعلماء إلى آخره" فإنهم لا يمكن أن يكونوا ثوريين دائما، ذلك لأن غالبية المثقفين يضطرون لخدمة الطبقات المستغلة. ولكن الطبقة البروليتارية بحكم ظروفها وبحكم موضعها فى نسق الإنتاج الاجتماعى لابد وأن تكون هى الثورية والتى تسعى إلى التغيير، ذلك أن النظام الرأسمالى يضطر لتعليم هذه الطبقة لكى تساهم فى الإنتاج علاوة على أن العمال لا يملكون أى شئ يخشون فقدانه فى الصراع ضد الرأسمالية. والبروليتاريا

قادرة دائما على تنظيم نفسها أكثر من غيرها من الفئات العاملة وبالتالى فإنها تحتل دائما مركز القيادة للفئات الكادحة فى المجتمع.

وتلجأ الطبقة البروليتارية فى صراعها ضد الاستغلال والرأسمالية إلى عدة أنواع من أساليب الكفاح منها الكفاح الاقتصادى من أجل تحسين ظروفها وحصولها على أجور أفضل وساعات عمل أقل، والصراع السياسى من أجل تقليل السيطرة السياسية للدولة الرأسمالية وتحكمها فى المجتمع. الصراع الإيديولوجى الذى تهدف من ورائه إلى كشف زيف دعاوى البورجوازية وإيديولوجيتها وتشجيع الطبقة العاملة على الثورة وعلى تنظيم نفسها ضد العدو البورجوازى.

ولكن كيف يحدث ذلك الاستغلال من جانب أصحاب رؤوس الأموال أو الطبقة البورجوازية للبروليتاريا فى المجتمع الرأسمالى؟ يجيب ماركس على ذلك بقوله أن الرأسماليين يعطون أجورا للعمال على عملهم، كل عامل له الحرية فى أن يعمل أو لا يعمل فكيف يمكن القول إذن أن الرأسماليين طبقة مستغلة وأن العمال يقع عليهم الظلم أو الغبن؟ يرد ماركس على ذلك فى كتابه رأس المال ويفند هذه الدعاوى ويقدم نظريته عن فائض القيمة.

نظرية فائض القيمة فى المجتمع الرأسمالى :

خرج كارل ماركس من دراسته للمجتمع الرأسمالى ولديناميات بأن الرأسمالية هى نظام لإنتاج السلع System of Commodity production وفى النظام الرأسمالى لا ينتج المنتجون سلعا للوفاء باحتياجاتهم فحسب أو للوفاء باحتياجات الأفراد المتصلين بهم بشكل شخصى ولكن الرأسمالية تتضمن أساسا سوقا للتبادل سواء على المستوى القومى أو على المستوى الدولى.

وكل سلعة لها جانبان كما يقول ماركس : قيمتها الاستعمالية Use value من جهة وقيمتها التبادلية من جهة أخرى exchange value القيمة الاستعمالية هى التى تتصل بالاحتياجات التى يمكن استخدام السلعة من أجل تحقيقها، فأى شئ يمكن أن تكون له قيمة إستعمالية سواء كان سلعة أم لا ولكن لكى يصبح المنتج سلعة لابد أن تكون له قيمة تبادلية ولكن العكس ليس صحيحا. أما القيمة التبادلية فهي تشير إلى قيمة المنتج حين يقدم من أجل التبادل بمنتجات أخرى. وعلى عكس القيمة الاستعمالية نجد أن القيمة التبادلية تفترض علاقة اقتصادية معينة ولا يمكن أن تنفصل عن السوق الذى يتم فيه تبادل السلع. فأى سلعة يكون لها قيمة تبادلية من حيث علاقتها بغيرها من السلع.

وأى موضوع سواء كان سلعة أو لا يمكن أن تكون له قيمة طالما أنه قد استخدم فى إنتاجه جهد إنسانى وذلك هو أساس نظرية القيمة التى استعمارها كارل ماركس من الاقتصاديين الكلاسيكيين أمثال آدم سميث وريكاردو. ويترتب على ذلك أن كلا من القيمة التبادلية والقيمة الاستعمالية لابد أن يرتبطا بكمية العمل المبذول فى إنتاج السلعة.

ومن الواضح كما يقول ماركس أن القيمة التبادلية لا يمكن أن تشتق أو تعتمد على القيمة الاستعمالية، ويمكن توضيح ذلك بمثال القيمة التبادلية بسلعتين مثل الأذرة والحديد، إن كمية معينة من الأذرة تساوى كمية معينة من الحديد ولما كنا نستطيع أن تعبر عن قيمة كل من هذين المنتجين بالنسبة للآخر وبطريقة كمية فإن ذلك يبين لنا أننا نستخدم معيارا مشتركا نطبقه على الاثنين.

هذا المقياس أو المعيار المشترك للقيمة لا علاقة له بالخصائص الفيزيقية للاذرة أو الحديد وهى خصائص غير قابلة للقياس. ولكن القيمة التبادلية لابد أن تعتمد على خاصية ما يمكن قياسها كميا هذه الخاصية هى

العمل. وهناك بالطبع فروق كثيرة بين أنواع العمل المختلفة. ولكن الصفة المشتركة بين هذه الأعمال المختلفة هي كمية الوقت الذى ينفقه العامل فى إنتاج السلعة. أى أننا نقوم بتقييم أى سلعة من السلع على أساس الوقت الذى بذله العامل فى عمله ونقارن بين السلع بعضها وبعض على هذا الأساس. وقد أطلق ماركس على هذا العمل المبذول فى إنتاج السلعة تسمية (العمل المجرد) (Absteract labor).

ولا يعنى كارل ماركس بكمية العمل المبذول فى إنتاج السلعة أو العمل المجرد أى ساعات من العمل تبذل فى الإنتاج. فالعامل الكسول الذى يستغرق وقتا طويلا فى إنتاج سلعة ما لا يمكن أن تقدر قيمة السلعة التى ينتجها بأكثر مما تقدر السلعة التى ينتجها عامل آخر نشط يستغرق وقتا أقل فى إنتاج نفس السلعة والذى يعنيه ماركس بالعمل المجرد أو كمية العمل المبذول فى إنتاج السلعة ليس هو كمية الوقت التى تبذل فى العمل من جانب فرد عامل ولكنه يعنى بذلك ما أسماه وقت العمل اللازم اجتماعيا.

ويعرف ماركس وقت العمل اللازم اجتماعيا بأنه كمية الوقت التى يتطلبها إنتاج سلعة ما فى ظل الظروف العادية للإنتاج مع توافر درجة متوسطة من المهارة فى وقت معين لصناعة معينة. ويمكن وضع مقاييس عامة من خلال الدراسات الامبيريقية لتقدير الزمن المجرد أو وقت العمل اللازم لإنتاج السلعة فى ظل الظروف.

ولكن يجب أن نلاحظ أن كمية العمل اللازمة لإنتاج السلعة تختلف من وقت لآخر حسب ظروف الإنتاج فمثلا إذا حدث تحسن تكنولوجى مفاجئ فإن ذلك سيؤدى إلى تقليل كمية الوقت اللازم للعمل إنتاج سلعة معينة وبالتالى فإنه سوف يؤدى إلى تقليل فى قيمة هذه السلعة.

والذى يعمله الرأسمالى أنه يشترى العمل ويبيع السلع حسب قيمتها الفعلية أى بعبارة أخرى أنه لابد للرأسمالي أن يشترى السلع (المواد الخام

والعمل) حسب قيمتها ثم يبيعها بعد ذلك حسب قيمتها أيضا ولكنه مع ذلك في نهاية العملية الإنتاجية يحصل على قيمة من هذه العملية التبادلية أكبر من تلك القيمة التي وضعها عند بداية العملية الإنتاجية، فكيف يحدث ذلك؟

إن العمال في المجتمع الرأسمالي أحرار في بيع عملهم في سوق العمل. ويعني ذلك أن قوة العمل في حد ذاتها سلعة تباع وتشترى في السوق. وقيمة هذه السلعة (أي قوة العمل) تتحدد مثل أي سلعة أخرى على أساس وقت العمل الازم اجتماعيا لإنتاجها. فقوة العمل الإنساني تعني استهلاكا لطاقة جسمية لابد أن تعوض ولتجديد هذه الطاقة التي استهلكت في العمل لابد أن يحصل العامل على المستلزمات الضرورية لبقائه ككائن حي يمارس وظائفه مثل الطعام والملبس والمسكن له ولأسرته.

ووقت العمل اللازم اجتماعيا لإنتاج مستلزمات الحياة للعامل هو قيمة قوة العمل التي يبذلها العامل. وبالتالي فإن قوة العمل هذه يمكن في نهاية الأمر أن نحسبها بكمية معينة من السلع أي تلك التي يحتاج إليها العامل لكي يستطيع أن يعيش وأن ينتج. بعبارة أخرى يتبادل العامل مع رأس المال عمله في حد ذاته أي أن عمله هذا يصبح غريبا عليه وهذا هو أساس فكرة الاغتراب Alienation التي تحدث عنها كارل ماكس.

وتسمح ظروف الإنتاج الصناعي الحديث للعامل بأن ينتج في يوم العمل العادي أكثر بكثير مما يحتاجه لكي يغطي نفقات معيشته. فيكفي العامل أن ينفق بعضا من وقت العمل اليومي لكي ينتج سلعا توازي قيمتها قيمة المتطلبات الضرورية لبقائه. ولكن يبقى هناك بقية يوم العمل وكل ما ينتجه العامل في هذا الوقت المتبقي من يوم العمل يصبح قيمة فائضة يحصل عليها صاحب رأس المال.

فإذا فرضنا مثلا أن العامل يعمل عشر ساعات في اليوم وإذا كان العامل ينتج ما يوازي قيمة الجهد الذي يبذله في نصف هذا الوقت أي في

خمس ساعات فإن الخمس ساعات الباقية من العمل تصبح إنتاجا فائضا يتملكه صاحب رأس المال. وقد أطلق ماركس على النسبة بين العمل الضرورى وفائض العمل معدل فائض القيمة أو معدل الاستغلال.

ويجب أن نلاحظ هنا أن ماركس قد أوضح أن وقت العمل اللازم لإنتاج قوة العمل لا يمكن تحديده على أسس فيزيقية بحتة ولكن لابد أن نحدده على أساس مستوى المعيشة فى المجتمع المحدد ثقافيا. فالظروف الجوية والفيزيقية لها تأثير ولكن لابد من أن نضع فى اعتبارنا الظروف الاجتماعية التى تعيش فى ظلها طبقة العمال وما تستلزمها من متطلبات. ويعنى ماركس بذلك أنه مع تحسن الإنتاج وزيادته وارتفاع مستوى المعيشة فإن متطلبات العامل ومستلزمات أسرته المعقولة تتزايد باستمرار.

وهكذا يحدد كارل ماركس أساس الاستغلال فى المجتمع الطبقى الرأسمالى الحديث، فيرى أن الرأسمالية كطبقة يستحيل عليها أن تقوم بتراكم لرأس المال وأن تتملك باستمرار مزيدا من الثروة ما لم تحصل دائما على فائض قيمة علم العمال.

والعامل يضطر دائما إلى بيع قوة عمله لأصحاب الأعمال فى سوق العمل الذى يحددون هم قواعده باستمرار. ومعنى ذلك أن العمال لا يحصلون إطلاقا عن القيمة الحقيقية لما يبذلونه من قوة عمل فى العملية الإنتاجية بل تذهب هذه القيمة دائما إلى أصحاب الأعمال ولا يحصلون هم أنفسهم إلا على ما يكفى بالوفاء بمتطلبات حياتهم الضرورية(١٢).

إن هذا الاستغلال هو أساس الصراع الدائم بين طبقة البورجوازية وطبقة البروليتاريا. ويتخذ هذا الصراع كما سبق أن ذكرنا أشكالا متعددة هى الشكل الاقتصادى والسياسى والأيديولوجى.

وقد رأى ماركس أن هذا التقسيم الطبقى للمجتمع إلى من يملكون وسائل الإنتاج وإلى من لا يملكون إلا طاقة عملهم يبيعونها إلى أصحاب

رؤوس الأموال ليس تقسيما أبديا. كما أن الصراع الطبقي الذي يوجد في مثل هذا المجتمع ليس أبديا أيضا ولا عاما بالنسبة لكل المجتمعات. فمع تزايد حدة التناقض بين القوى الإنتاجية من جهة وبين العلاقات الإنتاجية من جهة أخرى، ومع تزايد حدة الصراع الطبقي وتزايد وعى البروليتاريا وتنظيمها لنفسها، ومع تزايد تناقضات المجتمع الرأسمالي فإن الثورة الاجتماعية سوف تقع لا محالة، بحيث تتوصل الطبقة العاملة إلى السيطرة على المجتمع وتقيم حكم الديكتاتورية البرولتارية وبحيث يتم القضاء تماما على الملكية الخاصة وعلى التقسيم الطبقي العدائي الذي كان سائدا في المجتمع الرأسمالي. وهذا المجتمع الجديد الذي سينشأ على أنقاض المجتمع الرأسمالي هو المجتمع الاشتراكي.

في هذا المجتمع الاشتراكي الذي تحدث عنه كارل ماركس سوف تحدث عملية إضفاء الطابع الجماعي لا الفردي على الإنتاج وسوف يتم القضاء على الملكية الخاصة وتصبح الملكية جماعية وتوزع الأجور على أساس مبدأ آخر مخالف تماما لذلك المبدأ الذي توزع على أساسه في المجتمع الرأسمالي، فسوف يحصل العمال على أجورهم على أساس قيمة العمل الحقيقية التي أنفقوها في عملهم بعد أن يخصم من هذه القيمة ما يغطي الاحتياجات الجماعية مثل إدارة العملية الإنتاجية والخدمات الاجتماعية المختلفة مثل التعليم والصحة والترفيه والسياحة .. الخ. ولكن في إعادة التنظيم الاجتماعي هذا سوف يحتفظ في نفس الوقت بالمبادئ الأساسية التي كانت سائدة في المجتمع الرأسمالي من حيث كيفية تقدير العمل على أساس موضوعي أي على أساس كمية الوقت المستغرقة فيه، بعبارة أخرى سيظل العمل ينظر إليه على أساس قيمته التبادلية. ولكن وجه الاختلاف الأساسي بين الوضع في الاشتراكية وفي الرأسمالية هو أنه بدلا من أن يصبح العمل ذو القيمة التبادلية قاصراً على الطبقة البروليتارية ويحصل أصحاب رؤوس الأموال على فائض القيمة العمل فإن العمل سوف يصبح خاصية لجميع الناس في المجتمع ولن يمتلك فائض قيمة أفراد معينون. وبذلك ينتهي الاستغلال

نظرا للقضاء على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج وعلى التقسيم الطبقي ويحصل كل فرد على ما يوازى قيمة عمله ولا يسمح لأحد أن يحصل على فائض قيمة غيره من الناس.

وما ينطبق على عملية الإنتاج ينطبق أيضا على المجال السياسى. فبدلا من سيطرة البورجوازية على جهاز الدولة لخدمة مصالحها سوف تسيطر البروليتاريا على جهاز الدولة لكى تخدم مصالح هذه الطبقة الجديدة.

ولكن هذه المرحلة أى مرحلة الاشتراكية إنما هى مرحلة انتقالية بين مرحلتى الرأسمالية والشيوعية. وذلك أن عملية الإنتاجية سوف يحكمها مبدأ جديد مخالف تماما لما كان موجودا من قبل بحيث يحصل المنتج لا على قيمة ما أنفقه من وقت فى العمل الإنتاجى ولكنه سوف يحصل على احتياجاته الفعلية. أى أنه لن ينظر للعمل على أنه سلعة تبادلية كما كان الحال فى المرحلة الرأسمالية وفى المرحلة الاشتراكية ولكن سينظر إليه بوصفة تنمية لقدرات الإنسان، ومصدرا لمتعة الأفراد والمجتمع على السواء. ولن يتحقق ذلك بالطبع إلا نتيجة لتزايد هائل ومستمر فى تحسين وسائل الإنتاج بحيث تكفى احتياجات كل البشر وبالتالى يمكن لكل شخص أن يشبع احتياجاته الأساسية سواء كانت هذه الاحتياجات احتياجات جسمية فيزيقية أو احتياجات ثقافية وروحية.

وفى المجتمع الشيوعى سوف تختفى الدولة لأنه لن يكون هناك أى نوع من الصراع بين البشر فى ذلك المجتمع وسوف يقوم الناس بأنفسهم على تصريف كل شئون حياتهم دون ما حاجة إلى قوة تمارس الإكراه أو القمع على الناس.

ويعزو ماركس ذلك إلى سيادة الروح الاجتماعية، والأخلاق الشيوعية الجديدة فى المجتمع. ولكن يوضح ماركس ذلك استشهد بكميونه باريس، فقد كانت خصائص هذا الكميونة أو هذا المجتمع الشيوعى الذى استمر فترة

قصيرة أنه لم تكن به دولة وكان أعضاؤه ينظمون شئونهم بأنفسهم وكانوا يجمعون بين كل من السلطة التنفيذية والتشريعية فى نفس الوقت، وسوف يختفى فى المجتمع الشيوعى تقسيم العمل الذى كان سائدا فى المجتمع البورجوازى حيث سيحل محل العامل المتخصص فى نوع معين من العمل فرد متطور يستطيع القيام بأعمال متنوعة ويستمتع بها. وسوف يصاحب ذلك بالطبع اختفاء ظاهرة التناقض بين العمل اليدوى والعمل العقلى من جهة والتناقض بين القرية والمدينة من جهة أخرى، وفى هذا المجتمع سوف تختفى أيضا ظاهرة اغتراب الإنسان عن عمله واغترابه عن أخيه الإنسان.

ظاهرة الاغتراب فى المجتمع الطبقى :

على الرغم من أن مفهوم الاغتراب قد ظهر فى كتابات كل من هيجل وفيورباخ إلا أن ماركس قد عالج هذا المفهوم على ضوء فلسفته المادية الجدلية وأضفى عليه معنى جديد غير ذلك الذى كان يقصده كل من هيجل وفيورباخ.

ونقطة الانطلاق عند ماركس فى تحليله لهذه الظاهرة السيكولوجية الاجتماعية التى تعنى بصفة عامة "أن يصبح الإنسان غريبا عن جانب من جوانب حياته" هى الواقع الاقتصادى الاجتماعى والعلاقات الإنتاجية التى تمارس الإنسان فى ظلها العمل.

لقد سبق أن ذكرنا أن النظام الرأسمالى يحيل طاقة العمل إلى سلعة تباع وتشترى فى الأسواق. وقلنا أن ماركس قد توصل إلى أن قيمة هذه السلعة "أى قوة العمل" تتحدد مثل قيمة أى سلعة أخرى، أى عن طريق وقت العمل اللازم اجتماعيا لإنتاجها. وهذا الوقت اللازم لإنتاج قوة العمل يتمثل فى الوقت المستغرق لإنتاج المستلزمات الأساسية لبقاء الإنسان العامل على قيد الحياة مثل الطعام والمسكن والملبس له ولأسرته. ورأينا أن العامل عليه أن يستبدل العمل أو قوة عمله بقيم أخرى. وبهذه الكيفية فإنه يجعل هذا العمل غريبا عن

نفسه أى يصبح عمله مغتربا عن ذاته ويصبح سلعة يسهل تبادلـها فـى السـوق مثل أى سلعة أخرى. هذه السلعة (أى قوة عمل العـامل) تصبـح أكثر رخصـا كلما انتج سلعا أكثر. بعبارة أخـرى يريد ماركس أن يقـول أن تدهـور قيمـة الإنسان تتناسب عكسيا مع تزايد قيمة الأشياء التى ينتجها[١٣].

إن ما ينتجه العامل يصبح غريبا عن ذاتـه ويقف فى مواجهتـه كقـوة مستقلة لا يستطيع حيالها شيئا. فالحياة التى منحها للشئ وحوله بها إلـى سلعة تصبح ضده هو شخصيا كقوة غريبة عليه ومعادية له.

ويتخذ اغتراب العامل عن ناتج عمله صورا متعددة ومتمايزة وتتخذ ظاهرة الاغتراب الأبعاد التالية :

١- يفقد العامل السيطرة على التصـرف فـى نـاتج عمله طالمـا أن مـا ينتجه يتملكه آخرون غيره بحيث لا يستفيد منه.

إن المبدأ الجوهرى فى اقتصـاد السوق هـو أن السلع تنتـج مـن أجـل التبادل وفى الإنتاج الرأسمالى يتحكم فى عملية التبادل وتوزيع السلع آليات أو مبادئ السوق الحرة. العامل ذاته الذى يعامل كسلعة تباع وتشترى فـى السـوق لا يكون له بهذه الكيفية القدرة علـى تحديد مصير مـا ينتجه. فمبادئ السـوق تعمل بطريقـة تسـاعد علـى زيادة مكاسب الرأسمالية علـى حساب مصـالح العامل.

وهكذا فإنه حسب قول ماركس : "كلما أنتـج العـامل أكثر كلمـا كـانت قدرته على الاستهلاك أقل، وكلما خلق مزيدا من القيم المادية كلما قلت قيمته أو أصبح عديم القيمة".

٢- ويغترب العامل أيضا خلال عملية العمل ذاتها :

"فإن كان نتاج العمل هو الاغتراب فإن الإنتـاج ذاتـه لابد أن يكـون اغترابا إيجابيا، أى أنه يحدث اغتراب للنشاط وأيضـا نشاط اغترابى". والعمل

ذاته لا يقدم إشباعا ذاتيا يجعل العامل قادرا على تنمية طاقاته العقلية والفيزيقية تنمية حرة طالما أن العمل الذى يؤديه مفروض عليه بقوة الظروف الخارجية فحسب. إن العمل يصبح وسيلة لغاية لا غاية فى حد ذاته ويتضح ذلك من حقيقة أنه بمجرد أن تزول قوة الإجبار أو الإكراه عن العمل نجد أن الناس تهرب من عملها كما لو كان هذا العمل طاعونا.

٣- وبما أن كل العلاقات الاقتصادية هى أيضا علاقات اجتماعية فإنه لابد أن نخلص إلى أن اغتراب العمل له آثار اجتماعية مباشرة. فتصبح العلاقات الإنسانية فى المجتمع الرأسمالى مجرد آليات فى السوق. ويتضح ذلك بشكل مباشر فى مغزى النقود فى العلاقات الاجتماعية. إن النقود فى المجتمع الرأسمالى تشجع على ترشيد العلاقات الاجتماعية طالما أنها تمثل معيارا مجردا يمكن على أساسه المقارنة بين أكثر الخصائص اختلافا وتجانسا واستبدال كل منها بالأخرى (فالذى يستطيع أن يشترى الشجاعة يصبح شجاعا مهما كان جبانا) فصاحب النقود يردد دائما أن نقوده قادرة على أن تتبادل كل خاصية وكل شئ بغيره مهما كانت هناك من تناقضات بين هذه الأشياء وبين بعضها البعض.

٤- يعيش الناس فى علاقة متبادلة مع العالم الطبيعى. والواقع أن التكنولوجيا والحضارة كلاهما تعبير عن نتاج هذه العلاقات التبادلية وهما الخصائص الرئيسية التى تميز الإنسان عن الحيوان. إن بعض الحيوانات تنتج بالطبع ولكن بطريقة آلية وبشكل تكيفى. والعمل المغترب يختزل النشاط الإنتاجى الإنسانى إلى مستوى التكيف بدلا من مستوى السيطرة الإيجابية على الطبيعة. وهذه العملية تعزل الفرد الإنسان عن جنسه البشرى أى عما يجعل حياة البشر متميزة عن حياة الحيوان. والذى يميز الحياة البشرية عن حياة الحيوانات كما يرى ماركس هو أن القدرات والإمكانيات والميول الإنسانية تشكل من خلال المجتمع. والواقع أنه ليس هناك فرد إنسانى واحد لم يولد فى

مجتمع ولم يتشكل من خلاله وكل فرد هو فى الواقع مستقبل للحضارة المتراكمة للأجيال السابقة وفى نفس الوقت يسهم فى تعديل وتغيير العالم الذى يعيش فيه من خلال تفاعله مع العالم الطبيعى والاجتماعى. إن الحياة الفردية للإنسان وحياة النوع ليسا شيئين مختلفين، فماركس يؤكد بأنه على الرغم من أن الإنسان فرد فريد ومتميز فإنه في نفس الوقت عبارة عن كل أو كل مثالى فهو الوجود الذاتى للمجتمع، كما تتم الخبرة بـه والتفكير فيه وعلى ذلك فإن عضوية الإنسان فى المجتمع مع الجهاز التكنولوجى والحضارة الذى يدعم هذا المجتمع والذى يجعل وجوده ممكنا هى التى تؤدى إلى تمايز الفرد الإنسانى عن الحيوان والتى تصبغ على الإنسان صفته الإنسانية. إن هناك حيوانات لها أعضاء حس مشابهة لتلك التى لدى الإنسان ولكن إدراك الجمال الذى فى الصورة أو الصوت فى الفن أو فى الموسيقى صفة وملكة إنسانية وهى من خلق المجتمع. والنشاط الجنسى أو عملية الأكل والشرب ليست بالنسبة للإنسان مجرد إشباع بسيط لدوافع بيولوجية ولكنها تحولت خلال عملية تطور المجتمع إلى تفاعل خلاق مع العالم الطبيعى وإلى أفعال يحصل منها الإنسان على إشباعات متعددة. إن ظهور الحواس الخمس هو نتاج التاريخ السابق ولكن ليست الحواس الخمس فقط ولكن ما يسمى بالحواس الخلقية والحواس العملية (مثل الرغبة والحب .. الخ) أى الإحساس الإنسانى والطابع الإنسانى للحياة هى التى يمكن أن تأتى فقط إلى الوجود عن طريق تواجد موضوعها أى من خلال الطبيعة التى اكتسبت طابعا إنسانيا.

وفى المجتمع البورجوازى يغترب الناس بأشكال محددة عن الروابط بالمجتمع التى تصبغهم بصبغة الإنسانية، فأولا يؤدى العمل المغترب إلى اغتراب حياة النوع عن الفرد، وثانيا يجعل حياة الفرد هدفا لحياة النوع من شكلها المجرد والمغترب. ونجد فى الرأسمالية سواء فى النظرية أو فى الممارسة أن حياة واحتياجات الفرد تبدو كما لو كانت من معطيات عضويته فى المجتمع أى مفروضة عليه بشكل مستقل ونجد هذه الفكرة معبرا عنها

بوضوح فى الاقتصاد السياسى الذى يقيم نظريته عن المجتمع على فكرة الفرد المنعزل الذى يسعى فقط إلى الإشباع الذاتى. والاقتصاد السياسى التقليدى بهذه الكيفية يجعل الملكية الخاصة جزءا من جوهر الإنسان كما يقول ماركس. ولكن الفرد لا يصبح فقط منعزلا عن المجتمع ولكن ما هو اجتماعى يصبح خاضعا لما هو فردى. فالطاقات الإنتاجية للمجتمع تستخدم فى حالة غالبية أفراد المجتمع الذين يعيشون على حدود الكفاف من أجل تحقيق الحد الأدنى من الظروف اللازمة لبقاء الكائن الحى على قيد الحياة، إن جماهير العمال الذين يشتغلون بالأجر يعيشون فى ظل ظروف يفتقدون فيها أكثر حاجات البقاء الفيزيقى أولية وبدائية.

ولا يقتصر الاغتراب على العامل فحسب أو على طبقة البروليتاريا ولكنه يمتد ليشمل كل المجتمع. والإغتراب يؤثر على كل مستويات المجتمع ويشوه الوظائف الطبيعية للإنسان. الحواس التى هى المصادر الأولى للحرية والسعادة ترد إلى حاسة تملك واحدة. والحواس لا تنظر إلى موضوعاتها إلا من زاوية إمكان أو عدم إمكان تملكها. بل أن اللذة والمتعة ذاتها تتحولان من شروط ينمى الناس فى ظلها طبيعتهم الكلية بحرية إلى أحوال للتملك والاقتناء الأنانى(٤١).

والإنتاج الرأسمالى بما فيه من اغتراب للعمل يدمر الإنسان. فالإنسان تعامل لا يشعر بأنه يسلك بحرية إلا حين يؤدى وظائفه الحيوانية كالأكل والشرب والتناسل أما فى وظائفه الإنسانية فإنه ليس إلا حيوانا فالحيوانى يصبح هو الإنسانى والإنسانى يصبح هو الحيوانى.

التشيؤ وفيتشية السلع :

يرتبط بمفهوم الاغتراب فى كتابات ماركس مفهوم آخر عالجه فى كتاب رأس المال هو مفهوم التشيؤ. والتشيؤ فى رأى ماركس هو العملية التى

يحيل فيها المجتمع الرأسمالى كل العلاقات الشخصية بين الناس إلى علاقات موضوعية أو لا شخصية بين أشياء.

إن النظام الرأسمالى يجعل العلاقات بين الناس فى المجمع تتم من خلال السلع التى يتبادلونها. والذى يحدد المركز الاجتماعى للأفراد ومستوى معيشتهم ودرجة إشباع حاجتهم ومدى حريتهم فى الواقع قيمة السلع التى يتملكها هؤلاء الأفراد. أما الخصائص الشخصية للفرد وحاجاته الفردية فإنها لا تدخل كثيرا فى الاعتبار فقد سبق أن ذكرنا أن الصفات الشخصية يمكن شراؤها بالمال فالشجاعة كما قال ماركس يمكن أن تشترى مهما كان الشخص جبانا والنبل يمكن أن يشترى مهما كان صاحبه خسيسا. وهكذا نجد أن أكثر صفات الإنسان إنسانية تصبح مرتبطة بالمال، وكما نعلم فالمال هو البديل العام للسلع المتبادلة بين الناس والعلاقات بين بعضهم البعض علاقات بين ما يملكونه من سلع وبذلك تتحول العلاقات الاجتماعية بين الأفراد إلى شئ أو بعبارة أخرى إلى صفات للأشياء أو السلع. أن أصل فيتشية السلع يرجع إلى الطابع الاجتماعى الخاص الذى ينتج هذه السلع[١٥]: وهكذا يقرر ماركس أن النظام الرأسمالى بما يتضمنه من اقتصاد السوق يحول العلاقات الاجتماعية الفعلية بين الناس إلى علاقات آلية بين أشياء وبذلك تكون هذه العملية التى تضمنها النظام الرأسمالى بمثابة سلب كامل لإنسانية الإنسان. ذلك أن تنظيم العمل وأسلوبه فى هذا النظام يشوه كل القدرات الإنسانية ويؤدى تراكم الثروة لدى القلة من أصحاب رؤوس الأموال إلى زيادة حدة الفقر عند الغالبية. كما يؤدى التقدم التكنولوجى إلى سيطرة المادة الجامدة على العالم الإنسانى. ويجب أن نذكر هنا أن آراء كارل ماركس هذه عن التشيؤ وفيتشية السلع وعن التكوينات الاقتصادية الاجتماعية وعن اقتصاد السوق إنما جاءت جميعها بعد نقد وتحليل للاقتصاد السياسى السائد فى أوربا فى القرن التاسع عشر ونظريته التى اتهمها ماركس بأنها أغفلت تماما العنصر الإنسانى والاجتماعى فى الاقتصاد وتعاملت مع هذا الاقتصاد كما لو كان شيئا جامدا خاليا من الحياة

الإنسانية. وفى ذلك يقول ماركس أن كل ظاهرة اقتصادية هى فى نفس الوقت ودائما ظاهرة اجتماعية وأى نوع من الاقتصاد إنما يتطلب وجود أولا وجود نوع محدد من المجتمع. وعلى الرغم من تأكيد ماركس على الأهمية العظمى للعلاقات الاقتصادية المادية بين الناس وتقريره أنها تشكل أساس التطور الاجتماعى إلا أنه رأى أن فهم عملية التطور الاجتماعى لا يمكن أن يتم اعتمادا على معرفة العوامل الاقتصادية فحسب. فبالإضافة إلى النشاط الإنتاجى الذى يمارسه الناس فإن المجتمع له أيضا حياته الروحية. فالناس فى أنشطتهم المختلفة يسترشدون بأفكار سياسية وخلقية معينة ويكون لديهم نظريات علمية وآراء واتجاهات ذات طبيعة اجتماعية فيما يتعلق بأصلها وأهميتها وتنتمى إلى ذلك المجال الذى أطلق عليه ماركس تسمية الوعى الاجتماعى وعلى ذلك فإن الوعى الاجتماعى له أهمية كبيرة فى التطور الاجتماعى.

(الوجود هو الذي يحدد الوعي)

الوجود الاجتماعى والوعى الاجتماعى :

يقول ماركس فى كتابه "إسهام فى نقد الاقتصاد السياسى" :

يدخل الناس خلال عملية الإنتاج الاجتماعى فى علاقات محددة مع بعضهم البعض. وهذه العلاقات مستقلة عن إرادتهم. وتتفق هذه العلاقات الإنتاجية مع مرحلة التطور فى القوى المادية فى الإنتاج لديهم. ومجموع هذه العلاقات الإنتاجية يشكل البناء الاقتصادى للمجتمع أو الأساس الحقيقى له الذى يبنى عليه الأبنية الفوقية القانونية والسياسية والذى تقابله أشكال محددة من الوعى الاجتماعى. ونمط الإنتاج فى الحياة المادية هو الذى يحدد الطابع العام للعمليات الاجتماعية والسياسية والروحية للحياة. فليس وعى الناس هو الذى يحدد وجودهم ولكن على العكس من ذلك يحدد الوجود الاجتماعى للناس وعيهم.

ويتضح من ذلك أن ماركس على عكس الفلاسفة المثاليين وعلى عكس الاتجاه المثالى فى علم الاجتماع المستمد من هذه الفلسفة مثل مؤلفات أوجست كونت واميل دور كايم، وماكس فيبر ومن تلاهم من علماء الاجتماع المثاليين يبدأ بالتسليم بأن الأساس الاقتصادى المادى للمجتمع هو الذى يتشكل بناء عليه الوعى الاجتماعي وأن القوى الأساسية المحركة للتاريخ هى القوة الاقتصادية الاجتماعية وليست القوى الفكرية. وماركس يرى أن علاقات الإنتاج هى أساس الوعى الاجتماعى. والوعى الاجتماعى عند ماركس يمكن تعريفه بأنه مجموع الأفكار والنظريات والآراء والمشاعر الاجتماعية والعادات والتقاليد التى توجد لدى الناس والتى تعكس واقعهم الموضوعى أى مجتمع الإنسانى والطبيعة. وبما أن الوجود الاجتماعى للناس يتصف بالتعقيد والتنوع، فإن الوعى الاجتماعى يتصف أيضا بالتعقيد والتنوع. ويدل استعراض التاريخ الاجتماعى أنه مع تغير الوجود الاجتماعى للناس يتغير أيضا وعيهم الاجتماعى فتختفى الأفكار القديمة وتظهر بدلا منها أفكار جديدة تتفق مع الظروف الجديدة والاحتياجات الاجتماعية الجديدة. ويمكن أن نلاحظ ذلك بما طرأ على الأفكار والأيديولوجيات فى المجتمعات الأوربية بعد أن انتقلت هذه المجتمعات من المرحلة الإقطاعية إلى المرحلة الرأسمالية التى اتسمت بنوعية جديدة من العلاقات الإنتاجية. إن النظريات والفلسفات والآراء القانونية والأخلاق والقيم والعادات والتقاليد التى ظهرت فى المجتمع الرأسمالى على أنقاض المجتمع الإقطاعى إنما تثبت صدق هذه المقولة لأنها تختلف اختلافا كبيرا عن ذلك التى كانت سائدة فى العصر الإقطاعى.

وبالمثل يمكن القول أن الوعى الاجتماعى فى المجتمعات الاشتراكية يختلف عنه فى المجتمعات الرأسمالية، فمع زوال الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج واستبدالها بالملكية العامة أو الجماعية تظهر روح جديدة بين الناس وتحل الاتجاهات الجماعية محل الاتجاهات الفردية الأنانية.

لقد أكد ماركس على أن الوجود الاجتماعى أى النشاط الإنتاجى المادى للناس هو الذى يحدد وعيهم الاجتماعى. ولكنه أكد أيضا على أن الوعى الاجتماعى يتصف أيضا بخاصية الاستقلالية النسبية فى تطوره. فالوعى الاجتماعى قد يتخلف عن تطور الوجود الاجتماعى أو قد يسبقه وتتضح الاستقلالية النسبية للوعى الاجتماعى فى استمرارية التطور. فالوعى ليس فى علاقة سلبية مع الوجود ولكن الوعى يؤثر تأثيرا إيجابيا على الوجود الاجتماعى.

ويتخلف الوعى الاجتماعى عن الوجود الاجتماعى لأن الوجود الاجتماعى للناس هو الذى يتغير أولا ثم يتبعه بعد ذلك تغير فى وعيهم وتنجم هذه الهوة بين الوجود والوعى أيضا نتيجة لقوة الأفكار والآراء القديمة، ذلك أن الطبقات الحاكمة تستخدم الأساليب المتاحة لها فى نشر أيديولوجيتها بين أعضاء المجتمع. والوعى الاجتماعى للناس لا يتخلف عن وجودهم الاجتماعى فحسب ولكنه فى ظل ظروف معينة يمكنه أن يسبق هذا التطور فى الوجود الاجتماعى، فيمكن للأشخاص الذين يقومون بتحليل قوانين المجتمع ويكشفون عن الاتجاهات العامة للتطور التاريخية أن يتنبأوا بالمستقبل أو يخلقوا نظريات تسبق عصرهم وتوضح الطريق للتطور لسنوات كثيرة قادمة.

والاستمرارية فى التطور الأيديولوجى إنما هى دليل واضح على الاستقلال النسبى للوعى الاجتماعى. فالطبقة الجديدة أى التى تصل إلى السيطرة على وسائل الإنتاج فى المجتمع عندما تخلق أيديولوجيتها فإنها لا تتخلى عن الإنجازات السابقة للفكر الإنسانى ولكنها تتمثل هذه الإنجازات وتضعها فى خدمتها. والاستمرارية فى تطور الأفكار ذات أهمية عظيمة فى الحياة الاجتماعية. فإذا كان الناس عاجزين عن استخدام إنجازات حضارة الماضى فإنهم سوف يكونون مضطرين دائما إلى أن يبدءوا من نقطة الصفر وإلى أن يكتشفوا قوانين تم اكتشافها منذ زمن بعيد مضى. ولكن الطبقات المختلفة تختلف فى نظرتها إلى التراث الأيديولوجى. فالطبقات الرجعية تأخذ

من الماضى الأفكار الرجعية وتكيفها بحيث تجعلها تتمشى مع الظروف التاريخية الجديدة ومع مصالحها. أما الطبقات الثورية فإنها تأخذ من التراث الأيديولوجى ما لم يفقد دلالته الإيجابية وما يمكن أن يساعد على التطور الإنسانى.

وعلى الرغم من أن ماركس يعطى الأولوية العظمى فى تحليله للمجتمع للوجود الاجتماعى إلا أنه رأى أن الوعى الاجتماعى يلعب دورا هاما وإيجابيا فى التطور الاجتماعى. فالأفكار التى توجد لدى الناس قد تساعد على تطور المجتمع أو قد تكون عائقا أمام هذا التطور. ولكن الدور الذى تلعبه هذه الأفكار يعتمد على الطبقة التى تتبناها أى ما إذا كانت هذه الطبقة تقدمية أو رجعية أو ما إذا كانت هذه الأفكار تعكس متطلبات الحياة المادية للمجتمع ومدى ارتباط هذه الأفكار بمصالح الجماهير. ولكن مهما كانت هذه الأفكار جديدة وتقدمية فإنها لا تستطيع وحدها على الإطلاق تغيير النظام الاجتماعى القديم وخلق نظام جديد يحل محله، ذلك أن هذه الأفكار لابد لكى تصبح قوية مادية من أن تكون متمثلة فى أذهان الناس فالناس الذين يتمثلون الأفكار التقدمية هم الذين يستطيعون جعل القوة الاجتماعية قادرة على حل المشكلات الاجتماعية الملحة.

تعليق عام :

تنص النظرية الماركسية عن المجتمع (المادية التاريخية) على المسلمات الأساسية التالية :

- أن أساس الواقع الاجتماعى والحياة الاجتماعية مادى وليس فكريا، وبالتالى فإن نقطة البدء فى تحليل المجتمع يجب أن تكون الأفراد الحقيقيين بلحمهم ودمهم؛ وهؤلاء الأفراد كائنات حية حقيقية لها احتياجات فيزيقية حقيقية. ولكى يعيش هؤلاء الأفراد لابد أن يتفاعلوا مع الطبيعة وهذا التفاعل هو أساس عملية الحياة. والإنسان لا يتفاعل

مع الطبيعة تفاعلا سلبيا ولكنه يتفاعل معها تفاعلا إيجابيا بحيث ينتج من خلال عمله ما يحتاج إليه. والعملية الإنتاجية ليست فقط عملية طبيعية ولكنها أيضا اجتماعية، حيث يضع الناس لأنفسهم نظما تحدد علاقاتهم الاجتماعية فى العمل.

٢- أن الإنسان كائن قابل للتطور دائما وقادر على تغيير عالمه الطبيعى والاجتماعى.

٣- أن التطور الاجتماعى يحدث نتيجة الصراع الدائم بين الإنسان والطبيعة من جهة وبين المجموعات الاجتماعية المتصارعة فى المجتمعات الطبقية من جهة أخرى.

٤- أن المجتمع يكون فقط فى حالة ثبات نسبى، ذلك أنه ما أن يظهر تكوين اجتماعى - اقتصادى جديد على أنقاض تكوين سابق حتى تظهر فيه أيضا بذور فنائه، وعلى الرغم من ثباته النسبى غلا أنه تحدث فيه تغيرات كمية يؤدى تراكمها إلى حدوث تغير كيفى فيه.

٥- أن وظيفة العالم ليست فقط دراسة الظاهرات الاجتماعية من أجل فهمها ولكنها أيضا تشمل الممارسة أو العمل من أجل تغييرها وفقا للقوانين الاجتماعية التى يكشفها.

٦- إن وحدة التحليل الأساسية ليست هى الفرد ولكن التكوين الإجتماعى الاقتصادى الذى تكون تاريخيا.

٧- أن النظرية الاجتماعية يجب أن تضم القوانين العامة التى تحكم المجتمع الإنسانى فى تطوره والقوانين النوعية التى تحكم كل نمط من أنماط المجتمعات فى مرحلة تاريخية محددة والتى تحكم الظاهرات النوعية.

٨- المتغيرات التى يتم على أساسها تفسير الظاهرات الاجتماعية هى المتغيرات الاقتصادية - الاجتماعية ذات الطبيعة التاريخية.

وتصور النظرية الماركسية عن المجتمع النظام الشيوعي على أنه النظام الأمثل للبشرية على عكس النظريات الاجتماعية الغربية التى تؤكد على أن النظام الأمثل هو الرأسمالية.

وتنحاز النظرية الماركسية بوضوح للطبقات العاملة وتؤكد أنها صاحبة الحق فى السيطرة على المجتمع كما تدعو إلى القضاء على الطبقية والعلاقات العدائية بين المجموعات عن طريق إلغاء الملكية الخاصة بحيث ينتهى الصراع الطبقى فى نهاية الأمر وتسود الإنسانية الحقيقية بين أفراد المجتمع.

وقد قدم ماركس أدلة تاريخية على صدق نظريته واعتمد على الكثير من الأدلة من العلوم الأخرى.

وللنظرية طبيعة ثورية حيث تدعو إلى العمل دائما على تغيير الواقع الاجتماعى وخلق أوضاع جديدة ومتطورة دائما.

ومنذ أن ظهرت النظرية الماركسية، بل حتى منذ ظهرت بوادر الفكر الاشتراكى فى أوربا، وهى تتعرض لنقد شديد، وقد سبق أن ذكرنا أن بعض العلماء الاجتماعيين يرون أن علم الاجتماع الغربى الأكاديمى نشأ كرد فعل ضد الماركسية ونقد ونفى لها. وقراءتنا للنظريات السابق عرضها تشكل فى الواقع قراءة للنقد الموجه للماركسية. وسوف نرى أن الماركسية مازالت تتعرض للنقد الشديد فى كتابات علماء الاجتماع الغربيين التقليديين من جهة وأنها مازالت مصدرا للأفكار الراديكالية فى علم الاجتماع الغربى من جهة أخرى.

هوامش الفصل الثامن :

١- Quoted by Lewis Coser in Masters of Sociological Thought (Harcourt Brace Jouvanovich, Inc. New York 1977), p.62 form Berlin, J. Karl Marx, His lif and Envioroment (New York Oxford, 1984), p.146.

٢- Qouted by Anthony Giddens in Capitalism and Modern Social Theory (Cambridge University Press London, 1971), p.1 from Loyd D. Easton and Kurt Guddat: Writings of The Yound Marx on Philosophy and Society, New York, 1967, pp.40-50.

٣- اعتمدنا فى هذا الجزء على المعلومات التى أوردها كور فى كتابه السابق الإشارة إليه.

٤- انظر Zeitlin (مرجع سابق) حيث نجد أنه فى تقسيمه لأبواب كتابه يضع فيبر وباريتو وموسكا ومشيلزو ودركايم فى باب عنوانه الحوار مع شبح ماركس The Debate with the Ghost of Marx.

٥- V. Afanasyv: Marxist Philosophy (Progress Publishers, Moescow, 1968).

٦- Chesnokov, D. L: Historical Materialism (Progress Publisherys Moscow, 1969), pp.15-16.

٧- Irving Zeitlin, op.cit., p.84.

٨- Karl Marx and Fredrick Engles: The German Ideology, London, 1965), p.31.

٩- V. Afanasyev, op.cit., pp.189-201.

١٠- أوسبيوف، قضايا علم الاجتماع، ترجمة: د.سمير نعيم أحمد، د.فرج أحمد، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠م.

١١- Giddens, op.cit., p.39.

١٢- Giddens, op.cit., pp.46-50.

١٣- T. B. Bottomore Karl Marx, Eorly Writings, New York, 1981, p.121.

١٤- انظر العقل والثورة، مرجع سبق ذكره، ص٥٧٢.

١٥- انظر العقل والثورة، ص٢٧٢.

كلمة فيتشية تعنى العبودية، وهكذا فإن المقصود بفيشية السلع هو عبودية الإنسان للسلعة وتقديره الهائل لها بحيث تصبح ذات وزن متضخم فى حياته.

الباب الثالث

صياغات حديثة لمسلمات قديمة

الفصل التاسع : البنائية الوظيفية .

الفصل العاشر : الظاهراتية (الفينومينولوجيا).

الفصل الحادى عشر : السلوكية الجمعية .

الفصل الثانى عشر : الراديكالية .

الفصل التاسع

البنائية الوظيفية

يمكننا القول أن ما أصبح يعرف بالاتجاه البنائي الوظيفي في النظرية الاجتماعية يمثل أكثر الاتجاهات رواجاً في علم الاجتماع في خلال الخمسين سنة الأخيرة في كل من الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا. وخلال هذه السنوات الخمسين ظهرت مؤلفات عديدة حول هذا الاتجاه النظري في علم الاجتماع سواء منها ما تناولته بالشرح أو بالتعديل والإضافة أو النقد. وقد اعتبر هذا الاتجاه من المعالم الرئيسية لعلم الاجتماع الأكاديمي المعاصر.

ويميل كثير من علماء الاجتماع الذين يروجون لهذا الاتجاه إلى اعتبار علم الانثربولوجيا هو المصدر الأساسي لذلك الاتجاه، ويشيرون بصفة خاصة إلى كتابات كل من رادكلف براون ومالينوفسكي.

إلا أن هناك علماء اجتماع آخرين يرون أن هذا الميل من جانب علماء الاجتماع الوظيفيين إلى الربط بين نشأة الاتجاه الوظيفي في علم الاجتماع وبين الاتجاه الوظيفي في الأنثربولوجيا الثقافية إنما هو تشويه للحقيقة ومحاولة لإخفاء الطابع الإيديولوجي المحافظ لذلك الاتجاه[1]. فالواقع أن الاتجاه الوظيفي كما سنرى يعتمد تماماً على المسلمات الأساسية للاتجاه العضوي الذي كان سائداً في النظريات الاجتماعية الأولى في علم الاجتماع والذي تخلى عنه علماء الاجتماع بعد ما أصبح هذا الاتجاه كما يقول مارتنديل سيئ السمعة وموصوماً بوصمة الرجعية. والمسلمة الأساسية التي تعتمد عليها البنائية الوظيفية والتي تدور حول فكرة تكامل الأجزاء في كل واحد والاعتماد المتبادل بين العناصر المختلفة للمجتمع هي التي كانت تدور حولها فكرة الإتفاق العام عند كونت وفكرة التكامل الذي يصحب التمايز عند سبنسر ونظرة باريتو للمجتمع على أنه في حالة توازن. كما أن نفس هذه المسلمة كانت موجودة في أعمال أميل دوركايم[2].

والبنائية الوظيفية ليست فى واقع الأمر سوى صياغات جديدة لأفكار ومسلمات قديمة تعود إلى القرن التاسع عشر وترتبط بظهور ذلك الاتجاه القوى ذى الصبغة العلمية للدفاع عن النظام الرأسمالي وتبريره. وعلى ذلك فإن المؤسسين الحقيقيين للوظيفية هم علماء الاجتماع الأوائل من الوضعيين العضويين وتعتمد الوظيفية بصفة أساسية على فكرة النسق العضوى Organic eystem التى اعتمدت عليها النظريات العضوية، وهى الفكرة التى مؤداها أن كل شئ يمكن النظر إليه باعتباره نسقاً أو كلاً متكاملاً يتكون من أجزاء مثل الكائن الحى. ويجدر بنا قبل أن نستطرد فى شرح العلاقة بين الوظيفية وبين الوضعية والأنثروبولوجى الثقافية أن نحدد أولاً الخصائص الأساسية للاتجاه الوظيفى فى النظرية الاجتماعية.

على الرغم من أن هناك عديداً من علماء الاجتماع الذين ينتمون إلى الاتجاه الذى يعرف باسم الوظيفية، مثل رويت مرتون وجورج هومانز وتالكوت بارسونز وماريون ليفى وروبرت بليز وغيرهم، وعلى الرغم مما يوجد من اختلافات بين هؤلاء العلماء إلا أنه يمكننا القول بصفة عامة أن الاتجاه الوظيفى يعتمد على ستة أفكار رئيسية أو مسلمات محورية هى :

١- يمكن النظر إلى أى شئ سواء كان كائناً حياً أو اجتماعياً وسواء كان فرداً أو مجموعة صغيرة أو تنظيماً رسمياً أو مجتمعاً أو حتى العالم بأسره على أنه نسق أو نظام System. وهذا النسق يتألف من عدد من الأجزاء المترابطة، فجسم الإنسان نسق يتكون من مختلف الأعضاء والأجهزة؛ والجهاز الدورى فيه مثلاً عبارة عن نسق يتكون من مجموعة من الأجزاء، وشخصية الفرد نسق يتكون من أجزاء مختلفة مثل السلوك والحالة الانفعالية والعقلية.. الخ. وكذلك المجتمع والعالم.

٢- لكل نسق احتياجات أساسية لابد من الوفاء بها وإلا فإن النسق سوف يفنى أو يتغير تغيراً جوهرياً. فالجسم الإنسانى مثلاً يحتاج للأكسجين

والنتروجين وكل مجتمع يحتاج لأساليب لتنظيم السلوك (القانون) ومجموعة لرعاية الأطفال (الأسرة) وهكذا.

٣- لابد أن يكون النسق دائماً في حالة توازن Equilibrium ولكي يتحقق ذلك فلابد أن تلبى أجزاءه المختلفة احتياجاته. فإذا اختلت وظيفة الجهاز الدوري فإن الجسم سوف يختل ويصبح في حالة من اللا اتزان Disequibrium.

٤- وكل جزء من أجزاء النسق قد يكون وظيفيا Functional أي يسهم في تحقيق توازن النسق وقد يكون ضارا وظيفيا Dys Functional أي يقلل من توازن النسق وقد يكون غير وظيفي Non Functional أي عديم القيمة بالنسبة للنسق.

٥- يمكن تحقيق كل حاجة من حاجات النسق بواسطة عدة متغيرات أو بدائل، فحاجة المجتمع لرعاية الأطفال مثلاً يمكن أن تقوم بها الأسرة أو دار الحضانة، وحاجة المجموعة إلى التماسك قد تتحقق عن طريق التمسك بالتقاليد أو عن طريق الشعور بالتهديد من عدو خارجي.

٦- وحدة التحليل يجب أن تكون الأنشطة أو النماذج المتكررة فالتحليل الاجتماعي الوظيفي لا يحاول أن يشرح كيف ترعى أسرة معينة أطفالها ولكنه يهتم بكيفية تحقيق الأسرة كنظام لهذا الهدف.

وهدف الوظيفية أو التفسير الوظيفي هو الكشف عن كيفية إسهام أجزاء النسق في تحقيق النسق ككل لاستمراريته أو في الإضرار بهذه الاستمرارية فعلم الاجتماع الوظيفي قد يحاول الكشف عن دور وسائل الاتصال الجمعي في المجتمعات المركبة في تحقيق المجتمع لتوازنه. وقد يحاول أن يكشف عن الجوانب السلبية للحرب أو الجريمة بالنسبة للمجتمع.

ولكي نوضح أكثر المقصود الوظيفي نأخذ كمثال تحليل كنجز لي دفيز

وولبرت مور للتدرج الاجتماعى (أو التفاوت الطبقى) يقول المؤلفان أن التدرج الاجتماعى الذى هو عبارة عن ترتيب للمجموعات أو الأفراد فى درجات أو رتب ذات مكانات مختلفة مثل الطبقات الاجتماعية أو الفئات المهنية شئ وظيفى بالنسبة للمجتمع. أى أنه لابد أن يكون قائماً باستمرار لأن هذا التدرج هو أساس شغل المراكز الهامة فى المجتمع بأكثر الأشخاص كفاءة. ويعنى ديفز ومور بذلك أنه إذا كانت هناك مساواة بين الناس فى أوضاعهم وفيما يحصلون عليه من مزايا فإن المجتمع لن يستطيع المحافظة على حالته السوية. فالمراكز السياسية والاقتصادية الهامة ستظل خالية - أو ستشغل بأشخاص غير أكفاء مما سيؤدى إلى اختلال المجتمع. ويفترض ديفز ومور أن عدد الأفراد الأكفاء والمؤهلين لشغل هذه المراكز محدود وأمثال هؤلاء الأفراد لابد أن يضحوا فى البداية خلال عملية تدريبهم وبالتالى فإنهم لابد أن يحصلوا على امتيازات كافية تشجعهم على تحمل فترة التدريب هذه. وعلى ذلك فإن نظام التدرج يسهم فى أداء المجتمع لوظائفه، أى أنه يكون وظيفياً بالنسبة للمجتمع بوصفه نسقاً.

ويرى عالم اجتماع آخر أن الأسرة تقوم بإشباع حاجات كل من الفرد والمجتمع أى أنها وظيفية بالنسبة للأثنين. فوظائف الأسرة بالنسبة للمجتمع هى:

١- المحافظة على النوع.

٢- تنظيم السلوك الجنسى.

٣- تزويد الأطفال باحتياجاتهم الجسمية والاقتصادية والنفسية.

٤- المحافظة على التراث الثقافى ونقله من جيل لآخر.

أما بالنسبة للفرد فإنها تؤدى له الوظائف الآتية :

١- البقاء الفيزيقى.

٢- الإشباع الجنسى.

٣- الرعاية والحماية.

٤- التنشئة الاجتماعية.

٥- اكتسابه صفته الاجتماعية.

ويستند التحليل الوظيفى كما نرى وكما يؤكد دون مارتندال على التصور العضوى للمجتمع، أى النظر للمجتمع بوصفة يشبه الكائن الحى، وبذلك تستمد الوظيفة مسلماتها الأساسية من الاتجاه العضوى الذى أسسه كونت ودور كايم وغيرهما، والذى اعتمد عليه علماء الأنثربولوجيا فى تحليلاتهم الوظيفية للمجتمعات البدائية (مثل رادكليف بروان، والمينوفسكى) ثم مالبث تأثيرهم أن انتقل مرة أخرى إلى علم الاجتماع.

وقد استخدمت كلمة وظيفة بعدة معان فى علم الاجتماع هى :

١- الإسهام الذى يقدمه الجزء للكل قد يكون المجتمع أو الثقافة وهذا هو المعنى الذى استخدمها به دور كايم ورادكليفت براون ومالينوفسكى.

٢- الإسهام الذى تقدمه الجماعة إلى أعضائها أو الإسهام الذى يقدمه المجتمع الكبير للجماعات الصغيرة التى يضمها.

٣- تستخدم للإشارة إلى دراسة الظاهرات الاجتماعية باعتبارها عمليات أو آثار لأبنية اجتماعية مثل أنساق القرابة أو الطبقة.

٤- تستخدم بمعنى مناسب.

وأهم فكرة فى الوظيفة أن الوحدات أو الأجزاء ذات أهمية ثانوية بالمقارنة بالنسق عند تحليل المجتمع[٤].

ويختلف علماء الاجتماع الذين يتبنون الاتجاه الوظيفى فى نوعية الأنساق التى يهتمون بملاحظتها فمنهم من يركز على تحليل أنساق صغيرة

(كالمجموعات) ويمثل هذا الاتجاه كورت ليفين ويعرف باسم وظيفية الوحدة الصغرى Micro functionalism ومنهم من يركز على تحليل أنساق كبيرة (كالمجتمع) ويمثل هذا الاتجاه روبرت مرتون وتالكوت بارسونز وجورج هومانز، ولكن جميع الوظيفيين يشتركون في أن الخصائص التي يحللونها دائما خصائص معنوية أو سيكولوجية أو فكرية. أي أنهم مثاليون Idealist.

وسوف نعرض هنا باختصار لأثنين من ممثلي الاتجاه الوظيفي وأشهرهم هما عالمي الاجتماع الأمريكي تالكوت باسونز Talcott Parsons وروبرت مرتون Robert, Merton.

- تأثر تالكوت بارسونز فكرياً بعالم الاجتماع الفرنسي اميل دور كايم. وعالم النفس النمساوي سيجموند فرويد والإيطالي صاحب نظرية الصفوة فلفريدو باريتو وعالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر، وكذلك بعلماء الاقتصاد التقليديين.

وقد بدأ بارسونز كتاباته النظرية مسترشداً بماكس فيبر، ويمكن تصنيف مؤلفاته الأولى تحت نظريات الفعل الاجتماعي السابق الحديث عنها.

ويرتكز الإطار النظري لبارسونز على أربع مفهومات أساسية هي :

- الفعل الاجتماعي — Social Action
- والموقف — Situation
- والفاعل — Actor
- وتوجيهات الفاعل — Actor's orientation

ويرى بارسونز أن كل فعل عبارة عن سلوك، ولكن كل سلوك ليس فعلاً. فاتجاه الفراشة نحو الضوء والذي يعتبر استجابة آلية من جانب ذلك الكائن لمنبه الضوء سلوكاً وليس فعلاً، أما إذا دخل عنصر ذاتي بين المنبه والاستجابة فإن هذا السلوك يصبح فعلاً. فإذا تخيلنا أن الفراشة قالت لنفسها :

"كم هذا الضوء جميل، إنى أريد أن أكون قريبة منه، ولذلك فإننى سأطير إليه مباشرة وبأسرع ما يمكن" ففى هذه الحالة يصبح السلوك فعلاً(٥).

وعلى ذلك فالذى يميز الفعل عن السلوك أساسا هو أن الفعل يتصف بعنصر اتخاذ القرار الذى يقع بين المنبه والاستجابة، ووحدة التحليل هى الفاعل الذى قد يكون فردا أو مجموعة أو مجتمعا(٦).

أما الموقف فإنه قد يكون المسرح أو أى طرف يكون الفاعل فيه مضطرا لاتخاذ قرار يختار بموجبه بين أدوار بديلة يقوم بها. الموقف يتضمن مجموعة متنوعة من المنبهات الممكنة، وبصفة خاصة الموضوعات Objects، سواء كانت هذه الموضوعات إنسانية أو غير إنسانية وكذلك مجموعة من المعايير Norms التى هى عبارة عن أنماط متوقعة من السلوك، والقيم Values وهى عبارة عن تصورات لما هو مرغوب فيه ومهمة الباحث أن يحدد كيف ولماذا يستجيب الفاعل لمنبهات معينة دون غيرها.

وحين يوجد الفاعل فى موقف ما ويكون عليه أن يقوم فيه بفعل معين فإن هناك ما يحدد اختياره لنوعية ذلك الفعل وهذه المحددات هى ما أسماها بارسونز بالتوجيهات Orientations.

فحين نتعامل مع الآخرين فإنه توجهنا عدة أشياء، فلابد أن نقرر ما إذا كان تعاملنا معهم سيكون على أساس علاقة انفعالية أو سيكون محايدا انفعاليا، وبناء على ذلك نقرر ما إذا كنا سنتعامل معهم على أساس أنهم شخصيات متكاملة أو على أساس جزئى ثانوى فحين يلتقى رجل ما زوجة له، فإنه يتعامل معها انفعاليا وعلى أساس أنها شخصية متكاملة، وحين يلتقى طبيبا ليعالجه فإنه يتعامل معه على أساس غير انفعالى وبالتالى ينظر إليه من جانب واحد وهو كفاءته فى وظيفته (وقد أسمى بارستونز ذلك بالتوجيهات الإدراكية الدافعة).

كذلك يجب أن نختار بين أن نتصرف فى موقف ما على أساس

المصلحة الذاتية أو على أساس مصلحة المجموعة (وأسمى ذلك بالتوجيهات التقويمية الدافعية).

وقد ميز بارسونز بين ما أسماه بالتوجيهات الدافعة والتوجيهات القيمية وتشير التوجيهات الدافعة إلى تلك الجوانب من توجيهات الفاعل نحو موقفه والتى ترتبط بالإشباع أو الحرمان الفعليين أو الممكنين لاحتياجات الفاعل(٧).

وتوجد ثلاثة أنواع من التوجيهات الدافعة :

١- التوجيهات المعرفية، وتتضمن تحديد مكان الموضوع الذى نتعامل معه فى عالم موضوعات الفاعل وتحديد خصائصه ووظائفه الفعلية الممكنة وتمايزه عن غيره من الموضوعات.

٢- التوجيهات الانفعالية وتتضمن مختلف العمليات التى يوزع بواسطتها الفاعل طاقته على مختلف الأعمال فيما يتعلق بمختلف الموضوعات ذات الدلالة الانفعالية فى محاولته زيادة الإشباع.

أما التوجيهات القيمية فتشير إلى المعايير الثقافية أو إلى تلك الجوانب من توجيهات الفاعل التى تجبره على أن يأخذ فى اعتباره إمكانية تطبيق معايير معينة ومحكات اختيار حين يكون فى موقف يسمح له بأن يختار السلوك الذى يقوم به. وتنقسم هذه التوجيهات القيمية بدورها إلى ثلاثة أنواع :

١- التوجيهات المعرفية. وتتضمن الالتزام بمعايير معينة ثبت صدقها معرفيا.

٢- التوجيهات التقديرية وتتضمن الالتزام بمعايير معينة ثبت بواسطتها ملاءمة أفعال معينة لموضوع ما انفعاليا.

٣- التوجيهات الأخلاقية، وتتضمن الالتزام بمعايير معينة تحددت صلاحيتها على أساس نتائج الأفعال بالنسبة للنسق الكلى (أى المجتمع).

ويرى بارسونز أن التوجيهات القيمية تمثل تأثير التوقعات الاجتماعية على تعريف الشخص للموقف. فالقيم الاجتماعية - أى التوقعات التى يشترك فيها الناس فيما يتعلق بأنسب الوسائل لتحقيق الغايات المرجوة تؤثر على الجانب المعرفى عند الفرد من حيث أنها تحدد له مدى الموضوعات التى يدركها وأسلوب الاستجابة لها. كما أنها تؤثر على الفرد من حيث أنها تحدد له القيمة النسبية للموضوعات المختلفة، وكذلك من حيث أنها تفرض عليها شعوراً بالمسئولية عن أفعاله على أساس آثارها السلبية والإيجابية على المجتمع.

وهذه العناصر المختلفة التى بدأ بارسونز يدرسها (أى الفاعل والفعل والموقف والتوجيهات) ارتكز عليها فيما بعد عند محاولته تكوين نظرية بنائية وظيفية عن المجتمع، وهى التى يرى إن أى نسق يتكون منها فهى تدخل فى تكوين ثلاثة أنواع من الأنساق: النسق الاجتماعى، ونسق الشخصية، والنسق الثقافى.

ويعرف بارسونز النسق الاجتماعى عدة تعريفات أوضحها ذلك الذى يقول : "والنسق الاجتماعى عبارة عن فاعلين أو أكثر يحتل كل منهم مركزاً أو مكانة متمايزة عن الأخرى ويؤدى دوراً متمايزا، فهو عبارة عن نمط منظم يحكم علاقات الأعضاء ويصف حقوقهم وواجباتهم تجاه بعضهم البعض، وإطار من المعايير أو القيم المشتركة بالإضافة إلى أنماط مختلفة من الرموز والموضوعات الثقافية المختلفة".

ويعرف بارسونز الدور بأنه سلوك الفاعل فى علاقته مع آخرين إذا ما نظرنا إلى هذا السلوك فى سياق أهميته الوظيفية للنسق الاجتماعى، أما المكانة فتشير إلى موقع الفاعل فى نسق علاقة اجتماعية معينة.

وعندما يتكون نمط ثابت نسبيا من الأدوار يسمى ذلك بناء Structure أما النمط الثابت من علاقات الأدوار فيسمى نظاماً Institution.

أما النسق الثقافى فيرى بارسونز أنه نتاج لأنساق التفاعل الاجتماعى من ناحية ومحدداً لهذا التفاعل من ناحية أخرى، وقد ميز بارسونز بين ثلاثة أنماط من الأنساق الثقافية:

١- أنساق الأفكار أو المعتقدات.

٢- أنساق الرموز التعبيرية مثل الفن.

٣- أنساق التوجيهات القيمية.

ويرى بارسونز أن الأنساق الاجتماعية تتصف بخاصتين أساسيتين هما:

أولاً: ميل مكونات النسق إلى الحفاظ على درجة عالية من التكامل على الرغم من الضغوط البيئية.

ثانيا: يميل إلى التوازن أى إلى استمرارية مكونات النسق فى أداء وظائفها.

كما يرى بارسونز أن النسق الاجتماعى عليه أن يواجه أربع مشكلات أساسية لكى يستمر فى البقاء:

١- مشكلة التكيف. Adaptation

٢- مشكلة تحقيق الهدف. Goal attainment

٣- مشكلة التكامل. Integration

٤- مشكلة خفض التوتر. Tension-Management

فأى نسق لابد أن يتكيف مع البيئة الفيزيقية ويهيئ الوسائل الاقتصادية الضرورية لحياة أعضائه، ولكى يحقق النسق أهدافه لابد له من صورة ما من التنظيم السياسى (أى تركيز القوة) ولابد من حماية النسق لنفسه من التحلل والتفكك وذلك عن طريق وضع مجموعة من القوانين والتنظيمات وإقامة

جهاز شرطي يعمل على تنفيذها (التكامل) كما لابد له من تدريب الأعضاء الجدد عن طريق الضبط الاجتماعي على المشاركة فى نشاطات المجموعة تبعاً للأساليب المحددة بها.

ويشير بارسونز إلى المجتمع الإنسانى ككل بوصفه نسقاً يتكون من مجموعة من الأنساق (المجتمعات) التى يشكل كل منها نسقاً مستقلاً نسبياً ولكنها جميعاً تشكل سوياً نسق المجتمع الإنسانى.

روبرت ميرتون

على الرغم من الاختلافات بين تالكوت بارسونز وروبرت ميرتون فى تفاصيل النظرية التى حاول كل منهما صياغتها وبالرغم من الانتقادات التى وجهها كل منهما للآخر ومن التعديلات التى اقترح ميرتون إدخالها على الوظيفية إلا أن كليهما يبدأ من نفس المسلمات النظرية والأيديولوجية التى يبدأ بها كل أصحاب الاتجاه الوظيفى وأصحاب الاتجاه العضوى من قبلهم. وأهم هذه المسلمات أن البناء الاجتماعى فى حالة ثبات وأن هناك تكاملا بين عناصر هذا البناء وأن هناك إجماعاً عاماً بين أعضاء المجتمع على قيم معينة وأن هناك توازناً يجب ألا يصيبه الخلل فى البناء الاجتماعى.

لقد بدأ ميرتون، الذى كان تلميذاً لتالكوت بارسونز، بنقد بارسونز على أساس أن أعماله تمثل جهداً غير ناضج لمحاولة تكوين نظرية اجتماعية عامة ولكنه لم يمس فى كتاباته المسلمات الرئيسية التى ارتكزت عليها أعمال بارسونز أو غيره من الوظيفيين، ذلك هو أنه ذاته سلم بها تماماً، وبدلاً من ذلك ركز جهده على نقد تفاصيل هذه الأعمال أو الفروض الجزئية التى تحتوى عليها.

ورأى ميرتون أن النظرية فى علم الاجتماع يجب أن تكون "متوسطة المدى" Middle range" وعرف النظرية متوسطة المدى بأنها تلك "التى تقع

بين طرفين: الطرف الأول يتمثل فى مجموعة الافتراضات العملية البسيطة التى نقابلها عند إجراء البحوث الميدانية والطرف الثانى يتمثل فى النظريات الشاملة الموحدة التى تسعى إلى تفسير كل ملاحظة عن انتظام فى السلوك الاجتماعى والتنظيم الاجتماعى(٨).

بعبارة أخرى نستطيع القول أن ميرتون يقترح مستوى للنظرية الاجتماعية أعلى قليلاً من مستوى الفروض التى تعتمد عليها البحوث الامبيريقية والتى لا تتضمن قدراً يذكر من التجريد، ولكنه أقل من مستوى النظريات الكبرى Grand Theories التى تتضمن قدراً كبيراً من التجريد، وبرت ميرتون دعوته إلى هذا المستوى المتوسط من التجريد بأنه يسمح بإخضاع ما يتضمنه من قضايا للاختبار الأمبيريقى نظراً لقرب هذا القضايا من الوقائع الملموسة.

وعلى ذلك فإن النظرية متوسطة المدى تتناول أساساً جوانب معينة من الظاهرات الاجتماعية، وليست الظاهرات فى عموميتها، فيمكن مثلاً أن تكون لدينا نظرية عن الجماعات المرجعية ونظرية عن الحراك الاجتماعى ونظرية عن صراع الأدوار ونظرية عن تكون القيم .. الخ.

وبعد أن تصبح لدينا هذه النظريات المتعددة ذات المدى المتوسط يمكننا فى المستقبل أن نصوغ منها نظرية عامة موحدة، ولكن الوقت لم يحن بعد لتكوين مثل هذه النظرية الموحدة.

وقد حدد ميرتون مجموعة من الوحدات التى يجب أن تمثل بؤرة لاهتمام التحليل فى النظرية الاجتماعية متوسطة المدى مثل : الأدوار الاجتماعية، العمليات الاجتماعية، الأنماط الثقافية، الانفعالات المحددة ثقافياً، المعايير الاجتماعية، تنظيم الجماعة، البناء الاجتماعى، وأساليب الضبط الاجتماعى ..الخ.

وبذلك جعل بؤرة اهتمام النظرية الاجتماعية ما أسماه "بالعناصر الثقافية المقننة Standardised Cultural items"[٩].

وقد استمد ميرتون مسلماته الأساسية عن الوظيفية من علماء الأنثروبولوجيا وبخاصة رادكليف براون ومالينوفسكى وكلايد كلاكهون. وصاغ نظرية الوظيفية فى أهم مؤلفاته : النظرية الاجتماعية والبناء الاجتماعى "Social Theory and Social Structure" الذى نشر عام ١٩٤٩.

وقد استخدم ميرتون كلمة وظيفة بمعنى "الإجراءات البيولوجية أو الاجتماعية التى تساعد على الإبقاء على النسق وعلى تكيفه أو توافقة وهذه الإجراءات قابلة للملاحظة[١٠] فمثلاً إذا نظرنا إلى الجسم بوصفه نسقاً بيولوجيا فإن ضخ الدم يكون إجراء بيولوجيا يقوم به القلب للمحافظة على بقاء الجسم وبذلك يكون وظيفة القلب، وإذا نظرنا للمجتمع على أنه نسق اجتماعى فإن المحافظة على النظام تكون إجراء اجتماعيا تساعد على بقاء المجتمع ويكون وظيفة للحكومة وهكذا[١١].

والوظيفة بهذا المعنى لها مؤشرات موضوعية قابلة للملاحظة، لا يجب الخلط بينها وبين الأهداف أو الأغراض أو الدوافع. فهدف الزواج أو الدافع إليه مثلاً يختلف عن وظيفة الزواج. والأسباب التى يقدمها الناس تفسيراً لسلوكهم تختلف عن نتائج هذا السلوك بالنسبة للنسق الاجتماعى - تلك النتائج التى يمكن ملاحظتها.

وقد انتقد ميرتون غيره من أصحاب الإتجاه الوظيفى، وخاصة رادكليف براون ومالينوفسكى على أساس أن الافتراضات التى ترتكز عليها نظرياتهم شديدة العمومية وغير محددة، فهؤلاء العلماء قد افترضوا أن الأنشطة الاجتماعية المقننة أو العناصر الثقافية وظيفية بالنسبة للمجتمع بأسره وأن جميع هذه العناصر الثقافية والاجتماعية تؤدى وظائف اجتماعية وأن هذه العناصر لا يمكن للمجتمع الاستغناء عنها.

ورأى ميرتون أن هذه الافتراضات غير صحيحة ولذلك فإنه أقام نظريته على ثلاثة فروض أساسية بديلة هى:

١- العناصر الاجتماعية أو الثقافية قد تكون وظيفية بالنسبة لمجموعات معينة وغير وظيفية Non functional بالنسبة لمجموعات غيرها وضارة وظيفيا dysfunctional بالنسبة لمجموعات أخرى. وعلى ذلك فلابد من تعديل فكرة أن أى عنصر اجتماعى أو ثقافى يكون وظيفيا بالنسبة للمجتمع بأسره.

٢- أن نفس العنصر قد تكون له وظائف متعددة ونفس الوظيفة يمكن تحقيقها بواسطة عناصر مختلفة، مثال الملابس التى يمكن أن تؤدى عدة وظائف مختلفة، فهى قد تساعد على الوقاية من الطقس أو تكسب الفرد مكانة اجتماعية معينة أو يكون لها دور فى تحديد مدى جاذبيته الشخصية. ومعنى ذلك أن هناك تنوعا فى الوسائل التى يمكن أن تحقق هدفا وظيفيا معينا. وقد استخدم ميرتون لذلك مفهوم البدائل الوظيفية Functional altenatives.

٣- يجب أن يحدد التحليل الوظيفي الوحدات الاجتماعية التى تخدمها العناصر الاجتماعية أو الثقافية. ذلك أن بعض العناصر قد تكون ذات وظائف متعددة، وقد تكون بعض نتائج ضارة وظيفيا.

ويرى دون مارتنديل أن ميرتون قد أضاف إلى التحليل الوظيفى إضافتين رئيسيتين هما :

أولا: أنه قدم مفهوم المعوقات الوظيفية أو الأضرار الوظيفية dysfunction والذى يعنى به تلك النتائج القابلة للملاحظة والتى تقلل من تكيف النسق أو توافقة(١٢)، وأن كان اميل دور كايم وراد كليف براون قد أشارا إلى ذلك بصورة أو بأخرى فى أعمالها(١٣).

ثانيا : أنه ميز بين نوعين من الوظيفية الظاهرة manifest function

والوظيفة الكامنة Latent function، ويقصد ميرتون بالوظيفة الظاهرة النتائج الموضوعية التى يمكن ملاحظتها والتى تسهم فى الحفاظ على النسق والتى يقصدها المشاركون فى النشاط، أما الوظيفة الكامنة فهى التى لم تكن مقصودة أو متوقعة[1]. مثال ذلك دور الدين فى تحقيق التكامل الاجتماعى هذا الدور مثلما قرر دور كايم لم يمكن مقصوداً، وعلى ذلك فإن التكامل الاجتماعى يعتبر فى هذا الحالة وظيفة كامنة للدين. وأما إذا استخدم الدين عن قصد بواسطة الطبقة الحاكمة لتخدير الطبقات المحكومة وإخضاعها للنظام، مثلما قرر ماركس، فإن هذه النتائج تكون وظيفة ظاهرة للدين[15]. وجدير بالذكر أن ميرتون لم يستحدث مفهومى الوظيفية الظاهرة والوظيفة الكامنة، ولكنه استعار هذين المفهومين من سيمجوند فرويد الذى استخدمها فى التمييز بين المحتوى الظاهرى (أى الشعورى) والمحتوى الكامن (أى اللاشعورى) للحلم، مما يدل على تركيز ميرتون على الجوانب النفسية.

ويرى مارتنديل أن أهم نماذج التحليل الوظيفى عند روبرت مرتون تتمثل فى دراسته عن البناء الاجتماعى واللامعيارى[16]، ففى هذه الدراسة[17] طبق مرتون نظريته الوظيفية فى تحليل المصادر الاجتماعية والثقافية للسلوك المنحرف. وكان هدف ميرتون من هذه الدراسة أن يبين كيف يمارس البناء الاجتماعى ضغوطاً محددة على أشخاص معينين فى المجتمع لممارسة سلوك غير امتثالى بدلاً من ممارستهم لسلوك امتثالى، وقد بدأ ميرتون بالتسليم بأن الأبنية الاجتماعية والثقافية تصوغ صفة المشروعية على أهداف معينة وعلاوة على ذلك تحدد أساليب معينة مقبولة لتحقيق هذه الأهداف. أى أن ميرتون قد ميز بين عنصرين رئيسيين فيما أسماه بالبناء الثقافى للمجتمع : الأهداف المحددة ثقافيا من جهة، والأساليب النظمية لتحقيق هذه الأهداف من جهة أخرى.

وفى المجتمع جيد التكامل تجد تكاملاً وتناغماً بين الأهداف والأساليب، فكل من الأهداف والأساليب نجد تقبلاً من أفراد المجتمع ككل كما

أنها تكون ميسورة لهم جميعا، ويحدث التكامل فى المجتمع عندما يكون هناك تأكيد على أحد الجانبين بدرجة لا تتناسب مع التأكيد على الجانب الآخر، وهذا ما يحدث فى المجتمع الأمريكى. فهناك فى هذا المجتمع تأكيد على أهداف معينة، مثل النجاح الفردى وجمع النقود وارتقاء السلم الاجتماعى دون تأكيد مماثل على الأساليب النظمية لتحقيق هذه الأهداف. فأساليب تحقيق هذه الأهداف غير متاحة للجميع فى المجتمع.

وقد نشأ عن ذلك حالة من اللامعيارية فى المجتمع. ذلك أنه لابد من أن تكون هناك درجة من التناسب بين هدف تحقيق النجاح وبين الفرص المشروعة للنجاح بحيث يحصل الأفراد على الأشباع الضرورى الذى يساعد على تحقيق النسق الاجتماعى لوظائفه، فإذا لم يتحقق ذلك فإن الوظيفة الاجتماعية تصاب بالخلل ويحدث ما أسماه بالمعوقات الوظيفية dysfunctions.

وقد قدم ميرتون تصنيفا لأنماط استجابات الأفراد أو تكيفهم لذلك التفاوت أو الانفصام بين الأهداف المرغوبة والمحددة ثقافيا (أى النجاح) وبين الأساليب المتاحة لتحقيق هذه الأهداف. وقرر أن هناك خمس أنماط لتكيف الأفراد فى المجتمع، أول هذه الأنماط وظيفى، أى يساعد على بقاء النسق الاجتماعى. والأربعة الآخرين ضارين وظيفيا (أو أنماط تكيف منحرفة) أى يهدون بقاء هذا النسق. وهذه الأنماط الخمسة هى:

أولاً: نمط الامتثال Conformity :

ويحدث هذا النمط من التكيف حين يتقبل الأفراد الأهداف الثقافية ويمتثلون لها وفى نفس الوقت يتقبلون الأساليب التى يحددها النظام الاجتماعى بوصفها أساليب مشروعة لتحقيق هذه الأهداف. مثال ذلك تقبل الأفراد لهدف تحقيق النجاح والحصول على دخل مرتفع وتقبلهم لاستكمال تعليمهم كأسلوب لتحقيق ذلك الهدف فإذا كانت فرصة التعليم متاحة لكل أو غالبية أفراد المجتمع

فإن حالة من الثبات أو التكامل سوف تسود المجتمع لأن غالبية الناس سوف تتقبل الأهداف وأساليب تحقيقها فى نفس الوقت أما إذا كان بالمجتمع تأكيد على الأهداف فقط دون إتاحة الأساليب اللازمة لتحقيقها لكل الناس فإن أحد الأنماط الأربعة الآتية من التكيف الانحرافى. يمكن أن يحدث.

ثانياً : نمط الابتداع Innovation :

يرى ميرتون أن هذا النمط من التكيف هو أهم أنماط التكيف الانحرافى فى المجتمع الأمريكى. ويعنى به أن نسبة كبيرة من الناس فى المجتمع تتقبل أهداف النجاح التى تؤكد عليها الثقافة الأمريكية ولكنها تجد فرص تحقيق هذه الأهداف موصدة أمامها لأن توزيع هذه الفرص غير متكافئ. وفى هذه الحالة يرفضون الأساليب المشروعة لتحقيق النجاح (مثل التعليم) ويبتدعون أساليب غير مشروعة لتحقيق هذا الهدف) ويسود هذا النوع من التكيف لدى الطبقة العاملة.

ثالثا : نمط الطقوسية Ritualism :

يتمثل هذا النمط من التكيف فى التخلى عن الأهداف الثقافية للنجاح الفردى وتحقيق الثروة وصعود السلم الاجتماعى أو التقليل من مستوى طموح الفرد حتى يصل إلى درجة منخفضة يمكن معها إشباع هذا الطموح، وفى نفس الوقت يظل الفرد ملتزماً بطريقة شبه قهرية بالأساليب المشروعة لتحقيق الأهداف على الرغم من أنها لا تحقق له شيئاً يذكر. ويسود هذا النوع من التكيف فدى الطبقة الوسطى الدنيا، مثل صغار الموظفين البيروقراطيين فى الشركات والمصالح الحكومية. ويفسر ميرتون وجود هذا النمط من التكيف بأنه يرجع إلى لأسلوب التنشئة الاجتماعية الصارم السائد فى هذه الطبقة وإلى الفرص المحددة للتقدم المتاحة لأعضاء هذه الطبقة.

رابعاً : الانسحابية Retreatism :

وهو من أقل الأنماط شيوعاً فى المجتمع الأمريكى. والفرد الذى يلجأ إلى هذا النمط الانسحابى يعيش فى المجتمع، ولكنه لا يكون جزءاً منه بمعنى أنه لا يشارك فى الاتفاق الجماعى على القيم المجتمعية. والانسجابى يتخلى عن كل من الأهداف والأساليب التى يحددها النسق ومن أمثلة هذا النمط من التكيف الانحرافى حالات الجنون والتشرد وإدمان الخمور وإدمان المخدرات. ويرى ميرتون أن هذا النوع من الأفراد لا يقبل الأساليب الإبداعية (أى غير المشروعة) لتحقيق الأهداف وفى نفس الوقت لا تتاح له الفرصة لاستخدام الأساليب المشروعة لتحقيقها ولا يكون أمامه من مفر سوى أن ينسحب من المجتمع إلى عالمه الخاص (الجنون أو السكر أو الأوهام). وهكذا يحل هذا الفرد الصراع النفسى عن طريق الهروب الكامل من المجتمع.

خامساً : نمط التمرد Rebelion :

يتسم هذا النمط من التكيف بادانة (وليس مجرد رفض كما هو الحال فى النمط السابق) كل من الأهداف الثقافية للنجاح والالتزام بالأساليب النظمية لتحقيقها. أى إذا كان النمط السابق يتسم برفض الأهداف والأساليب رفضاً سلبياً والهروب من المجتمع فإن هذا النمط يتسم بالرفض الإيجابى والسعى إلى استبدال البناء الاجتماعى القائم ببناء آخر يضم معايير ثقافية مختلفة للنجاح وفرصاً أخرى لتحقيقه.

جدول يوضح أنماط التكيف الخمسة

نمط التكيف	الأهداف الثقافية	الأساليب
١- الامتثال	+	+
٢- الابتداع.	+	+
٣- الطقوسية.	-	+
٤- الانساحبية.	-	-
٥- التمرد.	+	+

من العرض السابق لأهم إسهامات ميرتون يتضح لنا أنه يرتكز على نفس المسلمات الأساسية التى يرتكز عليها غيره من الوظيفيين وأن كان يختلف عنهم فى بعض الافتراضات الثانوية. فهو يسلم دون ما جدال بأن أساس البناء الاجتماعى هو القيم والمعايير السلوكية، سواء اتخذت شكل أهداف محددة ثقافياً أو اتخذت شكل أساليب نظمية لتحقيق الأهداف.

كما أنه استبعد التحليل التاريخى فى تحليله الاجتماعي، ودعا أيضاً إلى التحليل الجزئى للظاهرات الاجتماعية باستخدام النظريات متوسطة المدى بدلاً من التحليل الشمولى للمجتمع. كما أنه أغفل المتغيرات المادية فى تفسيره لمنشأ التفاوت بين درجة التأكيد على أهداف النجاح فى المجتمع الرأسمالى من جهة ودرجة التأكيد على أساليب تحقيق هذه الأهداف من جهة أخرى[١٨].

ويعلق إيان تايلور وزملاؤه[١٩] على إغفال ميرتون الاهتمام بنمط التكيف الامتثالى بقولهم أن ذلك لا يدعو إلى الدهشة. فبغض النظر عن حقيقة صعوبة تحديد أمثلة واقعية للأشخاص الممتثلين فى المجتمع الأمريكى، لأن أى شخص يمتثل لأهداف ذلك المجتمع لابد أن يكون بالضرورة أيضاً أبداعياً لأنه سيفتش دائماً عن أساليب جديدة لتحقيق النجاح، فإن البحث عن مصادر الامتثال كان سيوقع مرتون فى مشكلة عويصة - وهى مشكلة بحث مشروعية السلطة فى المجتمع الأمريكى.

كما أن ذلك كان من شأنه أيضاً أن يضطره إلى مواجهة حقيقة اجتماعية خطيرة تتمثل فى أن عدد الأشخاص الممتثلين فى المجتمع الأمريكى قليل جداً حتى بين أولئك الذين لا توصد أمامهم فرص تحقيق النجاح بحكم المراكز الاجتماعية التى يشغلونها ولكى يفسر مرتون ذلك كان سيضطر إلى الخوض فى مسائل أعمق من مجرد نقده السطحى لحالة اللامعيارية فى المجتمع الأمريكى، أى أنه كان سيضطر إلى الخوض فى المسائل السياسية والاقتصادية التى يرغب أساساً فى تجنبها.

إلا أن ميرتون كان إلى حد ما ناقداً للمجتمع الأمريكى ويختلف عن بارسونز وغيره من الوظيفيين فى أنه لم يتبنى بشكل مطلق فكرة وجود الاتفاق الجمعى فى المجتمع، وهو يقول فى ذلك :

"يميل الأشخاص الذين يشغلون مراكز مختلفة فى البناء الاجتماعى إلى أن تكون لهم مصالح وقيم متمايزة (مثلما يشتركون مع غيرهم فى بعض المصالح والقيم). ونتيجة لذلك، فإن المعايير الاجتماعية ليست كلها موزعة بالتساوى بين المراكز الاجتماعية المختلفة. ويتبع ذلك منطقياً كما يتأكد بالأدلة أنه كلما كانت هذه المعايير مختلفة لدى المجتمعات والمراكز الاجتماعية فى المجتمع كلما وجدنا أن كل مجموعة سوف تنظر إلى نفس الظروف غيرها من المجموعات. فما قد تعتبره مجموعة ما مشكلة قد تعتبره مجموعة أخرى ميزة[٢٠]".

لقد أدرك ميرتون وجود تناقضات فى النسق الاجتماعى الأمريكى، ولكن التناقضات التى أبرزها ليست ذات طابع مادى وهى جزء من طبيعة النسق حسب رأيه، فهناك عدم تكافؤ فى الفرص المتاحة للمجموعات المختلفة لتحقيق أهداف النجاح فى المجتمع الأمريكى، ولكن عدم التكافؤ هذا يرجع رأيه إلى العناصر الكامنة فى الثقافة الأمريكية!، وهكذا لا يقدم مرتون أى تفسير بنائى لوجود عدم التكافؤ فى الفرص فى المجتمع أو لوجود مثل هذا المناخ الثقافى والأخلاقى. وهكذا يشبه مرتون من يفسر الإنحلال الخلقى للناس فى فترة ما بتخليهم عن التمسك بالمبادئ الأخلاقية، أى أنه يفسر ما هو ثقافى بما هو ثقافى، وليس ذلك بتفسير بالطبع.

وقد استعان إيان تايلور بمثال أورده زميل له هو لورى تايلور[٢١] فى نقده لنظرية ميرتون حيث قال :

"يبدو تصوير ميرتون للنسق الاجتماعى وأنماط التكيف كما لو كان كل الأفراد فى المجتمع يلعبون القمار على آلة قمار ضخمة هائلة من التى

توضح فيها العملة فتدور ثم تقف لتقذف بالنقود للرابح، ولكن هذه الآلة بها نوع من التلاعب بحيث يربح بعض اللاعبين فقط دائما بينما يخسر الآخرون الذين يلجأون إما إلى استخدام عملات زائفة أو قطعاً معدنية ممغنطة لزيادة فرصهم فى الربح (المبدعون) أو إلى الاستمرار فى اللعب ولكن دون حماس (الطقوسيون) أو إلى الانسحاب تماما من اللعب (الانسحابيون) أو اقتراح لعبة أخرى جديدة تماماً (المتمردون). ولكن لا يبدو أن أحداً منهم قد توقف لحظة ليسأل من الذى وضع هذه الآلة هنا منذ البداية ومن الذى يحصل على الأرباح.

وتقتصر محاولات الناقدين على محاولة تغيير النتائج بحيث يحصلون على حظ أفضل قليلاً. وهكذا فإن ما يبدو للوهلة الأولى على أنه نقد جوهرى من جانب ميرتون للمجتمع ينتهى إلى التسليم بالمجتمع القائم على ما هو عليه. أن ضرورة النظر إلى التشكيلات البنائية الثقافية من خارجها ليس مهمة النمط المتمرد فحسب ولكنه أيضا مهمة عالم الاجتماع.

وبذلك يقتصر ميرتون على وصف المجتمع ونقد بعض جوانبه الثقافية دون أن يمس جوهر العلاقات الاجتماعية فيه، وبذلك يقف عند حدود الدعوة الإصلاحية الجزئية لنتائج اللعبة دون أن يصل إلى حد الدعوة إلى تغيير قواعد اللعبة ذاتها. أى إلى إحداث تغيير جذرى فى المجتمع.

ويستطرد تايلور وزملاؤه فى نقد ميرتون قائلين أن التناقض بين الأهداف الثقافية وبين عدم تكافؤ الفرص لتحقيق هذه الأهداف ليس فقط مشكلة ثقافية يمكن حلها عن طريق تحديد نسق ملائم ووظيفى من القيم، وهو لا يوجد فقط فى مجال الأفكار بل أن أساسه الحقيقي هو التوزيع غير المتكافئ للثروة والقوة فى المجتمع الرأسمالى. فالأفراد عند مولدهم لا ينطلقون فى السباق من أجل النجاح من نفس نقطة الانطلاق. إن هذا التناقض عند ميرتون تمتد جذوره إلى ذلك التناقض الذى ساد أعمال أصحاب النظريات الكلاسيكية النفعية : أى التناقض البنائى بين وجود الملكية وبين إمكانية تحقيق التكافؤ الليبرالى. إن

دعوة ميرتون إلى إصلاح الموقف عن طريق إتاحة فرصة متكافئة للجميع لتحقيق أهداف النجاح أو لتحقيق الحلم الأمريكي ليست إلا محاولة لإخفاء حقيقة اللامساواة، فلا يمكن أن يتحقق ذلك إلا مع إلغاء الملكية الوراثية. ولحسن الحظ أن نظرية ميرتون قد أخضعت للاختبار الامبريقى على يد اثنين من أتباعه المقربين هما ريتشارد كلاوارد وليود أوهلين فثبت فشلها تماماً. ففى إحدى المحاولات التجريبية لتطبيق هذه النظرية فى الواقع والتى أجريت ضمن برنامج هيئة أمريكية عرفت باسم "التحرك من أجل الشباب Mobilization for Youth والتى كانا يشرفان عليها أراد هذان العالمان تخفيف التناقض بين القيم الداعية للنجاح وبين السبل المتاحة لتحقيقه من أجل تقليل نسبة الانحراف بين الشباب الأمريكى فقاما بعمل توعية بين كبار رجال الأعمال وأصحاب المنشآت التجارية لاستخدام الشباب العاطل من الطبقات الفقيرة من الأقليات وللتبرع ببعض الأموال لإنشاء مدارس للتدريب المهنى لهم. واتضح لهم أن أصحاب الأعمال قد استجابوا لهذه الدعوة أولا ولكن سرعان ما تبين بعد ذلك أن هذا الشباب تنقصه المهارات الأساسية للعمل ولهذا فقد تم الاستغناء عنهم بعد استخدامهم. ومن الواضح أن هذه المحاولة كانت تهدف إلى إتاحة بعض الفرص أمام شباب الطبقات الفقيرة لكى يحققوا شيئاً من النجاح وبالتالى يصبحون من النمط الامتثالى، ولكن من الواضح أيضاً أن هذه المحاولة لا تزيد عن كونها تضليلاً حقيقياً للناس[٢٢]. فالفرص كما يقول تايلور وزملاؤه ترتبط ارتباطاً وثيقاً بكيفية توزيع الثروة بين مجموعات المجتمع.

نقد البنائية الوظيفية :

إن بارسونز هو أشهر ممثلى النظريات الوظيفية المعاصرين ولذلك فإننا سنركز على نظريته بوصفها ممثلة لهذا الاتجاه فى علم الاجتماع الغربى التقليدى.

أن أهم كتب أشهر ممثلى هذا الاتجاه هو مؤلفه "النسق الاجتماعى" والذى يقع فى ٥٥٥ صفحة، وقد يكون أهم نقد وجه إليه هو ذلك الذى وجهه

عالم الاجتماع الأمريكي رايت ميلز في كتابه "التصورات السوسولوجية" لقد قرر ميلز بعد قراءته لهذا الكتاب الذي يقدم فيه بارسونز نظريته أن ما يقوله بارسونز فيه صعب على الفهم حقاً بل قد يكون من المستحيل فهمه. وأن كل ما يفعله بارسونز في نظريته هذه ليس أكثر من مجرد التلاعب بالألفاظ وبالمفهومات طول الوقت لكي يبدو عميقاً في تحليله للقراء وأن ما يقدمه ليس إلا تأملات فكرية تفتقر إلى الأدلة الموضوعية، وقد قام ميلز بمحاولة استخلاص ما يريد بارسونز أن يقوله فعلاً من وسط كل المتاهات الفكرية التي يجر القارئ إليها وذلك بأن قام بترجمة الكتاب كله من اللغة الإنجليزية غير المفهومة والمعقدة إلى التي يستخدمها بارسونز إلى لغة إنجليزية بسيطة، وقد ترجمه في أربع فقرات فقط هي كل ما يهدف بارسونز إلى قوله من نظريته فاتضح أن بارسونز يقرر ما يلي :

"هناك نسق اجتماعي يقوم فيه الأفراد بأفعال تجاه بعضهم البعض وهذه الأفعال عادة ما تكون منظمة لأن الأفراد في النسق يشتركون سوياً في الاعتقاد في قيم معينة وفي أساليب مناسبة للسلوك. وبعض هذه القيم يمكن أن نسميها معايير. والذين يتبعون هذه المعايير يتصرفون بشكل متشابه في المواقف المتشابهة، وهذا ما يحقق الانتظام في المجتمع أو ما نسميه بالتوازن الاجتماعي Social equilibrium وهذا التوازن مهم جداً للمجتمع. ويتحقق التوازن وتتم المحافظة عليه عن طريق أسلوبين :

التطبيع Socialization والضبط الاجتماعي Social control والأسلوبان مكملان لبعضهما البعض، وهدفهما جعل الأشخاص في المجتمع ينصاعون للمعايير التي توجد بالنسق الاجتماعي، فإذا ما فشل التطبيع الاجتماعي في جعل الأشخاص يتبعون المعايير فإن الضبط الاجتماعي يجبرهم على ذلك"[٢٣].

ويتساءل ميلز عما قدمه بارسونز من "نظرية متضخمة" مليئة بالمفهومات المعقدة والألغاز أكثر من المعرفة العامة المتوفرة لدى الجميع

والتى تحتاج إلى التأكد من صحتها؟ أنه لم يقدم شيئاً علــى الإطلاق أكثر من صياغات لا لغوية تبدو علمية ولكن وراءها أهدافاً أيديولوجيــة واضحــة تماماً لمن يملك القدرة على التفكير النقدى، ويتلخص ذلك الهدف فى شغل أذهان المحللين الاجتماعيين بمسائل ثانويــة وصرف انتباههم عن فحص ودراسة المؤسسات والأنظمة الاقتصادية والسياسية.

لقد حول بارسونز كل أبنية المجتمع إلى مجالات رمزية وبهذه الكيفية يقدم بارسونز تبريراً أخلاقياً لاستمرارية ذوى السلطة فى المجتمع فى التحكم فيه ويضفى على حكمهم صفة المشروعية.

- إن تأكيد بارسونز على فكرة التوازن عن طريق الخضوع للمعايير السائدة والمشتركة بين الناس إنما هو تحذيـر من أى تمرد أو محاولـة لتغيير الأوضاع القائمة كما أن افتراضه أن هناك قيما ومعايير مشتركة بين جميع الأفراد لا يستند إلى أى أدلة أمبيريقية.

لقد حول بارسونز المجتمع بأسره إلى مجرد قيم ومعايير أو إلى رموز مجردة توجد مستقلة عن البشر وتفرض عليهم سلطانها وأغفل تماماً الأساس الاقتصادى والسياسى للمجتمع وعبر بوضوح عن انحيازه الأيديولوجى للطبقة الحاكمة. والإنسان عنده غير قادر على تغيير هذه الأنساق القيمية ولكـن عليه أن يخضع لها ويتكيف معها فإن هو حاول ذلك فإن المجتمع سيصاب بحالة من اللاتوازن. والواقع الاجتماعى عنده يتسم بالسكون أو الثبـات بـالضرورة والمجتمع لابد أن يخلو من الصراع ويسعى للتكامل، ووحدة التحليل عنده هى الفعل ومـا يتضمنـه من معان سيكلوجية. والمتغيرات التفسيرية عنده كلها متغيرات سيكولوجية وليست اقتصادية أو سياسية أو تاريخية ومستوى التنظير عنده بالغ العمومية والتجريد ولا يتكامل مع الأدلة الامبيريقية (أى يعانى من انفصام بين الجانب الحسى والجانب العقلى من المعرفة العلمية).

وينتقد بوبوف عالم الاجتماع السوفيتى النظريات الوظيفية على أساس أنها تصور المجتمع على أنه نظام أبدى لا يعرف التطور والانتقال إلى وضع جديد. كما أنه يفسر الحياة الاجتماعية بمتاهات من الجدل المدرسى الكلامى والتصورات القيمية البعيدة والمنفصلة عن الحياة الواقعية[٢٤].

كما ينتقد بارسونز على أساس أنه يقرر أن بواعث وأهداف الأفعال الاجتماعية لا تحددها الأسباب المادية، بل تحددها سيكولوجية الأفراد بوصفهم ممثلين يقومون بأدوار محددة لهم من قبل تحددها القيم التى يعتبرها مطلقة وأبدية لأن مصدرها هو مجال غير حسى أو تجريبى أى أنه "الله" وهنا يتفق بارسونز مع كل من يبررون للسلطة حكمها فى كل زمان بإدعاء أنها ممثلة لإرادة الله.

ويرى بوبوف أن الوظيفية مثل غيرها من النظريات الاجتماعية الغربية التقليدية تدور فى حلقة مفرغة لا تستطيع الخروج منها وهى: أن وعى الإنسان (أى سيكولجيته) تحدد وجوده. وأخيرا يقرر أن النظريات الوظيفية رجعية تدافع عن النظام الرأسمالى وعن معاييره وقيمه وأهمها الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج.

ويستشهد بوبوف بقول عالم الاجتماع الأمريكى زيمرمان الأستاذ بجامعة هارفارد عن فراغ الوظيفية من المضمون حيث يقول فى كتابه الأيديولوجيات السياسية المعاصرة:

" لم تخلق مدرسة التحليل البنائي الوظيفى أكثر من أطر (مجمع إطار) يمكن فيها وصف النظام الاجتماعى، ولا أكثر من الوصف وما أشبهها بأن نقول الكرسى مصنوع من الخشب وأن له أربع قوائم ووظيفته أن تجلس عليه، وأن هذا الكرسى لا يؤدى وظيفته إذا كان الجلوس عليه مستحيلاً. وعلى هذا النحو يبدو النظام الاجتماعى فارغ المعنى .. إن هذه النظرية لا تضع فى اعتبارها التغير الاجتماعى، ولا يمكن أن تكون دليلاً فى الحلول والقرارات التى يجب علينا اتخاذها".

- وقد اشترك عدد من علماء الاجتماع فى نقد بارسونز على أساس أن نظريته الاجتماعية ليست سوى صياغة نظرية فى ثوب علمى لتحيزاته الايديولوجية (مثل جولدنر[٢٥] ولوكوود[٢٦] وكوزر[٢٧] وداهرندورف[٢٨]. فهو يدعو إلى انصياع الناس للمعابد القائمة وتجاهل الصراع الاجتماعى ويهمل دور المصالح المادية فى التفاعلات الاجتماعية ويهتم بالتكامل والإجماع القيمى ويتجنب الإشارة إلى التغير الجذرى بالمجتمع.

هوامش الفصل التاسع :

١- Don Martindale: Nature and Types of Sociological Theory, op.cit., p.448-454.

٢- Don Martindale, op.cit., p.448.

٣- Robert Hagedorn and Sanford labovitz: An Introduction into Sociological Orientations. (John Wiley and sons Inc. New York, 1973).

٤- John Rex: Key Problems of Sociological Theory. (Routledge and Kegan Paul, London, 1978), pp.60-70.

٥- Talcott Parsons: The Social System, (Glencoe, III Free, Press, 1951).

٦- Calvin J. Larson: Major Thems in Sociological Theory (David Mckay Company, New York, 1973), pp.127-153.

٧- Don Martindale: op.cit., p.

٨- Robert Merton, Social Theory and Social Structure, (New York: Free Press, 1949), p.39.

٩- Calvin Larson, Kajor Themes in Sociological Theory (New York: David Mckay Company, 1967), p.137.

١٠- لم يحدد ميرتون بوضوح ما الذى يعنيه بتكيف أو توافق، ولكن يبدو أنه يعنى تكيف النسق لمجموعة من الاحتياجات التى يتطلبها بقاؤه، إلا أن هذه الاحتياجات لا يمكن بالطبع تحديدها موضوعياً، انظر فى ذلك:

John Rex, Key Problems of Sociological Theory London: Routledge of Kegen Paul, 1967), p.73-76.

١١- مثال ذلك عنصر ثقافى مثل الاعتقاد فى السحر كوسيلة للشفاء من الأمراض، هذا العنصر يكون معوقا وظيفيا لأداء المؤسسات الطبية لوظائفها.

١٢- استخدم دوركايم اللامعيارية anomie بدلا من المعوقات الوظيفية، واستخدم براون مفهوم المرض الاجتماعى dysnomia.

١٣- Don Matindale: The Nature and Types of Sociological Theory (London: Routledge and Kegan Paul, 1967), pp.373-474.

١٤- Theodore Abel: The Foundation of Sociological Theory (New York: Random House, 1970), p.171.

١٥- Don Martindal: op.cit., p.475.

١٦- Robert Merton: op.cit., pp.125-149.

١٧- سمير نعيم أحمد، الدراسة العلمية للسلوك الإجرامى (القاهرة، مكتبة سعيد رأفت، ١٩٦٩)، ص ٢٢٤-٢٢٨.

١٨- Jan Taylor, Paul Walton and Jock Yound, The New Criminology, for a social theory of deviance (London: Routledge, 1973), pp.32-110.

١٩- Robert Merton, op,cit., p.785.

٢٠- Laurie Taylor: Deviance and Society (London: Michel Joseph 1971), p.148.

٢١- من: سمير نعيم أحمد، الدراسة العلمية للسلوك الإجرامى (القاهرة: مطبعة التأليف، ١٩٦٩)، ص١٢٧-٢٢٨.

٢٢- C. W. Mills:. The Sociological Imaginations (Oxford University Press, London, 1969), pp.23-33.

٢٣- بوبوف: نقد علم الاجتماع البورجوازى، ترجمة: نزار عيون السود، دار دمشق، ١٩٧٣

٢٤- Alvin gouldner: The Coming Crisis of Western Socilogy (Heiman, London, 1973).

٢٥- Lochwood, D. Some Remerks on the Social System Brithish Journal of Sociology. 1956, col.7 pp.134-136.

٢٦- Coser, L. a. The Function of Social Conflict (Fee Press, New York, 1956).

٢٧- Dahrendorf, R. Out of Utopia: Towrads in reorientation of Sociological Analysis American Journal of Sociology, 1958, Vol.6, pp.115-127

(٢) مركانة

أ- التركيز على جوانب الخبرة الشعورية وليس على التغيرات الظاهرية مثل السلوك الحياتي الكامنة

ب- يجب دراسة اقدام الطاعة - المحاكاة - التغير - التعاطف

ج- المجتمع والافراد اصل مرتبط بالكشف عن جوهر المجتمع بالسلوك

المحور الرئيسي للظاهراتية

قصدية الوعي

اهتم بالواقع مرتبط بالشعور والوعي

يميل علم الاجتماع الظاهراتي الى اهمال دراسة انماط البناء في المجتمع ويدرس سلوكيات الناس على ما ظاهرة

(١) شيلر

أ- معارضا للفكر البرجوازي ولكنه ليس كحل اعتبر ورفع بديل مجتمع تحكمه الصفوة ليبرو كل مجتمع طبقة

ب- المتحمسين للقيم المثالية والمقاومة للمادية

ج- سيتم الاصلاح للطبقات الاجتماعية العامة

د- البلاد سوف للنزاع الطبقية

مسيرة الاصلاح

مسيرة الرأسمالية

(٢)

الفصل العاشر

الاتجاه الظاهراتى (الفينومينولوجى)

ازدهرت المدرسة الظاهراتية الأصلية في علم الاجتماع في ألمانيا والمناطق المجاورة لها والناطقة بالألمانية في أوربا فيما بين الحربين العالميتين، وقد استمدت هذه المدرسة أفكارها من فلسفة ادموند هوسرل E. Husserl (١٨٥٩ - ١٩٣٨) ومارتن هايدجر M. Heidegger وشوتز Schutz، ومارلوبونتى[1].

والمفهوم الرئيسى فى الفلسفة الظاهراتية هو مفهوم "قصدية الوعى"، أى كونه موجها نحو الموضوع، والتى تعنى تأكيد المبدأ المثالى الذاتى "ليس هناك موضوع بدون ذات". ويعتمد المنهج الظاهراتى على مسلمتين أساسيتين:

١- الامتناع عن إصدار أية أحكام فيها يتعلق بالواقع الموضوعى وعن تجاوز حدود التجربة الذاتية.

٢- اعتبار موضوع المعرفة نفسه الوعى الخالص وليس الوجود الحقيقى[2].

معنى ذلك أن أصحاب الفلسفة الظاهراتية يرون أن معرفتنا بالعالم الفيزيقى إنما تأتى عن طريق خبرتنا الذاتية به، وهذه الخبرة هى التى تمكننا من إدراك جوهر الأشياء. والفلاسفة الظاهراتيون يبدءون بتجاهل مسألة الواقع الموضوعى، أو وضعه بين قوسين على حد تعبيرهم Brachcting حتى يمكنهم توجيه اهتمامهم للواقع كما يوجد فى الوعى أو الشعور Consciousness. وعلى هذا فإن الظاهرة موضوع الدراسة تكون هى تلك التى تعبر عن نفسها بطريقة مباشرة فى الوعى أو الشعور، ويرتكز الظاهراتيون على تمييز الفيلسوف "كانت" بين مفهومى الظاهرة Phenomenon والشئ فى ذاته Noumenon . فالظاهرة كما عرفها "كانت"

هى الشئ أو الحدث كما يبدو لنا من خبرتنا، أما الشئ فى ذاته فهو الذى يوجد مستقلاً عن قدراتنا المعرفية. والشئ فى ذاته ليس معروفاً لنا ولكن الظاهرة هى الشئ الذى يمكننا معرفته.

إن الوعى أو الشعور هو وسيلتنا لفهم العالم، فأى فهم لشئ موضوعى لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال وعينا بذلك الشىء، ولا وجود للواقع مستقلاً عن وعيا أو شعورنا. وجوهر الأشياء هو ما يفهمه العقل الإنسانى من خلال الوعى عن طريق خبرته بالعالم. والموضوعية تتحقق عن طريق الذاتية أى عن طريق وعينا.

ونلاحظ أن الفكر الظاهراتى يركز على دراسة العملية التى نفهم بها العالم وليس على تفسير هذا العالم، فتفسير العالم بوصفه شكلاً من أشكال الفكر يصبح فى حد ذاته موضوعاً للدراسة.

هذه باختصار هى الأفكار الأساسية التى ارتكز عليها أصحاب المدرسة الظاهراتية فى علم الاجتماع وحاولوا بناء نظرية اجتماعية على هديها. ومن أشهر أصحاب الاتجاه الظاهرتى فى علم الاجتماع ماكس شيلر Scheler (١٨٧٤ - ١٩٢٨)[٣]، والفريد شوتز[٤] Shutz وجوفمان Goffman[٥]، وجارفنيكل Garfinkael[٦]، وممن تأثروا أيضاً بالاتجاه الظاهراتى فى علم الاجتماع بيتربرجر Berger[٧] وجاك دوجلاس Douglas[٨]، وارون سيسوريل Cicourel وجورج جيرفتش وسوف نعرض لأهم أعمال البارزين من هؤلاء العلماء بعد عرضنا لأهم الملامح الرئيسية لذلك الاتجاه فى علم الاجتماع.

الملامح الرئيسية للاتجاه الظاهراتى

تعرض علم الاجتماع بصفة عامة والنظرية الاجتماعية بصفة خاصة وما يتضمناه من قضايا منهجية ونظرية للكثير من الشك والنقد من جانب الشباب من دارسى علم الاجتماع الذين لم يقتنعوا بما درسوه عن الوضعية

والامبيريقية والوظيفية وخاصة مع التغيرات العميقة التى حدثت فى المجتمعات الغربية بعد الحرب العالمية الثانية والأزمات التى مر بها العالم الرأسمالى. فقد اكتشف الكثير من الشباب وخاصة من أبناء الطبقة الوسطى خرافة الليبرالية بما تتضمنه من أوهام إتاحة الفرصة للجميع لتحقيق النجاح فى المجتمع وزيف الأيديولوجية النفعية Utilitanism وفى ذلك يقول ألفن جولدنر فى كتابه "الأزمة المقبلة لعلم الاجتماع الغربى":

"منذ نهاية الحرب العالمية الثانية شهدنا بدايات مقاومة عالية جديدة ضد ذلك النوع من المجتمعات الذى ينتظم حول قيم نفعية، وهى مقاومة ضد القيم الصناعية بوجه عام وليست مجرد القيم الرأسمالية. وتلك موجة جديدة من موجات المقاومة القائمة للثقافة النفعية التى بدأت فور ظهور هذه القيم فى القرن الثامن عشر والتى تبلورت آنذاك فى الحركة الرومانسية فى القرن التاسع عشر[٩]".

وقد اتخذت هذه المقاومة لقيم المجتمع الرأسمالى الصناعى أشكالا متعددة فعلى المستوى السلوكى لجأ الكثير من الشباب إلى رفض هذه القيم وما يرتبط بها من تصرفات وانسحبوا من المجتمع سلبيا دون أن يحاولوا إحداث تغيير جذرى فيه واستبدلوا هذه القيم بقيم أخرى تتمركز فى معظمها حول الغوص فى الذات والتعبير عنها بحرية، وكان تجسيد ذلك فيما سمعنا عنه من حركات الهيبز وجماعات العقاقير المخدرة ..الخ. أما على المستوى الفكرى فقد لجأ الشباب المثقف وبخاصة من المتخصصين فى العلوم الاجتماعية إلى رفض الاهتمام بدراسة أو فهم الواقع الموضوعى وارتدوا مثل جماعات الهيبز إلى الاهتمام بالذات من الداخل أملين أن يكشفوا معنى الحياة من خلال ذلك بعد أن فشلوا فى فهمها مستخدمين الأطر النظرية فى العلوم الاجتماعية. وكانت الفلسفة الظاهراتية خير معين لهم على ذلك.

وفى مقابل ذلك لجأ فريق آخر من الشباب إلى المقاومة الإيجابية لقيم

المجتمع الرأسمالى ونظمه من جهة ولأيديولوجيته النفعية من جهة أخرى. فعلى المستوى السلوكى تكونت جماعات سياسية راديكالية تدعو إلى إحداث تغيير جذرى في المجتمع مثل جماعة "الطلبة من أجل مجتمع ديمقراطى" فى الولايات المتحدة الأمريكية وعلى المستوى الفكرى لجأ المثقفون خاصة من بين دارسى علم الاجتماع إلى النقد الجذرى للأيديولوجية النفعية وما يرتبط بها من نظريات اجتماعية ووجدوا فى الماركسية خير معين لهم. وعلى ذلك فإن الاتجاه الفينومينولوجى يمكن النظر إليه باعتباره رد فعل محافظ لفشل الوضعية والوظيفية فى مقابل الاتجاهات الراديكالية التى تعبر عن رد فعل ثورى لفشل نفس هذه الاتجاهات. ويشبه هذا الموقف المعاصر ذلك الموقف القديم الذى نشأ كرد فعل لفشل الفلسفات الميتافيزقية إبان عصر التنوير. فقد انقسم الفكر آنذاك أيضا كما رأينا إلى فكر محافظ وفكر ثورى. وقد اقتضى ذلك الموقف الجديد القائم على نقد الاتجاهات الفكرية المعاصرة مثل الوضعية والوظيفية العودة بالطبع إلى الاهتمام بأعمال الآباء المؤسسين لعلم اجتماع. فبالإضافة إلى اعتماد علماء الاجتماع الظاهراتى على أعمال الفلاسفة الظاهراتيين أمثال هوسرل اعتمدوا أيضاً على أعمال علماء الاجتماع الكلاسيكيين وبخاصة ماكس فيبر واميل دور كايم كما سنرى فيما بعد.

بدأ علماء الأجتماع الظاهراتيون بنقد الافتراضات التى يرتكز عليها الاتجاه الوضعى فىعلم الاجتماع وكذلك الاتجاه الوظيفى. وكان أهم تلك الافتراضات التى نقدوها ذلك الافتراض المتعلق بوحدة المنهج العلمى وبتشابه الظاهرات الطبيعية والاجتماعية وتقبل الوضعية لواقع حياة الخبرة اليومية على أنه حقيقة قائمة. وبدلا من ذلك اهتم أصحاب الاتجاه الظاهراتى فى علم الاجتماع بفحص الافتراضات الشائعة التى ترتكز عليها الأعمال العلمية وابتداع منهج مناسب لدراسة العالم الاجتماعى الذى يتمثل فى الوعى القصدى لدى الأفراد وما يتضمنه ذلك الوعى من معان، ودعوا إلى ضرورة عدم اهتمام عالم الاجتماع بمجرد إعادة تفسير الخبرة اليومية وتجاوز ذلك إلى

محاولة فهم العملية الذاتية التبادلية لتكوين المعنى لدى الأفراد. ويعنى ذلك أن المعنى الذى يضفيه الأفراد على العالم الاجتماعى ووعيهم بذلك العالم يجب أن يكون هو المادة الأساسية التى يهتم علماء الاجتماع بدراستها، فالعالم الاجتماعى فى رأى الظاهراتية الاجتماعية هو نتاج لتفسيرات ومقاصد الإنسان أى أنه عالم ذاتى. وبذلك فإن دراسة ذلك العالم يمكن أن تتم عن طريق أساليب مثل المحادثات وتحليل اللغة، وتصبح وظيفة علم الاجتماع هى وصف تلك العمليات التى يتم بواسطتها تشييد العالم الاجتماعى من خلال الإجراءات التفسيرية.

ويميل علم الاجتماع الظاهراتى إلى إهمال دراسة تصرفات وأفعال الناس فى المجتمع ويركز بدلاً من ذلك على دراسة روايات الناس عما يفعلون ومحادثتهم وما يقولونه عما فعلوه وما يفعلونه. وبناء على ذلك فإن علماء الاجتماع الظاهراتيون لا يناقشون إطلاقا مفهومات مثل القوة أو السلطة أو التدرج أو البناء الاجتماعى ولكنهم يتحدثون بدلاً من ذلك عن الإحساس بالقوة أو السلطة ..الخ. ولا يهتم هؤلاء العلماء بدراسة مصادر هذه الاحساسات أو المعانى لدى الأفراد أو كيفية التحكم فيها أو تغييرها.

إحساس بالقوة

يركز الاتجاه الفنيومينولوجى إذن على دراسة العقل بوصفة عملية واعية إيجابية ويرى أن دراسة النشاط يجب أن تتم عن طريق دراسة القصد عند الفرد. أى أن الاتجاه الظاهراتى يحول بؤرة اهتمام النظرية الاجتماعية من البحث عن الأسباب أو المحتمات إلى البحث عن النوايا أو المقاصد أو المعانى التى توجد فى عقول الأفراد وسوف نعرض فيما يلى لأصحاب الاتجاه الظاهراتى فى علم الاجتماع مثل ماكس شيلر، فير كانت، جارفينكل. ثم نعرض بعد ذلك لأهم الانتقادات التى وجهت لعلم الاجتماع الظاهراتى بصفة عامة ونطبق عليه أسس تقييم النظرية الاجتماعية.

ماكس شيلر (١٨٧٤ - ١٩٢٨) :

كان ماكس شيلر من أشد المعجبين بالطبقة الارستقراطية التى اعتبر أعضاءها هم القادة الطبيعيون للمجتمع. وكان يزدرى الطبقة الوسطى ويعتبرها فريسة ما تعانية من حقد وبخاصة القطاع الأدنى فيها، وكان يمجد الصفوة والإقطاعيين والعسكريين وروح الفروسية ويزدرى الفردية والنفعية والعقل المطلق. وكان شيلر يهتم بصفة خاصة بالبحث عن منطلق اجتماعى تمارس الصفوة من خلاله زعامتها. وكان يهدف من الناحية السياسية إلى توحيد ألمانيا ضد عقلانية فرنسا ونفعية إنجلترا ولذلك فإنه كان شديد الحماس لإعداد ألمانيا عسكريا لتحقيق ذلك الهدف عن طريق الحرب.

وكان شيلر يهدف أيضا إلى تحطيم العلم بوصفة معيارا لكل المعرفة الحقيقي. ورأى، على عكس كونت أن العالم لم يحل أبدا محل الفيلسوف والقديس وعارض شلر الآراء الماركسية ورأى أن علاقات الإنتاج ليست هى المسئولة عن تحقيق الأفكار ولكن مصالح الصفوة هى التى تفعل ذلك(١٠).

ويمكن القول أن شيلر قد أوقف حياته على مهاجمة الوضعية ورفض تقديس العلم الذى اعتبره الخاصية المميزة للمجتمع الغربى واعتبره مسئولا عن صراعات الحياة الحديثة وما يوجد بها من أمراض اجتماعية(١١).

وقد رأى ماكس شيلر أن وظيفة علم الاجتماع الأساسية يجب أن تكون حل الصراعات الأيديولوجية السائدة فى ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى وذلك عن طريق مساعدة رجال السياسة على ادراك أوجه القصور فى وجهات نظرهم وآرائهم.

لقد كان شيلر يتخذ موقف المعارضة فى البرجوازية ومن الرأسمالية ولكنه على عكس الماركسيين كان يرى البديل لها فى مجتمع تحكمه الصفوة يعرف كل فرد مكانه ويوضع فيه حق الحكم بين أيدى الأصلح لذلك وراثيا

اجتماعيا وعقليا أى الأرستقراطية، أى العودة بالمجتمع إلى الصورة الإقطاعية[١٢].

وقد اعتمد فكر ماكس شيلر بصفة أساسية على التمييز الظاهراتى بين مجالى القيم المثالية أو (الجوهر) والوقائع الوجودية. فالوجود الفعلى يتمثل فى العلاقات بين الوقائع، تلك العلاقات التى تتغير بتغير الزمن، أما القيم فهى تمثل مجالا آخر هو المعانى المستلهمة والصادقة دائما دون اعتبار الزمان وهذا التمييز الميتافيزيقى بين الوجود الفعلى والقيم المثالية هو أساس التمييز بين علم الاجتماع الثقافى من جهة وعلم اجتماع العوامل الواقعية من جهة أخرى. فالمادة الثقافية مثالية وتوجد فى مجال الأفكار والقيم، أما العوامل الواقعية فهى جزء من الأحداث المتغيرة فى نطاق الزمان. والمادة الثقافية يمكن تعريفها من خلال الأهداف المثالية أو النوايا، أما المادة الواقعية فإنها تشكل بناء من النوازع مثل الجنس والجوع واشتهاء السلطة. ومن الخطأ كمايرى شيلر افتراض أن العوامل الواقعية مثل العنصر أو القوة السياسية أو الإنتاج الاقتصادى تحدد بشكل مطلق المعانى. ومن الخطأ أيضا افتراض أن الأحداث الخارجية للخبرة تتمثل فى تكشف الأفكار الروحية والشخصية. فالأفكار لا تصبح شيئا ملموسا له وجود واقعى ما لم تترابط سويا بشكل ما فى صورة ميول جمعية ويتم تضمينها فى أبنية نظمية.

وهدف علم الاجتماع الثقافى هو تفهم ما هو مثالى، وهو يدرس الدين والفلسفة والفكر العلمى والفن، أما علم الاجتماع الأمبيريقى فهو يدرس الدوافع أو القوى التى تحدث تغيرات فى الواقع. وهناك صلة انتقائية بين الأساس الحقيقى للمجتمع وبين ما هو مثالى. فالعوامل الواقعية أو الحقيقية قد تشجع أو لا تشجع على استكشاف القيم المثالية. وعلى هذا فإن المهمة الأساسية يجب أن تكون اكتشاف الأساليب التى تتفاعل بها العوامل الحقيقية والعوامل المثالية. وهناك مراحل متتابعة لتكامل هذين المجالين (الواقعى والمثالى) ابتداء من

سيادة روابط الدم والقرابة إلى التأثر بالبناء السياسى حتى التأثر بالحقائق الاقتصادية. وقد قدم شيلر هذه المراحل الثلاث كبديل عن مراحل كونت: اللاهوتية والميتافيزيقية والوضعية.

ورأى شيلر أن العقل يؤثر على الأحداث عن طريق توجيه النوازع الفطرية. وهذا التفاعل بين الأحداث الحيوية والمعيارية يتم من خلال وسيط معين يتمثل فى الصفوة وهى عبارة عن عدد قليل من الأشخاص يوجهون عملية امتزاج الأحداث المثالية بالأحداث والواقعية، فهم الذين يدركون الجوهر الظاهراتى.وتنتشر آراء الصفوة النفاذة عن طريق المحاكاة بين الجماهير، وعلى ذلك فإن التاريخ ليس سوى نتاج لنسق حوافز قادة المجتمع وما يرتبط به من زوح جماعية .

ويختلف علم الاجتماع الثقافى عن علم الاجتماع الواقعى أو الأمبيريقى فى أنه يتناول العوامل المثالية (المستمدة من الأهداف والمطامع) بدلا من تناول العوامل الواقعية (التى تعتمد على الدوافع). فالعوامل المثالية لها تأثير على التطور الثقافى طالما ترتكز على المصالح وتتجسد فى أشكال نظمية.

وهناك صور عديدة من المعرفة أكثرها أهمية البديهات الثقافية للمجموعة والتى تشكل المناخ الذى يتكون فيه الرأى العام. وأهم مهام علم اجتماع المعرفة هى الكشف عن هذه الافتراضات الثقافية الأساسية والصور المتغيرة التى تتخذها. وبعد تحقق هذا الهدف يكون من واجب علم اجتماع المعرفة تحليل الصور الأخرى من المعرفة الأكثر سطحية والتى تعتمد على هذه الافتراضات الأساسية. مثل المعلومات التكنولوجية والمعرفة العلمية والرياضية والفلسفية والدينية والحكم الشعبية. وكلما كانت المعرفة أكثر فنية وعقلانية كلما كان معدل تغييرها أسرع. ولكل نوع من المعرفة معدل تغييره الخاص به.

ويرى شيلر أنه على الرغم من أن الطبيعة الاجتماعية لصور المعرفة

الفكر والبصيرة والإدراك) شئ لا محل للشك فيه فإن مضمون هذه
رفة وصدقها الموضوعى لا يحددهما البناء الاجتماعى. وترتبط الأنماط
تلفة للمعرفة بأشكال معينة من المجموعات، فكل نمط من البناء
ماعى له صور من المعرفة تتناسب معه. فالمجتمع المحلى
Gemeinsch له رصيد محدد من المعرفة. ويتصف هذا النمط من المعرفة
م الاهتمام بالاكتشافات الجديدة أو زيادة المعرفة، بل أن مجرد محاولة
ع المعرفة التقليدية موضع الاختبار يكون شيئا مكروها، والنمط السائد من
ر فى هذا المجتمع التقليدى هو نمط التقبل وليس النقد وهو نمط جامد
عى.

وهناك صلة انتقائية بين الأفكار والصور النظمية. فظهور الحضارة
ناعية الحديثة فى المجتمع Gesellschaft مثلا كان يرتبط بالروح الفردية
لى عكس الروح الجماعية التى كانت ترتبط بنمط الجماعة المحلية وبمبدأ
تافس بدلا من التعاون وبالمعرفة العلمية والفنية بدلا من الحكمة التقليدية
تجاه نحو العلم بدلا من اللاهوت والفلسفة.

وقد رأى شيلر أن العقل يؤثر على الأحداث فى المجتمع لأنه هو الذى
جه ويرشد ويحرك الدوافع الغريزية. ولكن ذلك يتم من خلال وسيط يتمثل
الصفوة أى ذلك العدد القليل من الأشخاص الذى لديه القدرة على المزج
ين الأحداث المثالية والواقعية. فالصفوة هى التى تستطيع أن تكشف الجوهر
لظاهراتى للأشياء بما لديها من بصيرة نافذة. وهذه البصيرة تنتشر بين
لجماهير عن طريق المحاكاة، وعلى ذلك فإن التاريخ ليس سوى نتاج لدوافع
دة المجتمع وأخلاقياتهم وجوهر الثقافة يصبح شيئا شعوريا لدى الصفوة(١٣).

ويقرر كارل مانهايم أن ماكس شيلر قد حاول أن يفسر أحداث العالم
المعاصرة على أساس مسلمات تنتمى إلى مرحلة سابقة من الفكر الإنسانى،
وبخاصة التفكير الميتافيزيقى، ويرى تشابها كبيرا بين مسلمات شيلر وبين

الفكر الديني الكاثوليكي وخاصة ما يتضمنه هذا الفكر من مقولات عن اللانهائية والأبدية وتمييزه بين ما هو واقعي وبين ما هو جوهري، وما هو زائل وما هو أبدي[١٤].

ألفرد فركانت[١٥] :

رأى فركانت Vierkandt (١٨٦٧ - ١٩٥٣) أن علم الاجتماع يجب أن يقتصر على دراسة الخصائص النوعية للمجموعات وعلى تقديم نظرية عن التفاعل الاجتماعي ونتائجه على أساس أن يكون التركيز على العوامل الذاتية والداخلية وليس على المظاهر الخارجية للتفاعل. فعلم الاجتماع يختلف عن العلوم الطبيعية لأن الإنسان يتميز بخصائص عقلية تنجم عن معيشة أفراده سوياً. وهذه الحالات العقلية هي التي يجب أن يدرسها العلم الاجتماعي. ولذلك فإن المنهج الفينومنيولوجي هو المنهج الوحيد الصالح لعلم الاجتماع.

والمنهج الظاهراتي يتلخص في فحص عملية الوعي awareness ويتطلب ذلك تركيز الاهتمام على جوانب الخبرة الشعورية وليس على التعبيرات الظاهرية (مثل السلوك)، أي على المعاني الكامنة للأشياء، ويحاول المنهج الظاهراتي بذلك ومن خلال تحليل الخبرة أن يكشف عن استعدادات اجتماعية أساسية معينة يفترض أنها المسئولة عن الحياة المشتركة، وهذه الاستعدادات الأساسية أو الجوهر essence يمكن اكتشافها فقط عن طريق التمييز بين الحالات العقلية. فهناك عمليات عقلية قد تبدو متشابهة ولكنها في الواقع مختلفة تماماً، فالخجل مثلاً يختلف عن الخوف من النتائج غير المرغوبة. وإذا ما درسنا المظاهر الخارجية فقط فإن مثل هذا الاختلاف لن يمكن اكتشافه، ومهمة علم الاجتماع الظاهراتي اكتشاف الجوهر أو الخصائص المسبقة apriori في الحياة العقلية الإنسانية المتبادلة.

ومن أمثلة التحليل الظاهراتي تحليل عاطفة احترام الذات، التي ينجم عنها إحساس داخلي بالتفوق وتؤدي للاحترام، وفي بعض الأحيان يفصح هذا

الاستعداد عن نفسه فى شكل الرغبة فى القوة من أجل تحقيق التمايز والاعتراف بالشخص على أنه أفضل من الآخرين. وحين يتم إشباع هذه الرغبة فإنها تصبح مصدراً للشعور بالكرامة وحين تحبط فإنها تصبح مصدراً للشعور بالخجل. والدراسة الظاهراتية للخضوع تبين أنه ليس نتيجة للخوف أو غيره من الدوافع الغيرية ولكنه قد يتضمن خضوعاً داخلياً تلقائياً. ويصاحب الخضوع حالات سيكولوجية مثل الوداعة والارتباك والشعور بالحاجة للاتصال بشخصية أقوى، كما يرتبط به اتجاهات مثل الإعجاب والتفانى والاحترام. ولكن جوهره هو المشاركة فى عظمة الآخر وتلك غريزة تفصح عن نفسها فى عبادة القوة والرغبة فى السير وراء القائد والشعور بالواجب والخضوع الأعمى لأمر داخلى.

ورأى فيركانت أن المجتمع عبارة عن مجموعة من الأشخاص بوصفهم جملة لعلاقات متبادلة ذات أساس عقلى داخلى. والعلاقات الاجتماعية التى تكون المجتمع وتبقيه هى القوى الفعالة التى تشكل وتتحكم فى التعبير عن الاستعدادات الداخلية. ويمكن تعريف المجتمع بسهولة طالما أن الفرد ليس مغلقا على نفسه ولكنه يشارك فى حياة غيره من الناس ويستمد وعيه بذاته ومثله وعواطفه ورغباته من الآخرين والحياة الاجتماعية تتضمن حداً أدنى من التبادل reciprocity. والروابط الداخلية (العقلية) هى الخاصية الأساسية للمجتمع، وبناء على هذا الإطار التصورى رأى فيركانت أن التحليل الاجتماعى يجب أن يبدأ بالدراسة الفينومينولوجية للاستعدادات الداخلية للأفراد أ للغرائز وحدد فيركانت مجموعة من الاستعدادات الأساسية أو الغرائز التى يجب دراستها وهى: احترام الذات والخضوع الدافع الأبوى والميل للصراع والمحاكاة ولتعاطف والتعبير والتواجد الاجتماعى مع الآخرين Sociability. ويقرر مارتندال أن فيركانت قد اعتمد فى ذلك على كل من ماكدوجال ووليام جيمس وبالدوين وجبريل تاردوكال جروس وزيمل. كما أنه اعتمد بعد ذلك على تقسيم تونير للمجتمعات إلى المجتمع الحلى Gemsinechaft والمجتمع

Gesellschaft لكى يشرح العلاقات الاجتماعية الأساسية وأشكالها. وركز فيركانت اهتمامه بعد ذلك على دراسة الظاهرات الجماعية مثل الشعور الجمعي والوعى الذاتى للمجموعة والروح المعنوية.

ورأى فيركانت أن جميع العلاقات الاجتماعية تؤثر على الحياة الداخلية للأفراد فالعلاقات الاجتماعية لا تحقق أهدافا خارجية فحسب ولكنها تهدف إلى تحقيق خبرات داخلية، فالفرد قد يدخل فى علاقة اجتماعية مع آخرين لأسباب خارجية أو ليحصل على إشباع داخلى أو لتحقيق الهدفين معاً.

فعلاقات السيطرة والصراع مثلاً تقدم إشباعاً داخلياً للفرد. فالصراع يجعل الشخص يستمتع بالتحصيل والعظمة نتيجة ممارسته لقوته. وعلم الاجتماع الظاهراتى فى رأى فيركانت هو الذى يشرح شرحاً كافياً الاستعدادات الداخلية العقلية التى يتكون على أساسها المجتمع. وطبيعة العلاقات الاجتماعية كما أنه يمكننا من فهم المجموعة. فالمجموعة لها روح خاصة بها تجبر الشخص على أن يشعر ويفكر ويتصرف بأسلوب محدد. والمجموعة كالفرد لديها وعى بذاتها وحافز للبقاء وتنظيم للحياة.

وعلى ذلك فإن المنهج الظاهراتى، وهو المنهج الوحيد الصالح لعلم الاجتماع فى رأى فيركانت، يؤدى إلى الكشف عن جوهر المجتمع والسلوك الاجتماعى والعلاقات الاجتماعية، وهذا الجوهر يتمثل فى الاستعدادات الفطرية لدى الإنسان مثل الاستعداد للمساعدة والشجار والتعاطف وللمحاكاة وللايحاء وللثقة .. الخ. فهذه الاستعدادات هى الشروط المسبقة Apriori pereonditions للمجتمع الإنسانى ويمكن اختزال الحياة الاجتماعية بأسرها غليها ونظراً لأنها استعدادات فطرية فإنها قابلة للاكتشاف بشكل مباشر إذا اتبعنا المنهج الملائم. ونظراً لأنها خصائص أصلية للخبرة فإنها لا تخضع إلا للتحليل الظاهراتى الذى يكشفها ويرجع كافة خصائص الخبرة الإنسانية غليها.

جارفينكل Garfinkel :

يعرف اتجاه هارولد جارفينكل الفينومينولوجي باسم اتجاه المنهجية الشعوبية ethnomethodology[١٦]، ويتصف هذا الاتجاه مثل غيره من الاتجاهات الظاهراتية بموقفه النقدى والرافض للاتجاه الوضعى فى علم الاجتماع وقد بدأ جارفينكل يرفض تركيز علم الاجتماع على دراسة المظاهر appearance أو الاحداث والسلوك الظاهر لأن ذلك فى رأيه عديم القيمة ولا يشكل جوهر الحياة الاجتماعية، ودعا بدلاً من ذلك إلى التركيز على دراسة المعانى الخفية أو المستترة أو الضمنية tacit التى توجد فى عقول الأفراد عن مختلف المواقف الاجتماعية والتى لا يفكر فيها أحد وتعتبر من الأشياء المسلم بها Taken for granted ومع ذلك تحدد كل تصرفات الناس بما فى ذلك العلماء وهى المسئولة عن وجود تفاعل اجتماعى يتصف بالثبات. فأساس الحياة الاجتماعية عند جارفينكل وسبب تماسكها هو الفهم الضمنى الذى يشترك فيه الناس (دون أن يعبروا عنه) لكل الأمور اليومية العادية والتافهة. فهناك بناء من القواعد والمبادئ الخفية والمشتركة بين الناس يتصرفون بناء عليها حتى دون أن يعرفوها. ولهذا فإن علم الاجتماع الذى يتبع المنهج الشعوبى يجب أن يجعل موضوع اهتمامه الأفراد العاديين ويدرس الأنشطة اليومية الروتينية ليكشف عن المعانى التى وراءها والتى تعبر جوهر الحياة الاجتماعية.

فهو يهدف إلى فهم الموقف الاجتماعى من الداخل كما يبدو للناس الذين يعيشونه أو كما يحسون به.

ورأى جارفينكل أن العالم الاجتماعى يقع خارج نطاق الزمن. فهو لا يهمه أن يعرف كيف تتكون هذه المعانى عند الأفراد ولماذا تتكون هذه المعانى أو التعريفات للواقع الاجتماعى فى ذهنهم فى فترة زمنية معينة دون أخرى أو لماذا تختلف باختلاف المجموعات الاجتماعية أو باختلاف المكان، ولكن هدفه هو الوصول إلى تعميمات عامة جداً لا ترتبط بزمن معين ولا بثقافة معينة[١٧].

وقد رأى جارفينكل أن أهم جانب فى الحياة الاجتماعية هو ذلك الجانب غير المرئى الذى لا نحس به ربما لأنه مألوف جداً ووظيفة عالم الاجتماع الحقيقية هي الكشف عنه وجعل الناس يدركونه وذلك عن طريق مخالفة تلك القواعد أو المبادئ الضمنية غير المدركة بطريقة مفاجئة تجعلنا ندرك أنها هى التى وراء سلوكنا. أن مخالفة هذا المألوف فى رأيه هى التى تكشف عن وجوده، والمثال على ذلك ما يأتى.

أن تأتى مجموعة من الشباب وسط ميدان شديد الزحام وقت الظهيرة فى مدينة مثل أمستردام ومعهم مائة دجاجة حية ويقومون بإطلاقها وسط الميدان لتجرى فى كل اتجاه. سوف يؤدى ذلك إلى دهشة سائقى السيارات وتشتيت انتباههم وقد تقع حوادث وسيتجمع الجمهور وسيرتبك المرور ويتوقف سير الروتين العادى ويضحك الناس عندما يتدخل رجال الشرطة ويجرون خلف الدجاج لجمعه من الطريق.

إن هذا الحدث سوف يجعل الناس تدرك فجأة قاعدة خفية لا يلاحظونها تحكم سلوكهم فى حياتهم اليومية: لا يجب إطلاق الدجاج فى الطرقات أثناء فترات الازدحام خلال النهار![١٨] ـ الفينومينولوجى

ولابد أن أعترف هنا للقارئ أننى كنت أكن احتراما غامضا للفلسفة الفينومينولوجية وللاستفادة منها فى فهم الواقع الاجتماعى، وأننى عندما سمعت لأول مرة بهذه التسمية لمنهج جديد فى علم الاجتماع ينبع من الاتجاه الظاهراتى (المنهجية الشعوبية) توقعت أن أقرأ شيئا عميقا ومفيدا، وظللت أحاول أن ألم بما قدمه جارفينكل من إسهام ولكننى اكتشفت أن كل ما كتبه وما كتب عنه لا يمكن أن يزيد عن هذه السطور القليلة السابقة مكررة بعشرات الصيغ مدعمة بعشرات الأمثلة التوضيحية وندمت ندما شديدا على الوقت الذى أنفقته فى هذه القراءة، ولكن خفف من حدة ندمى أن زال سحر التسمية من عقلى ولم أعد أجهل المضمون الفارغ لهذه البدعة النظرية وقوى اعتقادى بأن هناك جهدا مقصودا لشغل طلاب الاجتماع والمثقفين بأفكار جديدة ينفقون وقتا

ئلا فى محاولة فهمها ثم مناقشتها ونقدها ورفضها وما أن ينتهوا من ذلك
تى تفرض عليهم أفكار أخرى وهكذا لا يلتفتون إلى القضايا الأساسية
مجتمع ولا يصلون إلى فهم علمى حقيقى له. ورأيت من واجبى أن أقدم هذه
سورة من الأفكار للقارئ العربى حتى يستفيد منها درسا وحتى لا ترهبه
أسماء الكبيرة أو التسميات البراقة التى تتخفى وراء ستار علمى.

ولكن لماذا ينتج المجتمع الغربى هذه الأفكار؟ ولماذا تتبنى المؤسسات
علمية أصحابها ولماذا تروج دور النشر لها ومن الذى يمول عملية إنتاج هذا
نوع من الفكر.

نستطيع أن نجد إجابة على مثل هذه الأسئلة لدى المستنيرين والعقلاء
ن علماء الاجتماع الغربيين في أوربا وأمريكا.

يقرر عالم الاجتماع البريطانى بارى سمارت Smart إننا يجب أن
ل العوامل السياسية والاقتصادية والسياسية والعسكرية التى تشجع على
ل وتشجيع ظهور مثل هذه الأعمال غير المفيدة وتقدم لها التمويل اللازم.
يرى سمارت أن تشجيع المؤسسات العلمية والاقتصادية والسياسية
العسكرية فى الولايات المتحدة الأمريكية لهذا النوع من الدراسات[1] إنما
رجع إلى أن جارفينكل ومنهجه الشعوبى يركز الاهتمام على مواقف الحياة
ومية وكيفية تصور الناس لها بحيث يصرف الاهتمام تماما عن أى شئ
تصل بالبناء الاجتماعى وعن أزمات هذا البناء. فهو يقدم علم اجتماع محور
اهتمامه هو الكلام والكلام عن الكلام بدلا من الاهتمام بطبيعة ما يفعله الناس
وبالعلاقة الجدلية بين الفكر والفعل[20].

ويرى عالم الاجتماع الأمريكي آلفن جولدنر أن جارفينكل يقدم بفكره
بديلا للعنف فى مقاومة الوضع القائم فى المجتمع الأمريكى، ذلك أنه يدعو إلى
ع من الفوضوية قد يروق للشباب الساخط على النظام الاجتماعى، فالمنهجية
الشعوبية دعوة إلى تغيير الذات بدلا من تغيير النظام أو هى مواجهة فردية

صغيرة Micro Confrontation ومقاومة غير عنيفة للوضع القائم لا تزيد عن كونها تمردا رمزيا يستجيب لمشاعر الشباب حتى لا يعبروا عنها بالثورة أو العنف.

تعليق عام على الاتجاه الفينومينولوجي :

يلاحظ نقاد الاتجاه الفينومينولوجى أن هذا الاتجاه ينصف أساسا بالتركيز على دراسة المعانى والخبرات المشتركة بين الأفراد فى المجتمع بوصفها أساسا للحياة الاجتماعية وبإهمال الاختلافات والصراعات الواقعية داخل المجتمع. ويتعارض ذلك تمام التعارض مع التحليل العلمى الواقعى للمجتمع الذى يبين بالأدلة القاطعة أن العالم تمزقه الصراعات على كافة المستويات، وأن القدر المتاح من المعانى والخبرات المشتركة بين الأفراد فى المجتمع الواحد أو فى مجتمعات العالم أقل بكثير من الاختلافات والصراعات فهناك صراعات عديدة بين الشباب والشيوخ والنساء والرجال، الأغنياء والفقراء، الأميون والمتعلمون، أصحاب السلطة والقوة والخاضعين لهم، دعاة السلام ودعاة الحرب، الاشتراكيون والرأسماليون، العالم الثالث والبلدان المتقدمة[٢١]. أى أن المسلمة الأساسية التى تنهض عليها التحليلات الفينومينولوجية عن طبيعة الواقع الاجتماعي (الخبرات الفكرية المشتركة) لا تدعمها الأدلة الأمبيريقية بل هناك أدلة تنفيها.

وقد تجاهل أصحاب الاتجاه الفينومينولوجى مسألة الصراع الطبقى العنيف فى مجتمعاتهم ورفضوا حتى أن يروه أو يشيروا إليه أو يفسروه على الرغم من أنه كان يفرض نفسه على الجميع، مثال ذلك تجاهل أحد أقطاب هذا الإتجاه وهو الفرد شوتز Schutz لضرب العمال بالمدفعية فى فينا عندما كان دولفوس Sollfus رئيسا للوزراء، كما أنهم تجاهلوا الواقع الاجتماعى الاقتصادى للمجتمع ودرسوا الخبرة اليومية وأسلوب التفكير كما لو كانا منفصلين عن هذا الواقع ولا يتأثران به[٢٢].

- وقد كانت النتيجة الحتمية لكل ذلك تحول علم الاجتماع الفينومينولوجى إلى دراسات ميكروسيولوجية Micro sociological (أى دراسات اجتماعية للوحدات الصغيرة وليس للبناء الاجتماعى) تركز أساسا على الخصائص الكلية للأفعال والمعانى الشائعة (كما هو الحال فى المنهجية الشعوبية) مما يؤدى إلى قصر اهتمام علم الاجتماع على دراسة ذلك الحيز المحدود من الحياة الخاصة كما لو كان منعزلا تماما عن كل ما يحيط به(٢٣).

ويشترك الاتجاه الفينومينولوجى مع الاتجاه الوظيفى وخاصة عند بارسونز فى أنه يعانى من تضخم لفظى يتزايد باستمرار Gallaping verbal inflation على حد تعبير دافيد مارتن، كما أنه يتصف بقدرة على وصف مجموعة من الحقائق البديهية التى نعرفها جميعا Truisms سويا دون أن يضيف إلى معرفتنا شيئا جديدا(٢٤).

ومما لا شك فيه أن ظهور علم الأجتماع الفينومينولوجى قد زاد من حدة أزمة علم الاجتماع الغربى، فعلى الرغم من أن أصحابه قد قدموه كمحاولة لإيجاد بديل للنظريات القائمة إلا أن النتيجة النهائية لظهوره هى إضافة اتجاه جديد يزيد من تعدد وتنوع الاتجاهات فى النظرية الاجتماعية(١).

موجز القول أن الاتجاه الفينومينولوجى يصور الواقع الاجتماعى على أنه مجرد المعانى والخبرات الفردية المشتركة ويهمل تماما الأساس الاجتماعى - الاقتصادى للمجتمع ويجعل وحدة تحليله أفكار الأفراد ويسلم بثبات البناء الاجتماعى ضمنيا عن طريق استبعاده من مجال الدراسة ويجعل الإنسان عاجزا حيال هذا الواقع الاجتماعى ويدعوه إلى التأمل فى ذاته واكتشافها وتغييرها بدلا من دعوته لتغيير واقعه الاجتماعى، والاتجاه الفينومينولوجى لا يعتمد على أى متغيرات تاريخية فى تفسيره للظاهرات الاجتماعية ولا يميز بين المجتمعات فى إطار الزمان أو المكان والأدلة الواقعية تنفى صحة المسلمات الأساسية وأخيرا فإن علماء الاجتماع النقديين يعتبرون الاتجاه الفينومينولوجى اتجاها محافظا من الناحية الايديولوجية.

هوامش الفصل العاشر :

١- Paul Edward (ed.): The Encyclopedia of philosiphy (London: Collier Macmilian, 1957), p.135

روزنتال ويودين: الموسوعة الفلسفية، ترجمة: سمير كرم (دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٤)، ص٤٣٤.

٢- Richard qunney, Crime Control in Capitalist Society: in Critical Criminology, edited by lan Taylor (London, Routledge and Kegan, Paul, 1976), p.336.

٣- Scheler M. The Nature of Sympoth (Trans, Beter Health) London: Routledge and Kegan Paul, 1956.

٤- A. Schutz and T. Luchman. The Structure of the Lifeworld Evansion: Northwestern University Press, 1973.

٥- Coffman E,, Behavior in Pablic Plances, 1973.

٦- H. Garfinke, Studies, in Ethnomethodology, Englewood Cilffs: Prentice-Hall, 1967.

٧- P. Berger and luchman T. The Social Construction of Reality: London: Allen Lance, The Penguin Press, 1967.

٨- J. Douglas. Understanding of Every Day Life, London Routledge and Kegan Paul. 1971.

٩- Gouldner A. op.cit., p.79.

١٠- Remmling. C. Toawerds The Sociology of Knodledge, Routledge & Kegan Paul, London, 1973, p.309.

١١- يشرح جون استود John Stude فى كتابة عن ماكس شيلر هذه الفكرة بوضوح ويبين بالأدلة طبيعة فكر النازية والمحافظة ومعاداته للاشتراكية

التى تتضح فى معالجته للقضايا الفلسفية والاجتماعية، انظر:

John Saude: Max Scheler: An Intllectual Protrait, (New York, 1967).

Peter Hamiltion Knowledge and Social Structure Routledege and Kegan Paul, London, 1971, pp.57-76.

Don Martindale. The Nature and Types of Sociological Theory, Routledge and Kegan Paul, London, 1961, pp.273-276.

Karl Manheim. Sociology of Knowledge Fro, the Standpoint of Modern Phenomenology, in Remmling, op.cit., p.187-188.

Don Martindale, op.cit., p.268-272.

Harold Garfinkel, Studies in Ethnomethodology, Englwood Cliff, N. J. Prentice-hall, 1967.

Alvin Gouldner, op.cit., p.391.

Alvin Gouldner, op.cit., p.562.

قامت القوات الجوية الأمريكية عن طريق مركز البحوث بها بتمويل عدة مؤتمرات عقدت بجامعات كاليفورنيا وكولورادو عن المنهجية الشعوبية واشترك فيها عدد كبير من العلماء الاجتماعيين، انظر فى ذلك:

Gouldner, op.cit., p.411.

Barry Smart, op.cit., pp.108-109.

Conter Remmling (ed.) Towards The Sociology of Knowledge, Routledge and Kegan Paul. London, 1973, p.29.

Ibid. p.29

٢٣- انظر نقدا تفصيليا للاتجاه الفينومينولوجى المنهجى الشعوبى فى:

Hans Peter Dreitzel (ed.) Recent Sociology No.2 Patterns of Communicative Bahaivor. Eight Articles That Demonstrate what Ethnomethodology is All about, New York; Macmillan 1970.

٢٤- Martin David, The Sociology of Knowledge in. Remiling (ed.), op.cit., p.313.

٢٥- Peter Hamilton, Knowledge and Social Structure, Routledge and Kegan Paul, London, 1974, p.80.

الفصل الحادى عشر

السلوكية الاجتماعية (*)

Social Behaviorism

أول من استخدم هذا المصطلح عالم الاجتماع الأمريكى جورج هربت صاحب الاتجاه المعروف باسم التفاعل الرمزى Symbolic interaction استخدمه بعد ذلك دون مارتندال فى كتابه "طبيعة وأنماط النظرية الاجتماعية" ليشير به إلى مجموعة من النظريات المتنوعة ولكنها تشترك فى خاصية أساسية هى اعتبار السلوك الموضوع الأساسى لعلم الاجتماع، مما جعلها تختلف عن النظريات الوضعية العضوية ونظريات الصراع التى اهتمت بالبناء الاجتماعى والنظريات الشكلية Formalisms التى اهتمت بالعلاقات المتبادلة كما حاولت هذه النظريات السلوكية الاجتماعية أن تبتكر أساليب أمبيريقية جديدة للدراسة الاجتماعية[١].

ومن أعلام المدرسة السلوكية الاجتماعية جبريل تارد Tarde فرانكلين هنرى جيد نجز Ciddings (أمريكى) وادوارد روص Ross (أمريكى) وتشارلس هورتون كولى Cooley (أمريكى) وماكس فيبر (ألمانى) وثورستون فبلن Vablin (أمريكى) وجون كومونز Commons (أمريكى) وروبرت ماكيفر Maclver (أمريكى) وفلورين زنانيكى. كما أن أعمال بارسونز الأولى يمكن أن تدرج تحت هذا الاتجاه.

ويرى مارتندال أن هذا الاتجاه قد ازدهر وتبلور فى الفترة ما بين ١٨٩٠ و ١٩١٠ وهى الفترة التى بدأ علم الاجتماع فيها يتخذ وضعا أكاديميا معترفاً به وأصبحت له مؤسساته وأصبح مهنة متخصصة. وكان على علماء الاجتماع أن يحددوا لأنفسهم مجالا متميزاً ومهام محددة. ومن هنا بدأ أصحاب هذا الاتجاه برفض الكيانات الاجتماعية الكلية كوحدة للتحليل الاجتماعى

(المجتمع الكلى أو المجتمع الإنسانى) وركزوا بدلاً من ذلك على السلوك بوصفه وحدة التحليل، وارتبطت بذلك محاولة تقديم منهج مناسب لدراسة هذا السلوك يجعل من علم الاجتماع علماً أمبيريقياً يعتمد على استخدام أساليب مثل الإحصاء والمقاييس ودراسة الحالة وتاريخ الحياة والأساليب المقارنة[٢].

ومن الواضح أن هذا الاتجاه قد حول الاهتمام من دراسة الكيانات الكلية الاجتماعية إلى دراسة الكيانات الصغيرة أى أنه يمثل فى نفس الوقت اتجاه دراسة الوحدات الصغرى Micro sociology وسوف نلاحظ عند عرضنا لأعمال ممثلى هذا الاتجاه أنه يرتكز على نفس المسلمات الرئيسية عن طبيعة الواقع الاجتماعى (واقع فكرى يتسم عموماً بالثبات) وطبيعة الإنسان (عديم القدرة على تغيير واقعه) التى ارتكزت عليها النظريات الكلاسيكية المثالية والنظريات الجديثة (مثل: الوظيفية والفينومينولوجيا) كما أنه يتخذ نفس الموقف من الأوضاع القائمة فى المجتمع (تجاهل الصراع الاجتماعى والتسليم بمشروعية النظام).

وعلى الرغم من اشتراك ممثلى هذا الاتجاه فى هذه الخواص الرئيسية إلا أن بينهم اختلافات فى التفاصيل التى يهتمون بها مما جعل مارتندال يصنفهم إلى ثلاث اتجاهات فرعية داخل السلوكية الاجتماعية هى :

١- السلوكية الجماعية Pluralistic Behaviorism

٢- التفاعل الرمزى Symbolic Interaction

٣- الفعل الاجتماعى Social Action

ولكننا نرى أنه يمكن إضافة ثلاثة اتجاهات فرعية أخرى لهذه الاتجاهات الثلاثة لأنها تشترك معها فى نفس الخصائص العامة هى :

١- الاتجاه الموقفى Situational approach ويمثله ويليام أيزاك توماس Thomas (١٨٦٣ - ١٩٤٧) الذى اعتبر القيم والاتجاهات هى الوقائع

السلوكية التى يجب أن يهتم علماء الاجتماع بدراستها ويجب أن يتم ذلك فى إطار الموقف الذى يحدث فيه السلوك[٣].

٢- اتجاه التبادل Exchange approach ويمثلها جورج هومانز Homans الذى حاول الجمع بين الاتجاهات الموقفية والفعل الاجتماعى والوظيفية والذى اعتبر السلوك الاجتماعى موضوع علم الاجتماع. وكذلك ألفن جولدز وبلاو Blau.

٣- نظرية المجال Field Theory ويمثلها كورت ليفين Lewin (١٨٩٠ - ١٩٤٧) وتعتبر نظريته نظرية سيكلووجية تماماً حيث كان موضوع اهتمامه الفرد وكيفية تأثر إدراكه واستجاباته بالعوالم التى توجد فى المجال أو الموقف الذى يحدث فيه السلوك.

وسوف نكتفى هنا بعرض نموذجين للسلوكية الاجتماعية هما السلوكية الجمعية والتفاعل الرمزى.

أولاً : اتجاه السلوكية الجمعية :

يعتبر اتجاه السلوكية الجمعية أقدم الاتجاهات فى مدرسة السلوكية الاجتماعية وترجع نشأته إلى أعمال عالم الاجتماع الفرنسى جبريل تارد (١٨٤٣ - ١٩٠٤) وقد أطلق على هذا الاتجاه تسميات مختلفة تدل جميعها على مضمونه مثل : اتجاه التقليد - الإيحاء ، أو الاتجاه السيكولوجى أو الاتجاه سيكولوجى الاجتماعى : ولكن جيدنجز عالم الاجتماع الأمريكى أسماه السلوكية الجمعية Pluralistic Behaviorism ويسلم أصحاب هذا الاتجاه بان النواة الأولية فى بناء المجتمع تتكون من شخصين يؤثر أحدهما فى الآخر تأثيراً روحياً، والعلاقة التى تنشأ بين هذين الشخصين هى العنصر الضرورى الوحيد للحياة الاجتماعية وهى موضوع دراسة علم الاجتماع الذى يجب أن يهتم بما يدور بين عقول الأفراد من تفاعل ويبحث معتقدات وأفكار ورغبات

هؤلاء الأفراد وكيفية تعبيرها عن نفسها فى صورة سلوك يمكن ملاحظته أو وحدات من الأفعال المتكررة Repeated unit acts.

ولا يهتم أصحاب هذا الاتجاه بالبعد التاريخى للحياة الاجتماعية ولا بالبناء الاجتماعى الكلى بل أن الأمر يصل بهم إلى حد المطالبة بتغيير اسم علم الاجتماع إلى علم نفس المجتمع(٤).

وسوف نعرض فيما يلى بإيجاز لأهم أصحاب هذا الاتجاه : تارد وجيدنجز.

١- جبريل تارد :

رأى جبريل تارد (١٨٤٣ - ١٩٠٤) مؤسس هذا الاتجاه أن أساس الحياة الاجتماعية هو المعتقدات والرغبات التى تتخذ مسميات مختلفة مثل : العقائد والعواطف والقوانين والعادات الجمعية والأخلاق .. الخ.

ووظيفة علم النفس دراسة العلاقات المتبادلة بينها فى عقل الفرد ولكن وظيفة علم الاجتماع دراسة العلاقات المتبادلة بينها فى عقول الأفراد، ووسيلة دراستها الإحصاء الذى يساعد على تعداد الأفعال المتشابهة والتى تمثل التعبيرات الظاهرة للمعتقدات والأفكار.

ورأى تارد أن هناك ثلاثة عمليات اجتماعية أساسية يحدث بمقتضاها التفاعل بين المعتقدات والأفكار هى : التكرار (التقليد) والمعارضة والتكيف، وألف تارد ثلاثة كتب يعالج كل منها إحدى هذه العمليات هى : قوانين التقليد Les lois de l'imitation والمعارضة العامة L'apposition Universelle والمنطق الاجتماعى La Logique Sociale(٥).

والحياة الاجتماعية فى رأى تارد تعتمد على تفاعل عاملين: الاختراع والتقليد، فالاختراع، وهو فى جوهره ظاهرة فردية، يضمن للمجتمع التجديد والتقدم والتقليد يضمن للمجتمع الاستمرار. وقد كتب تارد فى كتابه قوانين

التقليد "إن المجتمع لا يستطيع أن يعيش ولا أن يتقدم إلى الأمام ولا أن يتطور دون أن يعتمد على ينبوع الروتين والتقليد الذى لا ينضب والذى يتزايد باستمرار مع تعاقب الأجيال".

وشبه تارد الميل التلقائى لدى الإنسان التقليدى بتقليد القرود وتقليد الخراف، وبناء على ذلك عرف تارد المجتمع بأنه "مجموعة من الناس تربط بينهم روابط أما لأنهم يقلدون بعضهم وأما لأن بينهم نوعاً من التشابه والصفات العامة وهى فى مجموعها لا تخرج عن كونها صوراً قديمة لنموذج واحد[٦].

والأسرة تعتبر فى رأى تارد المسئولة عن انتقال الأفكار والمعتقدات وعن ظهور أشكال اجتماعية أكثر تعقيداً.

والمعارضة عند تارد تعنى الصراع بين موجتين من موجات التقليد تأتيان من مصادر مختلفة. فالصراع فى المجتمع هو صراع الأفكار والمعتقدات ولا صلة له بصراع المجموعات الاجتماعية أو صراع المصالح. وتتخذ المعارضة صوراً مختلفة مثل الحب والتنافس والمناقشة.

أما التكيف فيعنى الوصول إلى حالة من الاستقرار بعد تقبل الاختراعات الجديدة وانتشارها عن طريق التقليد.

وفسر تارد ظهور الأشكال الاجتماعية المختلفة تفسيراً سيكولوجياً مستخدماً مفهومى الاختراع والتقليد. فالأفراد الموهوبون المخترعون كونوا مجموعة النبلاء التى احتكرت الاختراعات والتى كانت مصدراً مشعاً لموجات التقليد ثم حلت محلهم المدينة كمصدر لاختراعات وأخيراً أصبحت الأمة هى المصدر العام للاختراع وموجات التقليد[٧].

ويعد تارد مسئولاً عن ذيوع الاتجاه النفسى فى علم الاجتماع وعن ظهور علم النفس الاجتماعى كفرع مستقل للدراسة وكان له تأثير كبير على

ظهور دراسات التغير الاجتماعى والضبط الاجتماعى وعلم الأجرام. وقد تأثر به الكثير من علماء الاجتماع الأمريكيين الشهيرين أمثال جيدنجز وروص وأجيورن وتيمكوف وعبروا عن آرائه ومسلماته الأساسية بطرق مختلفة.

وسوف نتناول هذه المسلمات الأساسية بالنقد بعد انتهائنا من عرض أراء ممثلى الاتجاهات المختلفة داخل مدرسة السلوكية الاجتماعية نظراً للتشابه الكبير بين كافة ممثلى هذه المدرسة فى الأسس التى ترتكز عليها نظرياتهم وأن اختلفوا فى النقاط الفرعية التى يركز عليها كل منهم.

٢- فرنكلين هنرى جيدنجز F. H. Giddings :

اتفق جيدنجز مع تارد فى تسليمه بأن هدف علم الاجتماع هو دراسة العلاقات المتبادلة بين سيكولوجية الأفراد وأن وحدة التحليل الأساسية هى وحدات الفعل أو السلوك وأن أنسب أسلوب للدراسة هو الإحصاء.

وركز جيدنجز [٨] اهتمامه على نوع معين من العواطف أو الأفكار التى توجد فى عقول الأفراد وهى ما أسماه بالشعور بالنوع Consciousness of Kind ورأى أن هذا الشعور هو أساس المجتمع الإنسانى وهو الذى يحدد العلاقات بين أفراده [٩] وعلى هذا فالمُجتمع يمثل أساسا ظاهرة نفسية. والشعور بالنوع هو الذى يجعل كل شخص يدرك وجود غيره على أساس التشابه بينهما فى النوع (سواء كان هذا الإدراك عضوياً أو عاطفياً أو يتعلق بالرغبة).

ورأى جيدنجز أن الشعور بالنوع "يجعل الأفراد يتصرفون بطريقة معينة بحيث تتحقق بينهم فى لحظة معينة عواطف مشتركة، كما توصلوا إلى أحكام متشابهة. وقد يسلكون فى بعض الأحيان نفس المسلك. من ثم يمكن أن يؤدى هذا التفاعل إلى ظهور هذا العقل الاجتماعى. وهذا الوعى بالنوع هو الذى يجعل أى تجمع للأفراد يتحول إلى مجتمع.

وقد ميز جيدنجز فى كتابه علم الاجتماع الاستقرائى Inductive

Sociology بين خمس أنواع من الشعور بالنوع.

١- التعاطف العضوى.

٢- إدراك التشابه.

٣- التعاطف المتبادل.

٤- الحب.

٥- الرغبة.

وتحدد طبيعة كل من هذه الأنواع من الشعور بالنوع (أو التماثل العقلى) كل ما هو أساسى بالنسبة للمجتمع مثل التنظيم الاجتماعى أو المؤسسات والطبقات الاجتماعية. ويترتب على هذا الشعور بالنوع تماثل فى الاستجابات لدى الأفراد الذين لديهم هذا الشعور. ويمكن تصنيف الشخصيات التى توجد فى المجتمع على أساس التماثل بينهم فى الاستجابات إلى أربعة أنماط من الشخصية : النمط القوى Forceful والنمط المرح Convivial والنمط المتزمت the austro والنمط الواعى العقلانى The rationaly conscious ويرتبط بهذه الأنماط الأربعة من الشخصية أربعة أنماط عقلية هى: الفكرى الحركى The ideo motor والفكر العاطفى the ideo-emotional والعاطفى المتزمت The dogmatic emotional والمثقف النقدى theoretical lintellectual وبناء على هذه التقسيمات السيكولوجية للناس فى المجتمع قسم جيدنجز المجتمع إلى ثلاثة أنواع من الطبقات : طبقات الحيوية وطبقات الشخصية و الطبقات الاجتماعية.

ولا تدخل النواحى الاقتصادية فى تحديد أى من هذه الطبقات ولكنها جميعاً تعتمد على الخصائص السيكلوجية والبيولوجية. ورأى جيدنجز أنه يمكن تقسيم الناس فى المجتمع من حيث الحيوية إلى طبقة ذات خصوبة عالية (تتميز بارتفاع معدلات المواليد وانخفاض معدلات الوفيات وتوجد بالريف)؛

وطبقة ذات خصوبة متوسطة وتضم رجال الأعمال والمهنيين وطبقة ذات خصوبة منخفضة تتميز بارتفاع معدلات المواليد وارتفاع معدلات الوفيات وتضم العمال فى المدن. كما يمكن تقسيم الناس إلى طبقات حسب شخصيتهم فهناك طبقة العباقرة وطبقة الموهوبين وطبقة العاديين وطبقة المعوقين. أما الطبقات الاجتماعية فتتحدد على أساس الإسهام فى الحياة الاجتماعية. فهناك الطبقة الاجتماعية الحقيقية والطبيعية والتى تمثل الارستقراطية وتتميز بدرجة عالية من الشعور بالنوع وهناك الطبقة الزائفة التى تتصف بدرجة منحطة من الشعور بالنوع[1].

ثانياً : اتجاه التفاعل الرمزى Symbolic interaction :

يتفق اتجاه التفاعل الرمزى مع اتجاه السلوكية الجمعية فى المسلمات الأساسية التى يعتمدان عليها فيما يتعلق بطبيعة الواقع الاجتماعى ووحدات التحليل الاجتماعى الصغرى، ولكنهما يختلفان من حيث أن اتجاه السلوكية الجمعية الذى ظهر فى أوربا قد تأثر إلى حد كبير بعلم النفس التجريبى، بينما تأثر اتجاه التفاعل الرمزى الذى ظهر فى أمريكا بالفلسفة البراجماتية (النفعية)، كما أن اتجاه السلوكية الجمعية قد جعل موضوع التقليد محور اهتمامه بينما ركز اتجاه التفاعل الرمزى على الاتجاه والمعنى meaning and attitude ولذلك جعل الشخصية أو الذات محور دراسته[12].

ومن أبرز ممثلى اتجاه التفاعل الرمزى تشارلز هورتون كولى Charles Horton Gooley وجورج هربرت ميد George Herbert Mead.

٣- تشارلز كولى :

رأى كولى أن التصورات التى يكونها الناس عن بعضهم البعض تشكل الحقائق الأساسية بالمجتمع، وعلى هذا عرف المجتمع بأنه "ظاهرة عقلية أو علاقة بين أفكار شخصية" ورأى أن مهمة علم الاجتماع دراسة

العلاقة بين الذات Self والمجتمع عن طريق تحليل التخيلات أو التصورات التى توجد لدى الناس عن بعضهم البعض[1]. وقد عبر كولى عن ذلك بقوله :

"إن المجتمع .. عبارة عن علاقة بين أفكار شخصية. لكى يوجد مجتمع ما لابد أن يلتقى الأشخاص سويا فى مكان ما، وهؤلاء الأشخاص يلتقون سويا على المستوى الفكرى فى العقل ... وليس هناك مجال آخر يمكن التقاء الأشخاص فية غير هذا المجال المشترك .. فالمجتمع يوجد فى عقلى على شكل التقاء أفكار معينة مثل "أنا" و "توماس" "وهنرى" وسوزان ..الخ. وهو يوجد فى عقلك بنفس الكيفية وهكذا يوجد فى كل عقل".

ورأى كولى أن الذات عبارة عن بناء تخيلى Imaginative reconstruction للكيفية التى يدرك بها الشخص تفسير الآخرين لمظهره.

وقد أشار كولى للذات بتعبير الذات المرآة Looking glass self ورأى أن هذه الذات تتكون من ثلاثة عناصر أساسية :

تصور كيف نبدو بالنسبة للشخص الآخر، وتصور حكمة على هذا المظهر الذى يراه منا، وشعور ما بالذات كالفخر أو الخزى[١٤].

ولكن نكشف عن تصورات الناس يجب أن نتبع أسلوب الاستبطان التعاطفى Eympathetic introspection، أى أن يضع الباحث نفسه فعلاً أو تصوراً فى موقف مبحوثيه ثم يستخدم خياله فى إعادة بناء العلاقة بين المنبهات التى توجد فى هذا الموقف وبين ما يلاحظه من نشاط سلوكى. والمادة التى يحللها علم الاجتماع تتكون من تخيلات الناس عن بعضهم البعض وكذلك من الأفكار التصورية والتفسيرية للباحث. ورأى كولى أنه يمكن الجمع بين الطريقة التعاطفية الاستبطانية وبين الطريقة الإحصائية فى البحث الاجتماعى.

وقد طور كولى مفهومه عن الذات المرآة وطبقه على المجموعات الإنسانية وكيفية التنظيم الاجتماعى. وقد ميز بين نوعين من المجموعات: ما

أسماه بالمجموعات الأولية وما اسماه بالمجموعات الثانوية. وقد عرف المجموعة الأولية Primary group كما يأتى :

أعنى بالمجموعة الاولية تلك التى تتصف بالعلاقات الحميمة والمباشرة Face to face والتعاون بين أعضائها، وهى أولية من عدة نواحى أهمها أنها أساسية فى تشكيل مثل الفرد وطبيعته الاجتماعية. والنتيجة السيكولوجية للعلاقة الحميمة هى امتزاج الأفراد فى كل مشترك بحيث تصبح ذات كل فرد هى الحياة المشتركة للمجموعة. وربما كانت أبسط طريقة نصف بها هذا الشكل المشترك هى أن نسميه "النحن" We ففى هذه المجموعة يكون تعبير "نحن" هو التعبير الطبيعى عن التعاطف والتوحد المتبادل بين الأعضاء. العضو يعيش فى شعور المجموع ويجد أهدافه الأساسية فى ذلك الشعور[١٥].

ومن أمثلة هذه المجموعات الأولية الأسرة وجماعة اللعب وجماعة الجوار وجماعة المسنين. والمجموعة الأولية ذات أهمية كبرى فى تكوين الطبيعة الاجتماعية للفرد وفى تكوين مثله. وهذه المثل التى تنشأ فى المجموعة الأولية هى التى تشكل وحدة وبناء العقل الاجتماعى. ومثلما يمكن تصنيف الشخصية إلى أنماط على أساس ما تحويه من أفكار ومثل، يمكن تصنيف البناء السياسى والدينى والأسرة والفن واللغة إلى أنماط[١٦]. وقد كان لكولى تحيزاته السياسية الواضحة بحيث رأى بعض المفكرين أن نظريته محافظة إلى حد بعيد من حيث أنه كان يرى أن شكل المجموعة الأولية هو الأمثل بالنسبة للمجتمعات[١٧] كما أنه دافع عن الاستعمار الأمريكى مستخدما فى ذلك نظريته عن الذات المرآة حيث رأى أن الوعى بالذات لدى الأمريكيين أرقى منه لدى غيرهم[١٨].

٤ - جورج هربرت ميد :

أتخذ ميد (١٨٦٣ - ١٩٣١) نفس الاتجاه السلوكي في تفسيره للعمليات التفاعلية بين الأفراد في المجتمع. وقد رأى ميد أن العقل نتاج للاتصال الإنساني وأن الوعي بالذات والشخصية إنما هما نتاج للقدرة الإنسانية على الاتصال باستخدام الإشارات الفيزيقية والأصوات الرمزية. وقد رأى ميد أن وحدة التحليل يجب أن تكون الفعل الاجتماعي وعرف الفعل الاجتماعي بأنه فعل متبادل بين فردين أو أكثر. وقرر ميد أن اللغة تمثل الخاصية المميزة للإنسان وأنها قد ظهرت نتيجة للتفاعل بين الأفراد، وأول صورة لها هي الإشارات Gestures التي يعبر بها الإنسان عن انفعالاته. وتصبح هذه الإشارة وسيلة هامة في التفاعل الرمزي حيث تكتسب معنى يتفق عليه كل أعضاء المجموعة. والإشارات هي أساس اللغة كما أنها أساس النشاط العقلي(١٩). والوظيفة الأساسية للإشارات هي تسهيل السلوك العقلاني وجعل التنظيم الاجتماعي الذي يتسم بالثبات شيئاً ممكناً.

ومن خلال التفاعل الرمزي بين الأفراد ينشأ الوعي بالذات لدى كل فرد. وهذا الوعي بالذات يحدث عندما يستطيع الفرد أن يفسر عقلياً المعنى الرمزي لإشاراته. ولا يستطيع الفرد أن يشعر بذاته إلا من خلال إشارات الآخرين التي تحمل معنى رمزياً. أي أن الوعي بالذات يتم عن طريق أن يجعل الشخص ذاته موضوعاً Object للملاحظة تماماً مثلما يجعل الآخرين موضوعات لهذه الملاحظة.

والذات تتكون لدى الفرد من خلال عملية التفاعل في المجموعة. فالذات لا يولد بها الشخص ولكنها تنشأ عن طريق الخبرة والنشاط الاجتماعي وعلى هذا فإن أساس الذات يتكون في مرحلة التطبيع الاجتماعي أثناء الطفولة، ويمر تكوين الوعي بالذات بثلاث مراحل تطورية : مرحلة المحاكاة في الأفعال Imitative acts والمرحلة الأولى تحدث خلال السنة الثانية من

العمر حيث يقلد فيها الطفل سلوك الآخرين المحيطين بـه مثل الآباء والأخوة والأخوات أما المرحلة الثانية فإنـها تبدأ عندما يصل الطفل إلى سن الثالثة وتتسم بميل الطفل إلى اتخاذ أدوار الآخرين حيث يلعب دور الأم أو دور المدرس أو رجل الشرطة وفى هذه المرحلة يبدأ الطفل فى الخروج عن نطاق نفسه أى أنه يبدأ فى الاهتمام باتجاهات الآخرين نحوه بوصفه موضوعا. واتخاذ دور الآخر Role taking هو العملية الأساسية فى تكوين الذات[٢٠]. وفى مرحلة اللعب هذه يكتسب الفرد مجموعة من "الذوات Selves" يتم التكامل بينها فى المرحلة الثالثة The game stage وهى المرحلة التى تظهر فيها الذات الموحدة Unifled self وفى هذه المرحلة يصبح الطفل قادرا على تبنى اتجاهات كل أعضاء المجموعة التى ينتمى إليها وعلى تصور دور كل فرد فى المجموعة والقيام به. وقد أسمى ميد المجموعة الاجتماعية التى يكون الفرد من خلالها ذاته الموحدة بالآخر المعمم Generalized other. ومن خلال هذا الآخر المعمم يمارس المجتمع الضبط على سلوك الأفراد الأعضاء فيه.

تعليق عام على نظريات السلوكية الاجتماعية :

انتشرت الاتجاهات المختلفة للسلوكية الاجتماعية وتبلورت فى الولايات المتحدة الأمريكية مع بداية القرن العشرين وكان لعلمائها تأثيرات كبيرة على الكثير من مجالات الدراسة والبحث فى علم الاجتماع. والسمة العامة المشتركة بين اتجاهات السلوكية الاجتماعية هى تركيزها على تحليل الوحدات الصغرى فى المجتمع Micro-Analysis (للفرد والمجموعة الصغيرة) وعلى دراسة الجوانب السلوكية والسيكولوجية للأفراد (الاتجاهات والقيم والأفعال ..الخ) وتجاهل تحليل الوحدات الكبرى للمجتمع Micro Analysis. وبذلك اختزلت السلوكية الاجتماعية الحياة الاجتماعية بأسرها إلى مجرد حالات سيكولوجية مجتزأة تماما من سياقها العام، كما أن أسلوب

دراستها يتركز على الاستبطان وملاحظة السلوك وأغفلت تماما الأسلوب التاريخى.

والنتيجة الحتمية لكل ذلك أن السلوكية الاجتماعية قد استبعدت النظام الاجتماعى والسياسى والاقتصادى من نطاق الدراسة أو جعلته موضوعا غير مشكل Non Problematic ويعنى ذلك فى المقام الأول اتخاذ موقف إيجابى غير نقدى من الأوضاع القائمة تماما مثلا فعل أصحاب الاتجاه الوضعى ومن تلاهم من العلماء وتوجيه اهتمام الباحثين إلى دراسة التفاصيل الصغيرة فى الحياة الاجتماعية وصرف اهتمامهم عن دراسة القضايا الأساسية للمجتمع. كما أن مفهوم أصحاب السلوكية الاجتماعية عن التغير الاجتماعى انحصر فى نطاق التغير السيكولوجى للأفراد وليس التغير فى الأنساق الاجتماعية الكبرى.

وقد كشف بعض العلماء الأمريكيين الراديكاليين عن التحيزات الأيديولوجية والسياسية لكثير من أصحاب إتجاهات السلوكية الاجتماعية. فقد استخدم كولى مثلا فكرة الشعور بالذات The Feeling of self ليبرر بها استعمار البلاد الأنجلو ساكسونية لبلدان آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، حيث قرر أن الأمريكيين والبريطانيين يتسمون بالاعتماد على الذات والمثابرة وضبط النفس مما يجعلهم أكثر رقيا بالنسبة لغيرهم. كما استخدم نفس هذه الادعاءات فى تبرير قمع واستغلال المجموعات القومية والعنصرية فى الولايات المتحدة ذاتها. كما أن جيدنيجز دافع عن الحرب الإمبريالية ضد أسبانيا وعن توسيع رقعة الإمبراطورية الأمريكية عن طريق الغزو وقد اشترك مع جيدنجز فى ذلك كثير من السلوكيين الاجتماعيين أمثال روص وكولى.

هوامش الفصل الحادي عشر :

* يسمى هذا الاتجاه في بعض المؤلفات بالإتجاه السيكولوجي.

١- D. Martindale, op.cit., p.286.

٢- Ibid, p.435.

٣- يمكن الرجوع إلى:

Morris Janowitz, ed., W. I. Thomas no Social Organization and Social Persoaulity Chicago University of Chicago Press, 1965.

٤- F. H. Giddings. Studies in the Theory of Human Society (New York, Macmillan, 1922), p.252.

٥- Martindale, op.cit., p.307.

٦- السيد محمد بدوي: مبادئ علم الاجتماع، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١م، ص١٤٩-١٥٠.

٧- Matindale, op.cit., p.308

٨- من أهم مؤلفات جيدنجز:

The Principles of Sociology (New York, macmillan, 1928).
The Elements of Sociology, 1916.
The Scientific Study of Human Society, 1924.

٩- مصطفى الخشاب، علم الاجتماع ومدارسه، الكتاب الثالث، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦، ص٢٢٩-٢٣٠.

١٠- نيقولا تيماشيف، مرجع سبق ذكره، ص١٣٠-١٣٣.

١١- Martindal, op.cit., pp.319-320

١٢- Don Martindale, op.cit., p.339.

١٣- Charles Horton Cooley, Hpman Nature and the Social Order (New York, Charks Seribner's Sons, 1902, pp.121-122.

١٤- Ibid. pp.183-184.

١٥- C. Cooley, Social Organization (New York, Schocken Books, 1962), p.23.

١٦- Theoder Abel, The Foundation of Sociological Theory, New York.

١٧- Philip Rieff, Introduction to Cooley's Social Organization, p.23.

١٨- Schwindinger, op.cit.

١٩- George H. Mead, Self and Society, ed. Chartes, W. Morris (Chicago, University of Chicago Press, 1934), p.7.

٢٠- Don Martindale, op.cit., p.357.

الفصل الثانى عشر

الاتجاهات الراديكالية

شهدت الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا الغربية ابتداء من ستينات القرن العشرين اتجاها متزايدا بين المتخصصين فى علم الاجتماع وخاصة الشباب منهم نحو نقد وإعادة تقييم نظريات علم الاجتماع السائدة وعلى وجه الخصوص النظرية الوظيفية وما تضمنته من مسلمات وما تحتوى عليه من مضمون ايديولوجى وما يشير إليه من إجراءات عملية تطبيقية.

أن أهم نقد وجه لنظريات علم الاجتماع التقليدى أو علم اجتماع المؤسسة Establishment sociolgy كما يسميه الراديكاليون هو ان هذه النظريات ليست سوى تبرير أيديولوجى للنظام الرأسمالى الامبريالى وأنها تدعيم باسم العلم للوضع القائم Statusquo وقد تبلور التيار الراديكالى فى علم الاجتماع بوصفه نقداً جذريا لعلم الاجتماع التقليدى وبوصفه دعوة لإحداث تغيير جذرى فى النظام الاجتماعى القائم فى الغرب يؤدى إلى استبداله بنظام آخر جديد.

ويرى المؤرخون لعلم الاجتماع الراديكالى[1] أنه قد ظهر بقوة فى الولايات المتحدة الأمريكية نظراً لعوامل متعددة سادت المناخ السياسى والاجتماعى فى هذه البلد أهمها فقدان الشباب لثقتهم فى النظام الأمريكى واكتشافهم لزيف ادعاءات القوى الحاكمة عن أنها تهدف للتقدم والسلام والرخاء والعدالة الاجتماعية.

فقد رأى الشباب كيف أن كل ما تفعله القوى الحاكمة مضاد تماماً لادعاءاتها فالبطالة تتزايد والتفاوت الطبقى يتزايد وقمع المعارضين للحكم يتخذ أعنف الصور حتى يصل إلى الاغتيال والسياسة الخارجية تعتمد على إبادة الجنس البشرى فى فيتنام وعلى التدخل المسلح فى أمريكا اللاتينية وآسيا. كما شاهد الشباب زيف الديمقراطية التى يدعيها الحكام وكيف يقتل المنادون بالحرية باسم

القانون والنظام. وكان من جراء ذلك أن فقدت الشعارات الرائجة عن الحرية والديمقراطية والعدالة معناها بالنسبة لهم.

وبدأ المثقفون وبخاصة الطلبة يثيرون أسئلة لم تكن تثار من قبل حول الطبيعة السياسية للمؤسسات التعليمية التى كانت تدعى أن مهمتها الأساسية كشف الحقيقة وإجراء البحوث الحرة. بدأ طلاب علم الاجتماع بالذات يتساءلون عن الدور السياسى لعلم الاجتماع، فقد لاحظ هؤلاء الطلاب أن علماء الاجتماع لم يولوا الأحداث الجارية فى المجتمع أى اهتمام. ففى الوقت الذى كان المجتمع الأمريكى مسرحاً للغليان السياسى والاجتماعى حيث بدأت ثورة الملونين على استغلالهم ومطالبتهم بحقوقهم المدنية وثورة الشباب على الحرب فى فيتنام وإضرابات العمال لزيادة الأجور - فى هذا الوقت كان علماء الاجتماع يتشدقون بمفهومات الإجماع القيمى Value Consensus التى ابتدعها تالكوت بارسونز ومفهومات الوظيفية الكلية pan functianalism التى ابتدعها دافيز وكان أخصائيو التدرج الاجتماعى يتحدثون عن الأبعاد الوظيفية للامساواة الاجتماعية ويدافعون عن التفاوت الطبقى. وكان أخصائيو العلاقات العنصرية يبررون استغلال الملونين ويصرفون الناس عن الاهتمام بأسبابه الحقيقية مدعين أن أسباب التعصب العنصرى ترجع إلى عوامل سيكلووجية يمكن علاجها فيسود السلام الاجتماعى بين البيض والملونين.

ولاحظ طلاب علم الاجتماع أن هذا العلم، مثل الجامعات التى تضمه، يلعب دوراً هاماً فى خدمة القوى الاجتماعية المسيطرة، فقد لعب علماء الاجتماع دوراً كبيراً فى رسم السياسة الحكومية وتنفيذها من خلال وظائفهم كمستشارين ومديرين وخبراء وإداريين. فعلى الرغم من أن علماء الاجتماع لم يكن باستطاعتهم تصميم الأسلحة أو ابتداع وسائل لنقل المواد الخام من بلدان العالم الثالث إلى الصناعات الرأسمالية مثل غيرهم من العلماء فإنهم كانوا يستطيعون تقديم النصح للمؤسسة العسكرية الرأسمالية فيما يتعلق بأساليب حشد التأييد

لبرامجها وتقديم تبريرات عملية للاستغلال وتخدير فقراء أمريكا والعالم الثالث باسم التنمية الاجتماعية والديمقراطية. وقد حصل هؤلاء العلماء المشهورون على المكافآت السخية لجهودهم فى شكل مناصب وأموال طائلة ينفقونها على أبحاثهم.

فى هذا المناخ السياسى والاجتماعى والأكاديمى كانت أعداد الشباب الذين يلتحقون بأقسام الاجتماع تتزايد وكان الكثيرون منهم يهدفون من وراء ذلك إلى فهم المجتمع الذى يعيشون فيه من أجل الإسهام فى حل بعض مشكلاته، ولكن هذه الآمال ما لبثت أن خابت حيث اكتشف هؤلاء الشباب أن أقسام الاجتماع بدلاً من أن تزودهم بالمعرفة والمهارات اللازمة لمعالجة القضايا الاجتماعية توجههم إلى دراسة مسائل أكاديمية شكلية وأنهم يمرون بعملية تطبيع اجتماعى أو "غسيل مخ" ويستبدلون مسئوليتهم الاجتماعية بمسئولية مهنية محدودة.

وفى الوقت الذى كانت فيه حركات الاحتجاج ضد السياسات الداخلية الخارجية للحكومة الأمريكية وللحكومات الأوربية والغربية تتخذ شكلاً منظماً أخذت حركات نقد مضمون وأهداف علم الاجتماع الغربى تتبلور بشكل واضح وحدث تداخل بين النوعين من الحركات (السياسية والأكاديمية) ونظم شباب علم الاجتماع مجموعات عمل ومؤتمرات لكشف العلاقة بين علم الاجتماع والسياسة وطالبوا بأن يحدد المشتغلون بعلم الاجتماع موقفهم من القضايا الرئيسية للمجتمع بوضوح ومن أمثلة هذه المجموعات فى الولايات المتحدة حركة تحرير علم الاجتماع Sociology liberation movement التى ضمت طلاب الدراسات العليا وأعضاء هيئة التدريس بأقسام الاجتماع بالجامعات الأمريكية والتى نظمت حلقات دراسية تحت شعار: المعرفة لمن؟ والتى شاركت فى مؤتمرات الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع ودعت العلماء التقليديين إلى اتخاذ مواقف علمية وإنسانية من قضايا المجتمع الأساسية. ومن أمثلتها أيضاً رابطة علماء الاجتماع الراديكاليين Union of radical Sociologists وطالبت هذه الجماعات من خلال ما تنشر من دوريات ومؤلفات وما تعقده من مؤتمرات بان يصبح علم الاجتماع

قوة مؤثرة فى الصراع من أجل التغيير الاجتماعى الجذرى ودعت إلى الجمع بين الجانب الأكاديمى النظرى وبين الممارسة بحيث يلعب علم الاجتماع نفسه دوراً فى أحداث التغيير الجذرى فى المجتمع.

وقام الراديكاليون من دراسى علم الاجتماع[٢] بتحليل الموقف السياسى لعلم الاجتماع التقليدى وكشفوا عن حقيقة أن النظام يستخدم علم الاجتماع لتحقيق أهداف السياسة على المستويين الداخلى والخارجى عن طريقين : الطريق الأول جعل علماء الاجتماع يزودون المؤسسات الحكومية والرأسمالية بالمعلومات التى تساعد على رسم سياساتها وتنفيذها بإجراء بحوث عن الاتجاهات والرأى العام والأسواق والضبط الاجتماعى وزيادة الإنتاج والربح وتخفيض التوتر بين العمال والإدارة وتقبل الفقراء والملونين لفقرهم وللغبن الواقع عليهم وجمع معلومات عن المجتمعات الأجنبية لتستفيد منها أجهزة المخابرات فى تدبير المؤامرات. أما الطريق الثانى فهو إضفاء صفة الشرعية على النظام القائم عن طريق الدعاية الأيديولوجية له باستخدام النظرية الاجتماعية ذاتها كما حدث فى حالة النظرية الوظيفية التى يتزعمها تالكوت بارسونز والتى تقدم تعريفات محافظة للواقع الاجتماعى وتدعو إلى خضوع الجماهير للنظام الحاكم بدعوى الإجماع القيمى. ولكى يحقق علم الاجتماع هذه الأهداف فإنه يخضع لتنظيم دقيق داخل الجامعات ومراكز البحوث ويحظى علماء الاجتماع بالتأييد والمكانة ومن خلال عملية التعليم يتم تطبيع الطلاب بحيث ينعزلون عن المجتمع ويصبحون فى خدمة القوى الحاكمة والمسيطرة.

وقد بذلت محاولات لتحديد أهداف يتبناها علم الاجتماع الراديكالى بدلاً من الأهداف المحافظة لعلم الاجتماع التقليدى ومن هذه الأهداف[٣] :

١- فهم المجتمع والعلاقة بين الإنسان والمجتمع على أساس علمى سليم بتطبيق المنهج العلمى تطبيقات سليماً ورفض العبودية للمفهومات التى يروج لها علماء الاجتماع التقليديون أو البحوث الأمبيريقية المجتزأة التى لا تعتمد على

حليل البنائى للمجتمع مع التركيز على بناء القوة فى المجتمع وعلى آليات التغير لاجتماعى الجذرى.

٢- عدم تقبل النظريات السائدة بشكل آلى وإخضاعها الدائم للنقد والتحليل الكشف عن مضمونها السياسى.

٣- الإلتزام الصريح الواضح بالقيم الإنسانية وجعل علم الاجتماع وسيلة تساعد على تنمية قدرات الإنسان الحقيقية عن طريق خلق الظروف الملائمة شباع احتياجاته وتحريره من الاستغلال.

ولكن كل ذلك لا يشير إلا إلى موقف الراديكالية النقدى من النظريات تقليدية وأهداف علم الاجتماع الراديكالى وما نحتاج إليه هو معرفة النظرية لاجتماعية البديلة التى يقدمونها.

الواقع أن التعرف على النظرية الاجتماعية الراديكالية أمر بالغ الصعوبة. ينبع هذه الصعوبة أساساً من اختلاف معنى الراديكالية عند مستخدميها، "فبعض علماء الاجتماع يعتبرون أنفسهم راديكاليين لمجرد أنهم يخالفون الاتجاه العام السائد فى الفكر الاجتماعى أو فى منهج البحث الاجتماعى. والبعض الآخر يعتبرون أن مجرد التعبير عن المعارضة الأخلاقية للسياسات الاقتصادية أو سياسية مبرراً كافياً لتصنيف أنفسهم على أنهم راديكاليون. وهناك آخرون يرون أن أى موقف نقدى من الأنظمة الاجتماعية يعتبر موقفاً راديكالياً حتى لو كان هذا نقد لا يؤدى إلى أكثر من الدعوة لمجرد إحداث بعض الإصلاحات لتكنوقراطية[٤].

ومن الواضح أن أمثال هؤلاء العلماء الاجتماعيين ليست لديهم نظرية جتماعية مبلورة يمكن اعتبارها نظرية راديكالية.

وهناك من يرى أن الراديكالية مرادفة للماركسية، وعلى هذا فإن كل من تبنى النظرية الماركسية فى المجتمعات الغربية يعتبر راديكالياً. ولكن من الممكن قول أيضاً أن هناك من العلماء الاجتماعيين من يدعو إلى التغيير الجذرى

للمجتمع دون أن يكون ماركسياً بالضرورة، كما أن هناك من يتبنى الماركسية فى المجتمعات الاشتراكية أن يكون راديكالياً حيث تستخدم الماركسية فى كثير من الأحيان للحفاظ على الأوضاع القائمة فى هذه المجتمعات والحيلولة دون أحداث تغيير ثورى فيها ينقلها إلى مرحلة تالية من التطور الاجتماعى.

ونحن نرى أن تعريف الراديكالية يجب أن يستبعد كل أولئك الذين يقتصرون على مجرد نقد بعض الأفكار السائدة فى علم الاجتماع أو بعض الأوضاع السائدة فى المجتمع دون المساس بالمسلمات الأساسية التى تنهض عليها النظريات الاجتماعية أو بالأسس التى تنهض عليها الأنظمة الاجتماعية. كما أن هذا التعريف يجب أن يستبعد أيضاً أولئك الذين يتخذون فقط موقف الرفض من كل ما هو قائم سواء فى العلم الاجتماعى أو فى المجتمع دون أن يقدموا بديلاً تقديماً له يعتمد على التحليل العلمى السليم.

ونرى أن يقتصر تعريف الراديكالية على "الموقف النقدى من المسلمات والأسس التى تنهض عليها النظريات الاجتماعية التقليدية وما يرتبط بها من مناهج ومن الأسس التى تنهض عليها الأنظمة الاجتماعية مع تقديم مسلمات بديلة وتصورات للأنظمة الاجتماعية التى يجب أن تحل محل الأنظمة القائمة على أساس من التحليل العلمى الصحيح المعتمد على الأدلة الأمبيريقية والتاريخية.

وقد قدم ثلاثة من علماء الاجتماع البريطانيين[٥] تصوراً لأهم خصائص النظرية الاجتماعية الراديكالية التى تميزها عن النظريات المحافظة والليبرالية نجملها فيما يلى :

أولاً : من حيث افتراضات النظرية عن طبيعة الإنسان :

تؤكد النظرية الراديكالية على حقيقة أن قدرات الإنسان غير محدودة وأن بإمكانه دائماً تغيير الواقع المادى والنظام الاجتماعى الذى يعيش فيه وكذلك تغيير نفسه ليصبح أكثر إنسانية.

ثانياً : من حيث افتراضات النظرية عن طبيعة الوقع الاجتماعى :

تؤكد النظرية على حقيقة أن هذا الواقع دائم التغير وأنه لا يتسم بالسكون أو الثبات كما تدعى النظريات المحافظة والليبرالية، وبالتالى فإن مهمة النظرية الاجتماعية تقديم فهم علمى سليم للقوانين التى تحكم هذا التغير بحيث يستطيع الإنسان أن يحدث هذا التغير فى مجتمعه وفقاً لها.

ثالثاً : من حيث افتراضات النظرية عن آليات التفاعل الاجتماعى داخل المجتمع:

تؤكد النظرية على أنه طالما كانت هناك مصالح متعارضة ومتضاربة داخل المجتمع فإنه لابد أن يكون هناك صراع وأن فكرة الإجماع القيمى والاتفاق الجمعى خرافة.

رابعاً : من حيث طبيعة النظرية الاجتماعية ذاتها :

تؤكد النظرية الراديكالية على أن النظرية الاجتماعية لا يجب أن تقتصر على مجرد الوصف بشكل سلبى لما هو قائم بالمجتمع ولكن لابد أن تتضمن بالضرورة توجيهات للممارسة العملية praxis أى أنها يجب أن تشجع على إحداث التغيرات الاجتماعية الراديكالية وإن تقدم أساليب للبحث الاجتماعى الهادف إلى التغير فالنظرية الاجتماعية الراديكالية لا يجب أن تقنع أبداً بمجرد وصف الأوضاع القائمة ولكن عليها أن تقدم أساليب عملية لتغيير المجتمع إلى الصورة المثلى التى توصلت إليها من خلال تحليل المجتمعات القائمة.

إن النظرية الاجتماعية الراديكالية لا يجب أن تنفصل عن الممارسة، بل يجب أن تشير إلى كيفية تغيير الواقع الاجتماعى أثناء دراسته.

خامساً : من حيث طبيعة المجموعات الاجتماعية التى تخدمها النظرية الاجتماعية:

تؤكد الاتجاهات الراديكالية على أن النظرية الاجتماعية يجب أن تكون موجهة لتلك المجموعات والفئات الاجتماعية التى من مصلحتها إحداث التغير فى المجتمع وليست تلك المجموعات المستفيدة من الأوضاع القائمة.

وليس من الضروري أن تكون هذه المجموعات هي البروليتاريا فقط كما تؤكد على ذلك الماركسية التقليدية ولكن يمكن أن تشمل كل الفئات المقهورة (النساء والملونين والأقليات عموماً، الخ) ويجب أن تكون النظرية الاجتماعية مرشداً لكل هذه الفئات في ممارسة نضالها ضد الاستغلال.

هذا ويمكننا القول أن الاتجاهات الراديكالية في النظرية الاجتماعية تستمد كثيراً من مسلماتها في النظرية الماركسية مع تطويعها للظروف الاجتماعية الحديثة السائدة في الغرب، ولكن أصحاب هذه الاتجاهات يختلفون من حيث درجة اعترافهم باعتمادهم على الماركسية في تكوين تصورات النظرية عن المجتمع وفي درجة تقبلهم أو نقدهم للنظرية الماركسية التقليدية.

ومع أن الراديكاليين يختلفون فيما بينهم حول كثير من تفاصيل النظرية الاجتماعية إلا أن هناك خصائص عامة مشتركة بين الراديكالية يمكن أن نجملها فيما يلي[٦]:

١- أن الاتجاه الراديكالي في علم الاجتماع الغربي الرأسمالي جزء من اليسار الجديد سواء على المستوى الأكاديمي أو المستوى السياسي.

٢- أن الغالبية العظمى من أصحاب الاتجاهات الراديكالية من الشباب وبخاصة الطلبة والمدرسين في الجامعة وهم لايشغلون مناصب عليا في المؤسسات التعليمية أو الجمعيات العلمية، وأن ظهورها ارتبط بظهور الحركات الطلابية في أمريكا وأوربا مثل حركة SNC (اللجنة الطلابية للتنسيق القومي سنة ١٩٦٠ و SDS ، حركة الطلاب من أجل مجتمع ديمقراطي و FSM ، حركة حرية الكلمة).

٣- أن الاتجاهات الراديكالية اليسارية الجديدة ليست فقط أكاديمية ولكنها أيضاً سياسية، فهي تتحدى المؤسسات القائمة وأساليب الحياة السائدة في البلدان الرأسمالية وحتى في البلدان الاشتراكية التقليدية.

٤- أن هذه الاتجاهات لا تقتصر على بلد بعينها ولكنها ظاهرة تشمل المجتمعات الغربية الرأسمالية وخاصة الولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا وبعض البلدان التى تدور فى فلكها مثل البرازيل التى ظهرت فيها اتجاهات معادية للاستعمار.

٥- أن هذه الاتجاهات تتخذ موقفا معارضا من التسلطية Anti authoritarian سواء فى الغرب أو الشرق والذى يتضح فى المؤسسات القائمة على البيروقراطية والتدرج الهرمى للسلطة كما يوجد فى المجتمعات الرأسمالية الحديثة والذى يعتمد على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج وتكدس الثروة فى أيدى القلة والأساس الطبقى للعلاقات الاجتماعية. وتطالب الاتجاهات الراديكالية بخلق مجتمعات خالية من العلاقات الطبقية تعتمد على التيسير الذاتى وجماعية اتخاذ القرارات على المستوى الجماهيرى. وعلى هذا فهى تسعى إلى القضاء على تلك الأنظمة الاقتصادية التى تشجع على الفردية والملكية الخاصة والعمل المأجور Wage laber وبصفة عامة تدعو الراديكالية إلى إعادة بناء الخبرة الإنسانية على أساس مبادئ اجتماعية غير مغتربة de alieniated تعتمد على العلاقات الإنسانية الحقيقية.

٦- تتخذ هذه الاتجاهات موقفا معارضا تماما للعنصرية racism والإمبريالية وترى أن المجتمعات الرأسمالية المتقدمة جميعها إمبريالية وعنصرية وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية. ويؤكد اليسار الجديد على أن العنصرية والإمبريالية لن ينتهيا إلا بالقضاء على الأساس الطبقى للعلاقات الاجتماعية فى المجتمعات الرأسمالية الحديثة. كما يؤكد هذا الاتجاه على أن العنصرية تخدم الهدف الأمبريالى للرأسمالية الحديثة. فاستغلال دول العالم الثالث واستنزاف ثروتها يستند على أساس عنصرى ويؤيد هذا الاتجاه حركات التحرر والاستغلال فى العالم الثالث ويطالب بإنشاء علاقات دولية جديدة خالية من الاستقلال تشجع على تطور ونمو بلدان العالم الثالث بعد القضاء على الاحتكارات الرأسمالية

الدولية .كما يؤكد هذا الاتجاه على ضرورة تحليل السياسات الخارجية للدول الرأسمالية وتحليل الدور الذى تلعبه المؤسسات المختلفة وبخاصة الجامعات فى تحقيق الأهداف الاستعمارية الرأسمالية العالمية.

٧- تحدد الاتجاهات الراديكالية تصورات لمجتمع جديد يحل محل المجتمع القائم ويتصف بالخصائص الآتية :

(أ) أن يكون العمل فيه غير مغترب أى أنه لا يتحدد بالاحتياجات الخاصة لرأس المال الاحتكارى ولكنه يتحدد بالاحتياجات الاجتماعية العقلانية.

(ب) أن تكون الثقافة غير قمعية Non repressive بحيث تتحرر فيه كل القيم الروحية للإنسان وتجد وسائل التعبير عنها.

(جـ) أن يكون التنظيم فيه يعتمد على اللامركزية وعلى حماية اتخاذ القرارات داخل الجماعات المحلية بطريقة مستقلة وبحيث تكون وسيلة تحقيق الذات هى العمل من أجل الصالح العام.

(د) التحرر من السيطرة السياسية والاستغلال الاقتصادى وسيادة ثقافة دولية عامة تقوم على المحبة والتفاهم المتبادل.

(هـ) القضاء على الملكية الخاصة لكي تحل محلها الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج واستخدام المصادر الاقتصادية من أجل سعادة كل سكان العالم.

(و) ظهور وحدات اجتماعية جديدة مثل الأسرة الممتدة والكميونات ..الخ.

هذا وقد انصبت معظم كتابات الراديكالية على نقد النظريات الاجتماعية التقليدية وإثبات الصلة الوثيقة بينها وبين الأيديولوجيا البورجوازية واستخدام هذه النظريات كوسيلة لتدعيم وتبرير الرأسمالية القائمة. واستمد الكثير من الراديكاليين أفكارهم من كتابات عالم الاجتماع الأمريكى الشهير رأيت ميلز النقدية للمجتمع الأمريكى وللاتجاهات النظرية فى علم الاجتماع واعتبروه مؤسس الاتجاه الراديكالى الحديث فى علم الاجتماع.

ويرى بلاكبورن Blackburn[٧] أن النظريات الاجتماعية التقليدية وعلم الاجتماع الأكاديمى بأسره تقدم تفسيراً وتبريراً للأوضاع الاجتماعية القائمة فى الغرب وأن هذه النظريات تتعمد استبعاد كل المفهومات النقدية وتستخدم استخدامات سياسية. ومن أمثلة المفهومات النقدية التى تخلو منها النظرية الاجتماعية الغربية: الرأسمالية، الاستغلال، التناقض، الاغتراب والطبقة. وبدلاً من هذه المفهومات النقدية تستخدم هذه النظريات مفهومات أخرى مثل المجتمع الصناعى (مقابل الرأسمالى) واللاتوازن المتبادل reciprocity inbalances (مقابل الاستغلال) والضرر الوظيفى dysfunction مقابل التناقض. وقد أوضح بلاكبورن الطابع الأيديولوجى للنظريات الاجتماعية التقليدية من خلال مناقشة لكيفية معالجة هذه النظريات لموضوعات التنمية الاجتماعية والتغير الاجتماعى والثورة. فقد بين أن علماء الاجتماع يؤكدون مثلما فعل أرون وبارسونز، على أنه ليس هناك تناقض بين مصالح البلدان المتقدمة والبلدان المتخلفة وذلك على الرغم مما تؤكده الأدلة من استغلال البلدان المتقدمة لدول العالم الثالث.

ومن جهة أخرى تعالج النظرية الاجتماعية الوظيفية موضوعات التكامل والنظام الاجتماعى والاستقرار الاجتماعى وتهمل موضوع التغير وتحلل كل جزء من النسق الاجتماعى على أساس مدى إسهامه فى المحافظة على الوضع القائم.

ويرى بلاكبورن أنه ليس هناك فرق حقيقى بين النظرية الوظيفية أو نظرية التوازن من جهة وما يسمى بنظريات الصراع من جهة أخرى فكلاهما يسعيان إلى تحقيق التكامل وتجنب التناقضات. ويؤكد بلاكبورن على أن علم الاجتماع ليس لديه نظرية كافية عن التغير الاجتماعى والثورة ويدعو إلى ضرورة إقامة التحليل الاجتماعى للمجتمع على أساس النظرية الماركسية، وفند بلاكبورن دعاوى أصحاب النظريات الاجتماعية فى الولايات المتحدة وبريطانيا عن أن نظرياتهم موضوعية وغير منحازة وبين كيف أن كل استنتاجاتهم عن

البنـاء الاجتمـاعى وخاصـة فيمـا يتعلـق بتوزيـع القـوة الاقتصادية أو الاجتماعيـة استنتاجات مضللة وتتعارض تماماً مع الأدلة الواقعية. وقدم الكثير من الأدلة على زيف إدعاء نظريات التوازن بأن مصادر التوتر والصراع الطبقى قد اختلـف فـى المجتمع الرأسمالى الغربى الحديث(٨).

وينتقد الفن جولدنر أصحـاب الاتجاهات الراديكالية على أسـاس أنـه لـم تتبلور لديهم بعد نظرية اجتماعيـة واضحـة. فعلـى الرغـم من أنـهم يتفقـون علـى ضرورة إحداث تغييرات جذريـة فـى المجتمع فأنـهم غير متفقين علـى النظريـة الاجتماعية التى يمكن أن توجههم فى إحداث هذه التغيرات: أن المجتمـع القديـم يبقى علـى نفسـه مـن خـلال نظريـات وأيديولوجيـات تسيطر علـى عقـول النـاس وتجعلهم يخضعون له. ومن المستحيل تحرير الناس من المجتمـع القديـم أو إقامة مجتمـع إنسـانى جديـد دون البدء مـن الآن بتشييد ثقافـة مضادة تشـمل نظريـات اجتماعية جديدة ومن المستحيل عمل ذلك دون نقد النظريـات الاجتماعيـة السائدة الآن(٩) ويرى جولدنر أن بعض الراديكاليين الذى يرفضون النظريات الاجتماعية السائدة ويدعون تبنى النظرية الماركسية التقليدية ولكنـهم فـى الحقيقـة لا يعرفـون الكثير عنها. وعلى هذا فأن هنـاك فجوة واسعة بيـن أهـداف الراديكاليـة الثوريـة السياسية وبين مستوى النظرية لديهم. ويدعو جولدنر الرديكاليين إلى التعمق فـى تحليل النظريـات الاجتماعيـة التقليديـة ونقدها مـن أجـل الوصول إلـى نظريـات راديكالية متكاملة تفسر الواقع الاجتماعى الفعلى وتساعد على تغييره وفـى ذلك يقول:

"وليس هناك من سبيل لتجاوز الحاضر والمـاضى الذى يستمد الحـاضر منه وجوده دون نقد مستفيض لـه. وليـس هنـاك من سبيل تجـاوز علم الاجتماع المعاصر دون نقد لنظريته وممارسته وأفكاره".

هوامش الفصل الثانى عشر :

١- J. D. Colfax and J. L. Roach (eds.) Radical Sociology Bacic Books, New York, 1970, pp.3-21.

٢- Albert Szymanski, Toward A Radical Sociology, in Colfax and Roach, Radical Sociology, op.cit, pp.93-107.

٣- Albert Szymanski in Colfax and Roach (eds.) p.98.

٤- Herman and Julia Schwendinger, The Sociologists of the Chair, Basic Books. Inc. New York, 1974, p. XXL.

٥- Ian Taylor, Paul Walton and Jock Young, Critical Crimonology Routledge & Kegan Paul, London, 1975, pp.23-28.

٦- Arthur Lothsetin (ed.). All we are saying the Phllosophy of the New Left, Gaprton Books, New York, 1971.

٧- Robin Blackburn, "A brief guide to bourgeois ideoiology" in Cockburn, A. and Blackburn, S. (eds.) Student Power, Peuguin, 1967.

٨- Robin Blackburn (ed.) Ideology in Social Science. Fontana Colins, 1976.

٩- Gouldner. A. The Coming Crisis of Western Sociology Heineman. London, 1971, p.4.

١٠- Ibid. p.16.

مراجع عربية

أحمد الخشاب: التفكير الاجتماعى، دراسة تكاملية للنظرية الاجتماعية، (القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٠).

أحمد أبو زيد: العلوم الإنسانية والصراع الإيديولوجى، عالم الفكر، جـ٢، ع٢، ١٩٧١.

السيد محمد بدوى: فلسفة أوجست كونت (مترجم) تاليف ليفى بريل: ترجمة: السيد محمد بدوى ومحمود قاسم، (القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٢).

أميل دوركايم: قواعد المنهج فى علم الاجتماع (مترجم) ترجمة: السيد محمد بدوى ومحمود قاسم، (القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦١).

حسن الساعاتي: مبادئ علم الاجتماع: (الإسكندرية: دار المعارف، ١٩٧٢).

ــــــــــ: مبادئ علم الاجتماع: (القاهرة: مكتبة مصر، ١٩٧١).

حسن سعفان: تاريخ الفكر الاجتماعى والمدارس الاجتماعية (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٦٦).

سمير نعيم أحمد: قضايا علم الاجتماع: (مترجم) تأليف أوسيبوف، ترجمة: سمير نعم وفرج أحمد (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٠).

ــــــــــ: علم الاجتماع بين الاشتراكية والرأسمالية: الطليعة: س٧، ع٢، فبراير ١٩٧١، ص٦٩-٧٤.

عبد الباسط محمد حسن: أصول البحث الاجتماعى (القاهرة: مكتبة وهبة ١٩٧٦).

ــــــــــ: علم الاجتماع (القاهرة: مكتبة غريب ١٩٧٧).

محمد عاطف غيث: مقدمة قضايا علم الاجتماع: تأليف أوسيبوف ترجمة: سمير نعيم وفرج أحمد (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٠).

محمد عاطف غيث : مقدمة نظرية علم الاجتماع: تأليف: نيقولا تيماشيف: ترجمة: محمود عودة وآخرين، (القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٠).

ـــــــــــ: الموقف النظرى فى علم الاجتماع المعاصر: (الإسكندرية: دار الجامعية، ١٩٧٢).

محمد الجوهرى: نظرية علم الاجتماع (مترجم) تأليف: نيقولا تيماشيف، ترجمة: محمود عودة ومحمد الجوهرى ومحمد على محمد والسيد محمد الجسينى، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٢).

محمود عودة: علم الاجتماع بين الرومانسية والراديكالية: (القاهرة: مكتبة سعيد رأفت، ١٩٧٦).

مصطفى الخشاب: علم الاجتماع ومدارسه (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٩٦).

BIBLIOGRAPHY

ABEL T. The Foundation of Sociological Theory (New York, Random House, 1970).

AFANASYEV V. Marxist Philosophy (Moscow: Progress Publishers, 1968).

ARON, R. Main Currents in Sociological Thought (England: Benguin Books, 1965).

BERGER, P. and LUBKMAN, T. The Social Construction of Reality (London: Allenlane, the Penguin Press, 1967).

BERLINE, J. Karl Marx. His Life and Environment (New York, Oxford, 1948).

BERNARD, S. Historical Sociology (New York Citadel Press, 1959).

BLACKBURN, R. A Brief Guide to Bourgeois Ideology. In Coekburn, A. and Blackburn, R. (ed.) Student Power, (Benguin books, 1967).

Ideology in Social Science (Fontana/Collins, 1976).

BOTTOMORE T.B. & Karl Marx Early Writings (New York, 1941).

- Sociology as Social Criticism (London, George Allend and Uniwin, 1975).

CHESNOKOV, D.L. Historical materialism (Moscow, Progress Publishers, 1959).

COLFAX, J. D. and Roach (ed.) Radical Sociology (New York Basic Books).

- The Function of Social Couflict ... (Free Press, New York, 1956).

COOLEY, C. Human Nature and the Social Order (New York Charles Scribner, 1902).

COSER L. Masters of Sociological Thought (Harcourt Brace-Jovannavich, Inc. New York, 1977).

DAVID M. The Sociology of Knowledge. In Remmling (ed.).

DOUGLAS J. Understanding of Every Day Life (London, Routledge & Kegan Paul . 1971).

DREITZEL H. (ed) Recent Sociology No. 2 Patterns of Communicative Behavior, Eight Articles That Demonstrate What Ethnomethodology is All About, (New York Macmillan 1970).

DURKHEIM E. The Division of Labor in Society (Gloucoe, Free Press, 1933).

- Suicide (Free Press, New York, 1951).

- Rules of Sociological Method (New York, Free Press, 1961).

FRIEDRICHS R.W.A. Sociology of Sociology (The Free Press, New York, 1970).

GIDDINS A. Capitalism and Modern Social Theory (Cambridge University Press, London 1971).

GIDDINGS F. Studies in the Theory of Human Society (New York, MacMillan, 1922).

GIRTH H. and Mills W. (eds) From Max Weber Easys in Sociology (New York, Oxford University press, 1940).

GOFFMAN, E. Behavior in Public Places (New York: Free Press. 1963).

GOOD and HATT. P. Methods in Social Research (New York. McGraw-Hill , 1951).

GOULDNER A. The Coming Crisis of Western Sociology 9London, Heineman, 1971).

HAGEDORN P. and LABVITS s. An Introduction into Sociological Orientations (New York, John Wiley, 1973).

HAMILON P. Knowledge and Social Structure (Routledge Kegan Paul, London, 1941).

HARRINGTON M. The Twilight of Capitalism. (The Macmillan Press New York, 1977).

HAWTHORN. G. Enlightenment and Despair. A History of Sociology (Cambridge University, Press, London, 1976).

HORTON, P. and HUNT. L. Sociology (New York. MacGraw-Hill, 1964).

Kolfax. D. and ROACH, J. Radical Sociology (New York, Basic books, 1970).

LARSON , C. Major Themes in Sociological Theory (New York, David Mac-Kay Company, 1973).

LEVINGSTON A. (ED) Mind and Society (New York Harcourt Brace, 1963).

LOCHWOOD, D. Some Remarks on the Social System (British Journal of Sociology, 1956).

LOTHSTEIN , A. (ed) . All We Are Saying. The Philosophy of the New Left (York Capricorn 1971).

MANHEIM K. Sociology of Knowledge from The Stand Point of Modern Phenomenology in Remmling (ed.).

MARTINDALE D. : Nature and Types of Sociological Theory (London, Routledge - Kegan Paul, 1967).

MEAD. G.: Mind, Self and Society (Chicago University of Chicago Press, 1934).

MILLS C.W. The Sociological Imagination London , Oxford University Press 1969).

MITCHEL A. Dictionary of Sociology (Routledge % Kegan Paul, London, 1968).

- A. Hundred Years of Sociology (Aladine Publishing Company , Chicago, 1971).

MARX K. and ENGLES F. The German Ideology (London, 1965).

MERTON, Social Theory and Social Structure (New York, Free Press, 1949).

NISBET. R. Sociological Tradition , London, 1970).

OSIPOV. G. Sociology, (Mosco, Progress Publishers, 1969).

PARSONS T. Vilfredo Pareto in The International Encyclopedia of Social Sciences.

- The Social System (Cleneco, Free Press, 1951).

QUINNEY. Crime Control in Capitalist society in Ian Taylor et al., Critical Criminology (London, Routledge Kegan Paul, 1976).

REMMLING, G. Towards the Sociology of Knowledge (Routledge and Kegan paul, London, 1973).

REX, J. Key Problems of Sociological theory (London, Paul Kegan, 1976).

SALMON'S A., "German Sociology" in George Gurvitch and Wilberte. Moore, Twentieth Century Sociology (New York: The Philosophical Library, 1945).

SCHELER M. The Nature of Sympath. (Trans. Peter Health London: Routledge and Kegan Paul, 1973).

SCHUT A. and T. Luckman. The Structure of the life World (Evanston; Northwestern University Press, 1973).

SCHWENDINGER. H. J. the Sociologists of The Chair (Basic books, New York, 1974).

SJOBERG. G. and ROGER NETT: A Methodology for Social Research (New York. Harper of Row, 1968).

SOCIOLOGY LIBERATION MOVEMENT HANDBILL, 1968, in Paul Horton and Gerald Lesli : Studies in the Sociology of Social Problems (New York ; Appleton-Century Crafts 1971).

STAUDE, J. Max Scholar: an Intellectual Portrait (New York, 1967).

TAYLOR, I. WALTON, P. and Young J. The New Criminology, (London. Routledge, 1972).

TAYLOR, I. et al. : Radical Criminology (London, Routledge, 1976).

WEBER, M. The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism (Scribner, New York, 1958).

- Basic Concepts in Sociology (New York, The Citadel Press, 1964).

ZEITLIN. I. Ideology and the Development of Sociological Theory (Prentice, Hall, New-Delhi, 1969).

رقم الايداع بدار الكتب المصرية

٥٢٦٧/١٩٨١م

الترقيم الدولى

٩٧٧ _ ٧٢٥١ _ ٩١ _ ٧

دار الهانى للطباعة والنشر

ت / ٤٤٤٢٠٥٥

مع التحية سنى إبراهيم خليل